إسرائيل عبر التاريخ

في

البدء

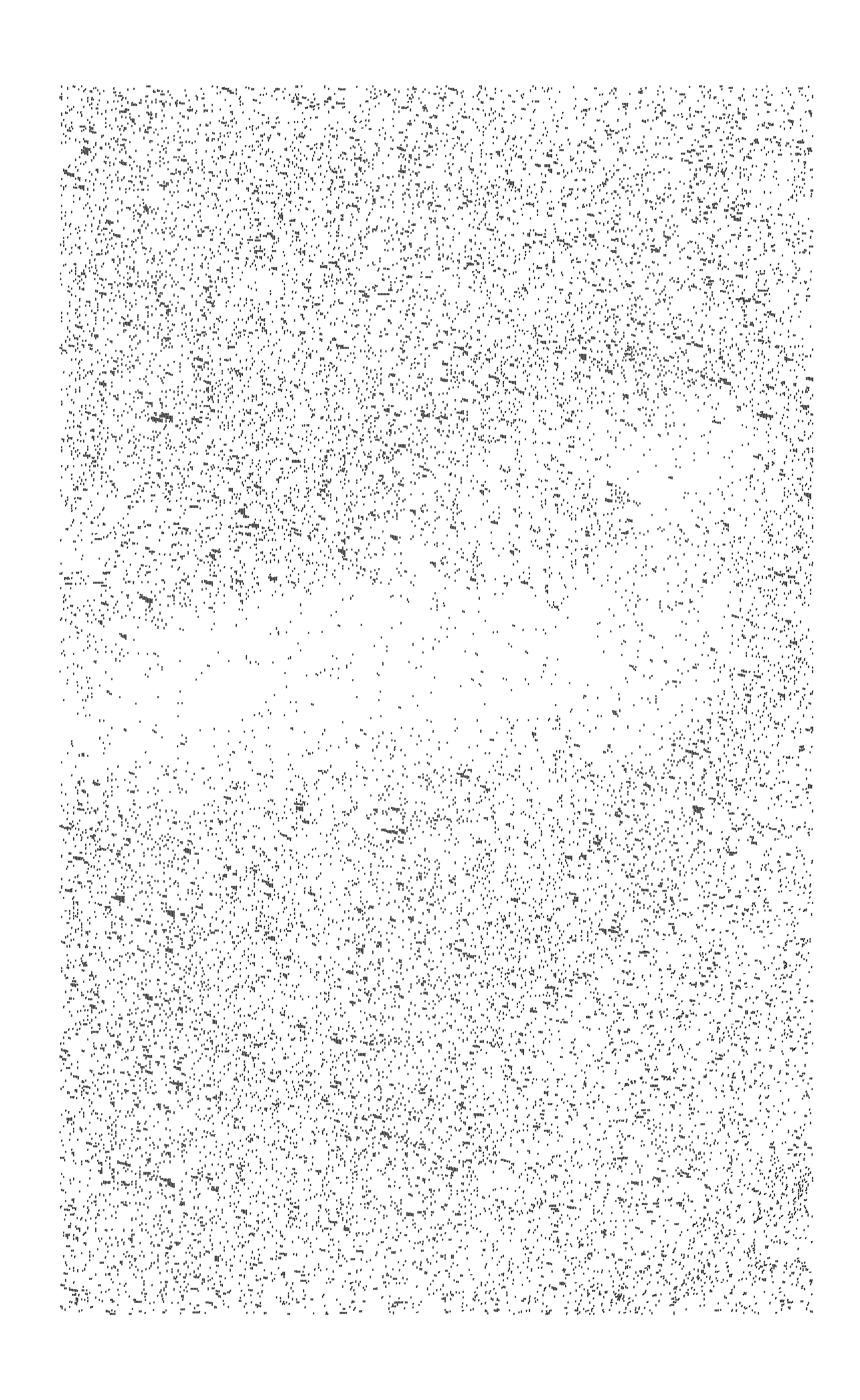
تأليف

الأستاذ الدكتور فؤاد حسنين علي

ملتزم التوزيع

دار النهضة العربية

٣٢ شارع عبد الخالق ثروت



إسرائيل عبر التاريخ

فى البــدء

تأليف

الأستاذ الدكتور فؤاد حسنين على

ملتزم التوزيع

دار النهضة العربية

٣٢ شارع عبد الخالق ثروت

بسم الله الرحمن الرحيم

مطبعة الرسالة

٩ شارع حسن الأكبر ... المقاول - عابدين

أرضنا

كانت فلسطين ومازالت كثيرها من سائر البلاد العربية هدفا للبعوث العلمية من العالمين القديم والجديد وبخاصة تلك التي تعنى بتاريخ الأديان أو التاريخ القديم أو التاريخ البشرى . لكن هذه المجهودات العلمية ظلت بين مد وجزر حتى طلعت علينا مؤسسة اكتشاف فلسطين(١) والتى أسست فى انجلترا عام ١٨٦٥ م بعد أن اخفقت محاولة قيامها مرتين مرة عام ١٨٠٤ وأخرى عام ١٨٤٠ م وقد بدأت هذه المؤسسة بداية حسنة فخططت الخرائط وحشدت كثيرين من علماء الآثار لنبش الأرض واخراج كنوزها ، وبدا هؤلاء العلماء بأورشليم .

ففى الفترة الممتدة من ١٨٦٧ حتى ١٨٧٠ قام (ك. ورين Ch. Warren) بحفائره فى مكان المعبد القديم فاكتشف « جيحون » الوارد ذكرها فى العهد القديم(٢) وهى المعروفة اليوم باسم « عين ستى مريم » والواقعة بالقرب من أسوار القدس .

وفيما بين عامى ١٨٧٢ — ١٨٧٥ نزلت فلسطين بعثة انجليزية تضم بين أعضائها (تشارلس ولسون Ch. Wilson والكابتن « كوندير Conder » واللورد كتشنر Kitchner » وضمت غرب الاردن إلى فلسطين علميا لكى تخضعه لأعمال الحفر والتنقيب التى تقوم بها المؤسسة الانجليزية . وفى عام ١٨٨٤ نجد (مودسلى Maudsley) يقوم بحفائر فى سور أورشليم الجنوبى ، وخلفه عام ١٨٩٤ (ف. ج. بليتز F. J. Blitz) وواصل العمل فى

---

(١) Palestine Exploration Fund

(٢) الملوك الأول ص ١ ى ٣٣ ... وسفر أخبار الأيام الثانى ص ٣٣ ى ١٤) .

هذه المنطقة حتى عام ١٨٩٧ . وكان هدف هذه البعثة كما يقال الاهتداء إلى امتداد هذا السور واتجاهه إلا أنه تبين لهؤلاء الأثريين إن مدناً كثيرة قامت فى ذلك المكان ثم طمرت . وادرك العرب أن أعمال الحفر هذه ستودى بالمدينة المقدسة القدس الشريف فأوقفوها إلا أنها انتقلت إلى جهات أخرى فى فلسطين وخارجها من البلاد المجاورة تحقيقا للمثل القائل « حيث نضع أقدامنا نقف على أرض تاريخية[١] » .

فى عام ١٨٩٠ أرسلت المؤسسة الانجليزية العالم « فليندرز بترى Flinders Petrie » ليشرف على أعمال التنقيب فى جنوب فلسطين اعتقاداً من الباحثين فى ذلك الوقت أن فى الجنوب قد يعثر على بقايا مدن هامة احتفظت باستقلالها زمنا طويلا أبان قيام مملكة يهوذا التى عاشت فترة أطول من المملكة الشمالية « اسرائيل » وكان الغرض من أعمال الحفر فيما يقال التثبت من صحة هذا الرأى فباشر (بترى) عمله من ابريل ١٨٩٠ حتى يناير ١٨٩٣ ثم خلفه تلميذه (فردريك جونز بليتز F. J. Blitz) فى منطقة « تل الحسى » والتى يرجح أنها بقايا مدينة الفلسطينيين الشهيرة المعروفة باسم « لخيش = ل ك ى ش » وتقع تل الحسى هذه على بعد ٢٦ كيلو مترا شمال شرقى غزة فى أقليم التلال الممتد بين جبال يهوذا وسهل الفلسطينيين الخصيب ، وللموقع قيمة عسكرية هامة جدا فهو مشرف على الطريق إلى مصر وإلى جواره نبع ماء بارد عذب ما زال يتدفق بالمياه حتى يومنا هذا .

وقد وفق (بترى) حقا عندما اختار هذا التل لأعمال الحفر إذ استطاع هو وتلميذه (بليتز) فى ثلاثة أعوام الكشف عنه

---

(١) quocunque ingredimur, in aliquam historiam vestigium ponimus.

والعثور على بقايا ثمان مدن قامت كل واحدة منها على انقاض الأخرى ويرجع تاريخها إلى ما بين ١٧٠٠ — ٣٠٠ ق . م . وتل الحسى هذا يقع بجوار المكان المعروف اليوم باسم « أم لاخش » وهو الموضع الذى جاء ذكره فى العهد القديم[1] كما جاءنا فى رسالة من رسائل تل العمارنة أن شخصا يدعى « زمردا » كان حاكما للخيش هذه . فما الدور الذى لعبته هذه المدينة فى تاريخ فلسطين ؟ لقد كانت هذه المدينة فى مختلف العصور الطريق المؤدى إلى مصر ويسلكه العدو الذى يريد بها شرا وإلى جانب ذلك فقد كانت حصنا حصينا منذ أبعد العصور بل وأقدم حصن عرفته فلسطين فى الجنوب وبخاصة أيام الكنعانيين ومن ثم توارثته دولة يهوذا وكثيرا ما رد عن البلاد عدوان الفاتحين ، وغير « لخيش » نجد مدنا أخرى لعبت دورا خطيرا فى تاريخ فلسطين ولعل أهمها هى « أورشليم » .

أورشليم

لا زالت أورشليم ، وهى مدينة القدس الشريف ، منذ أكثر من خمسة آلاف عام قلب فلسطين النابض وأن فتحت سبعا وثلاثين مرة وأحيانا سويت بالأرض إلا أنها ظهرت للوجود ثانية فهى المدينة الخالدة حقا . فقليلة المدن العالمية التى لها ما لأورشليم من تاريخ ملىء بالأعمال الخيرة والأحداث الدينية كما أننا لا نعرف مدينة قاست ماقاسته أورشليم .

فنى أيام ابراهيم نجد (شلم = ش ل م) أعنى (أورشليم) مكانا مقدسا للاله الأعظم[2] كذلك المكان المعروف باسم (موريا) والذى يقال أن ابراهيم أراد أن يقدم ابنه فيه قربانا هو حسبما جاء فى أخبار

---

(١) يشوع ١٠ ى ٣
(٢) تكوين ١٤ ى ١٨

الأيام الثانى(١) عبارة عن جبل المعبد وأول مرة نلتقى فيها بالمدينة فى نصوص مكتوبة كان فى رسائل تل العمارنة حيث نقرأ كيف أن والى مصر على أورشليم والمسمى (ايديبا) يرجو فرعون أن يمده بمدد لرد قبائل الخبيرى. ثم نعرف أورشليم أيضا كحصن لليبوسيين حتى تسمت المدينة فى أيامهم باسم (يبوس) ثم استولى عليها داود وعلى برجها الذى أطلق عليه اسمه فعرف فيما بعد باسم برج داود أما المدينة فجعلها عاصمة لمملكته وذلك لموقعها العسكرى العظيم وظلت كذلك أجيالا متعاقبة. ولم تكن أورشليم مدينة الملك فحسب بل مدينة الله أيضا وبخاصة بعد قيام المعبد بها ذلك المعبد الذى شيده سليمان والذى قام على انقاض المذبح الذى بناه داود على التل الشرقى لذلك أطلق لفظ (صهيون) على هذا التل. «على صهيون يسكن الله(٢)» ومن ثم عمم اللفظ أعنى صهيون على كل المدينة وقد رأت أورشليم أيام سليمان عصراً ذهبياً إلا أنه بعد تقسيم دولته تحولت أورشليم إلى عاصمة دويلة صغيرة فقيرة إلا وهى دويلة يهوذا وبخاصة فان الاهتمام وجه إلى الشمال حيث سهل إسرائيل. وفى أيام (رحبعم) استولى فرعون مصر «شيشق» على المدينة وخرب معبدها والقصر. ويحدثنا سفر أخبار الأيام الثانى(٣) أنها خربت للمرة الثانية على يد العرب الفلسطينيين، واهاج الرب على يهورام روح الفلسطينيين والعرب الذين بجانب الكوشيين فصعدوا إلى يهوذا وافتتحوها وسلبوا كل الأموال الموجودة فى بيت الملك مع بنيه ونسائه أيضا ولم يبق له ابن إلا يهواحاز أصغر بنيه»

وظلت أورشليم بين ازدهار وانهيار حتى استسلمت صاغرة لنبوخذنصر

---

(١) الاصحاح الثالث الآية الثانية.

(٢) يوئيل ص ٤ ى ٢١

(٣) الاصحاح ٢١ ى ١٧.

عام ٥٨٦ ق . م الذى لم يكتف بالإستيلاء على المدينة بل هدم معبدها وخرب مبانيها وسبى عددا كبيرا من سكانها[1] وظلت أورشليم والمعبد وسائر المبانى خربة كما نتبين هذا من سفر المراثى .

ثم ظهر الفرس على المسرح السياسى ودالت لهم بلاد كثيرة من بينها بابل وممتلكاتها فهبت على أورشليم ريح جديدة وسمح للاسرائيليين بالعودة إلى فلسطين وكان هذا الحادث بمثابة بعث جديد لهم وأخذت دماء الحياة تعاود مجراها فى الشرايين الإسرائيلية ، فشرع القوم فى إعادة بناء أورشليم وتشييد أماكن للعبادة وهى وإن لم تكن فى أبهة وعظمة ما كان قبل السبى إلا أنها خطوة فى سبيل انعاش الحياتين الدينية والاجتماعية وهكذا تخطو أورشليم بخطوات ثابتة طيلة مدة الحكم الفارسى حتى ظهر الاسكندر المقدونى فقوض أركان دولة الفرس وورث أملاكها . وتوفى الاسكندر عام ٣٢٣ ق . م . فتبخرت معه آماله وأحلامه ولم يقم الامبراطورية العظيمة التى سيخفق علمها على كل من مقدونيا وفارس كما أن خلفاءه كفروا بهذه الفكرة وطلقوها وقامت عوضا عنها دول مستقلة وكانت فلسطين واحدة من هذه الدويلات إلا أنها كانت موضع نزاع بين الدولة التى قامت على ضفاف النيل وتلك التى قامت على ضفاف الفرات وسوريا واستطاع بطلميوس الأول الاستيلاء على سوريا فضم اليها فلسطين وفى أوائل القرن الثانى ق . م . نجح انطيوخوس العظيم فى انتزاعها من مصر وماكاد يستتب له الأمن فيها حتى اصدر قانونين يقرر فى أولهما بناء المعبد وحرم فى ثانيهما على الأجانب الاقتراب منه كما منع أيضا إدخال الحيوانات النجسة إلى أورشليم ، وظلت المدينة المقدسة تنعم بحياة سعيدة حتى جاء انطيوخوس ابيفانوس فتحولت فى

---

(١) الملوك الثانى ٢٤ ى ١٥ .

عصره إلى مسرح المذابح والاضطرابات وذلك لأنه عندما عاد انطيوخوس حوالى نهاية عام ١٧٠ تقدم بجيشه إلى أورشليم ونهب كنوز المعبد ولم يكتف بهذا بل حول المدينة إلى أخرى هللينية وقتل جميع الذين اعترضوه عن آخرهم فالرجال قتلوا وبيع النساء والأطفال بيع الرقيق ، وهرب من المدينة من استطاع الإفلات وجيء بسكان أجانب استوطنوا المدينة عوضا عن الذين قتلوا أو شردوا وذلك تنفيذا لخطته الرامية إلى تحويل أورشليم إلى مدينة يونانية لذلك سارع فهدم أسوار المدينة وخرب أجزاء من المعبد وأقام فى مذبح إله اليهود مذبحا آخر للإله (جيوبيتر) كما أحضر جماعات مقدونية وسورية وأسكنها عكا هذا المكان الحصين الواقع شمال حصن صهيون . إلا أن يهوذا المكابى استطاع (١٦٥-١٦١) فتح أورشليم عدا البرج الذى ظل فى يد المحتلين السوريين وكذلك حصن جبل المعبد كما نجد أخا يهوذا المسمى يوناثان (١٦١ - ١٤٣) يهتم بتحصين المدينة وأقامة سور قوى عزل الحامية السورية النازلة فى عكا عن حامية أورشليم ، ومن ثم نجد الأمور تتطور بين المكابيين أنفسهم مما أدى إلى تدخل الرومان . وعندما ظهر (بومبيوس) عام ٦٣ ق م أمام أورشليم طلب (اريستوبول) إيقاف القتال وأظهر استعداده لتسليم (بومبيوس) مفاتيح المدينة ولما ذهب مساعد القائد الرومانى لإستلام المفاتيح وجدها مغلقة فاعتقل (اريستوبول) بينما سارع خصمه إلى فتح الأبواب واستولى بومبيوس على المدينة دون أدنى مقاومة وإن اضطر إلى مقاتلة اتباع اريستوبول ففنى منهم زهاء اثنى عشر ألف شخص واضطرت المدينة المقدسة إلى الاستسلام النهائى للامبراطورية الرومانية وانتهى استقلال اليهود

ثم تتابعت الأحداث بعد ذلك وسمح القيصر لأحد عملائه الذى أسند إليه أمارة البلاد تحصين أورشليم ودبت العداوة بين هذا الأمير

الادومى صنيع الرومان وبين الحاكم الإسمى الشرعى الضعيف أعنى (هيركان) الثانى فطلب (هيركان) من (هيرودوس) (٣٧ — ٤) نصرته وكان هيرودوس فى ذلك الحين أميراً على الجليل . فلم يشعر (هيركان) إلا وهيرودوس يواجهه فى أورشليم على رأس جيش قوى فاستصرخ (هيركان) الأمير العربى (مليخوس = ملك) فأوقع الهزيمة أولا بالعميل الرومانى إلا وهو (انتيباتر) ومن ثم واجه هيرودوس. وعقب حرب شديدة استطاع هيرودوس الاستيلاء على أورشليم وبعد مناورات دامت طويلا قضى هيرودوس عام ٣٧ م نهائياً على المكابيين ثم عنى باورشليم فشيد فيها قصراً لنفسه استخدم فى تشييده الرخام والذهب وفى هذا القصر العظيم ذى الأسوار العظيمة والأبراج الشاهقة كان يقيم فيما بعد الحكام الرومانيون الذين كانوا يحكمون اقليم يهوذا وفى هذا القصر أيضاً استدعى (بيلاطس) المسيح وسمع أقواله . وفى أيام أنطونيو أمر بإعادة بناء البرج الواقع شمال المعبد وتكريماً لسيده أنطونيوس أطلق على البرج اسم (أنطونيا) لكن أكبر بناء قام به هو البناء الجديد لمعبد أورشليم وقد تم بناؤه عام ٦٣ م ولم يمض على وجوده سبعة أعوام حتى هدم إلى الأبد وكان هذا المعبد عظيما جداً حتى ضرب به المثل القائل « من لم ير بناء هيرودوس لم ير جميلا » . لكن الاحتلال الرومانى صادف كثيرا من المتاعب فى سبيل مكافحة الاضطرابات والقضاء على يد المشاغبين مما اضطر روما إلى إرسال جيش قوامه ٦٠٠٠٠ مقاتل تحت قيادة (فسبسيان) فاستولى على جزء كبير من فلسطين . ولما تقدم إلى أورشليم وقعت أحداث فى روما اضطرته إلى العودة فأسند قيادة الجيش إلى ابنه (تيتوس) وفى عيد الفصح لعام ٧٠ م حاصر (تيتوس) المدينة ثم هاجمها واقتحمها بعد حصار لم يدم أكثر من خمسة أشهر وفى ١٠ ابريل كان المعبد بكنوزه وقوداً للنيران كما قتل ، فيما يقال ، فى موقعة أورشليم هذه زهاء ألف ألف يهودى أما البقية الباقية فقد استعبدهم الرومان وسخروهم للعمل فى محاجر

مصر أو فى حظائر الحيوانات المفترسة . أما أعيان اليهود وكانوا يبلغون نحو سبعمائة وجيه فقد استخدموا فى جر عربة (تيتوس) لما قام بمسيرته فى روما مار بقوس النصر الذى شيد خصيصا له تخليدا لهذا النصر الذى أحرزه على اليهود وعلى جبينه اكليل الغار الآن لا يوجد معبد ولا أورشليم أو كبير حاخاميين أو مجلس يشرف على سائر اليهود . لا فلسطين يهودية ولا مجتمع يهودى .

وفى عصر القيصر (هدريان) (١١٧ — ١٣٨ م) تقرر بناء مدينة أخرى على أنقاض أورشليم التى خربها الرومان وأصبحت مقراً للفرقة العاشرة من الجيش الرومانى فبدىء فى تشييدها عام ١٣٠ م وأطلق عليها اسم (اليا كابيتولينا Aelia Capitolina) وحيث كان المعبد القديم شيد معبد للاله (زويس) . فأثارت هذه التحديات اليهود فقاموا قومة رجل واحد تحت زعامة (بر كوكبة) واستولوا على أورشليم وخلدوا هذا النصر باصدار عملة تحمل الشعار « لحيروت يروشليم » أى لتحرير أورشليم إلا أن هـذه الحرية لم تدم طويلا إذ انقض القائد الرومانى (يوليوس سيفيروس) بأمر من القيصر هدريان على بر كوكبة فهزمه والثوار شر هزيمة وقتل بر كوكبة كما حرم على اليهود دخول أورشليم التى صارت تعرف باسم (اليا كابيتولينا) وهدد باعدام كل يهودى تحدثه نفسه بدخولها وهـكذا أخذ الظلام يخيم على المدينة حتى انتصرت المسيحية فقوضت معبد جيوبيتر لـكن اليهود ظلوا كما هم محرومين من دخول المدينة اللهم إلا إبان فترات قليلة ولما جاء يوستنيان الأول (٥٢٧ — ٥٦٥ م) ذهب بعيداً فى اضطهاد اليهود فجردهم حتى من الحقوق العامة فازداد حقدهم على البيزنطيين وأخذوا يتحينون الفرص للتخلص من نير حكمهم ففى أوائل القرن السابع الميلادى تحالفوا مع الفرس ولما أقبل خسرو الثانى يقود جيشاً مهاجما سوريا وفلسطين احتشدت جماعات من اليهود تحت قيادة

بنيامين الطبرى الذى انضم بقواته إلى الفرس وتقدموا تحت العلم الفارسى. إلى أورشليم للاستيلاء عليها وتحريرها من حكم البيزنطيين وقد تم لهم النصر واستولوا على المدينة فى يوليو عام ٦١٤ م إلا أن القيصر هرقل عاد فاستردها عام ٦٢٧ م كما استرد فلسطين وضرب بذلك النصر الدولة الساسانية الضربة القاضية وعاد اليهود ثانية عبيدا للبيزنطيين لكن ظهر فى ذلك الوقت عدو جديد متربصا بالبيزنطيين فى الشرق وهذا العدو الجديد هو الإسلام إذ ضرب العرب البيزنطيين الضربة القاضية حقا فى عام ٦٣٨م استولى جيش الخليفه عمر على أورشليم وساد الإسلام فلسطين وأصبحت اليا كابيتولينا أو أورشليم تعرف منذ ذلك التاريخ باسم القدس الشريف. كما أصبحت المكان المقدس الثانى بعد الكعبة عند المسلمين. فى القدس الحرم الشريف ويقال أن يوم الفصل فى الآخرة سيكون فى القدس.

وتحت راية الإسلام تنفس اليهود نسيم الحرية بعد أن ذاقوا مرارة الاستعباد قرونا طويلة من الوثنية حينا والمسيحية أحيانا وظلوا ينعمون بعدالة الإسلام حتى رماهم الله بالصليبيين فى عام ١٠٩٩ م انقض الصليبى (جوتفريد فون بوييون) على المدينة المقدسة وجمع يوم ٢٥ يوليو ١٠٩٩م جميع اليهود قرائين وربانيين فى معبد وأشعل فيهم النار وبذلك قضى نهائيا على يهود القدس . ومن حسن الحظ أن الحكم المسيحى لم يدم طويلا فى البلاد إذ استرد صلاح الدين فى ٢ أكتوبر ١١٨٧ م المدينة وقضى على الدولة الصليبية وعادت القدس إلى حظيرة الاسلام ثانية .

وليست هذه هى آخر نكبة نكبها اليهود ففى عام ١٢٦٠ غار المغول بقيادة هولاكو على المدينة المقدسة وظن اليهود أنهم شعب ياجوج وماجوج الذى تنبأ به أنبياؤهم فقتل جيش هولاكو كثيرين من اليهود وشرد الباقين ونجح أحد اليهود فى إنقاذ نسخة العهد القديم الوحيدة فى القدس ونقلها إلى نابلس. ولما استولى السلطان الأشرف سلطان مصر على عكا واستخلصها من

المسيحيين سقط آخر حصن مسيحى فى البلاد المقدسة وبذلك سمح لليهود بالعودة إلى فلسطين واستيطانها وهكذا نجد الهجرة اليهودية إلى فلسطين تأخذ فى الزيادة تدريجيا وبخاصة منذ عام ١٥٠٠ م وذلك نتيجة لطرد اليهود من اسبانيا والبرتغال ، كذلك زادت الهجرة إلى فلسطين عقب ضمها إلى الدولة التركية أيام سليم الأول عام ١٥١٧ م عقب المعركة التى دارت بين الترك والمماليك عند حلب ولم يكد ينتصف القرن السابع عشر حتى تدفقت جموع كبيرة من اليهود البولنديين على فلسطين وأبان ذلك العصر ظلت فلسطين كما مهملا حتى أخذت الدول الأوربية توجه اهتمامها إلى الشرق وقد بدأ ذلك بمجىء نابوليون بونابرت حيث تقدم نحو فلسطين عام ١٧٩٩ ماراً بالعريش وغزة على رأس قوة مؤلفة من أثنى عشر ألف مقاتل . وفى عام ١٨٠٠ وجه نابوليون نداءً لليهود الشرقيين يدعوهم إلى مساندته والإنضمام إلى صفوفه ووعدهم مقابل ذلك بمنحهم البلاد المقدسة وأن يعيد إلى القدس مجدها القديم ومكانتها الرفيعة إلا أن يهود القدس ظلوا على ولائهم لتركيا لأنهم لم يثقوا فى نابليون ووعوده وفشلت حملة نابوليون واختفى سريعا من مسرح السياسة الشرقية ، إلا أنه فتح أنظار الأوربيين إلى فلسطين وإلى القضية الصهيونية . وفى عام ١٨٢٥ ثار السكان ضد الباب العالى لفداحة الضرائب وغلاء المعيشة كما استولى محمد على باشا عام ١٨٣١ عليها ومن ثم اضطر تحت ضغط السياسة الأوربية إلى التنازل عنها عام ١٨٤٠ إلى السلطان عبد المجيد .

وفى ديسمبر ١٩١٧ سقطت فى يد الانجليز فى اليوم التاسع من شهر ديسمبر وقف الجنرال اللنبى أمام باب يافا بالقدس وقال جملته المشهورة . « إن الأرض الموعودة ليست للعرب أو الفرنسيين أو اليهود وإنما للانجليز » وعد الجنرال اللنبى بلاده فلسطين ، وكان وعده هو الوعد الرابع ، إذ سبق أن وعدت بها انجلترا العرب فى اكتوبر عام ١٩١٥ ،

والفرنسيين فى مايو عام ١٩١٦ ، واليهود فى نوفمبر عام ١٩١٧ ، ووعدت انجلترا نفسها فى ديسمبر من العام نفسه . لذلك تهكم الساسة الغربيون على العهود الأربعة التى قطعت ، والوعود التى بذلت ، وأطلقوا على فلسطين : « الأرض التى تعدد الوعد بها too much promised ».

إن مشكلة فلسطين قديمة وأقدم من المؤتمرات الصهيونية إلا أن حدثاً هاماً وقع فى العالم اليهودى لفت نظر اليهودية العالمية وذلك لأن صحيفة من كبريات صحف فيناوهى «دى نويه فرايا بريسا Die Neue Freie Presse» أرسلت أحد أبناء بودابست وهو تيودور هرزل (١٨٦٠ — ١٩٠٤) إلى باريس ليوافيها بأخبار قضية « دريفوس Dreyfus » المتهم بالتجسس . وكان (هرزل) حتى ذلك الوقت بعيداً كل البعد عن فكرة الصهيونية ، إلا أن حركة العداء للسامية التى تجلت فى هذه القضية دفعت (هرزل) إلى الإرتماء فى أحضان الصهيونية ووضع رسالته المشهورة المعروفة بأسم « دولة اليهود Judenstaat » وفيها يدعو (هرزل) إلى إيجاد حل لإنقاذ يهود أوربا من العذاب والاضطهاد واقترح حلا لهذه المشكلة إيجاد وطن قومى يهودى . ولم يكن (هرزل) هو أول من اقترح مثل هذا الحل ، فقد سبقه إليه (موسى هس Moses Hess [1]) مؤلف كتاب « روما وأورشليم Rom und Jerusalem » (١٨٦٢) وكذلك « ليون بينسكر Leon Pinsker » صاحب كتاب « التحرر Autoemanzipation » (١٨٨٢) وإلى هذه الرسالة يرجع الفضل فى بعث « حركة أصدقاء صهيون = حبيوه صيون »

والنتيجة المنتظرة لمثل هذا النشاط الصهيونى تبلور فكرة قيام الدولة

---

(1) A. Pollak : Zionismus. Berlin. 1934 p. 33.

اليهودية والتى أصبحت عقيدة راسخة عند الصهيونيين فاستغلوها استغلالا قويا ودعوا لها بمختلف الوسائل فتلقفتها الجاليات اليهودية فى مختلف المدن الأوربية وبخاصة هذه الجالية النازلة فى مدينة « بلونسك Plonsk » الصناعية الواقعة على النهر الذى تنسب اليه وعلى بعد ستين كيلو مترا شمال غربى وارسو . وفى هذه المدينة أبصر نور الحياة «دافيد افيجدور جرين David Avigdor Green أو كما تسمى وهو ابن الرابعة والعشرين «دافيد بن جوريون» ثم منذ عام ١٩١٥ لما اقترن بالسيدة « بولا مونفيس » لا ينادى فى البيت إلا باسم « دوفيدله »، وهو الابن السادس للسيد « افيجدور جرين » وحرمه السيدة « شيندال » .

وعلى بعد ثلثمائة كم . شرقى « بلونسك » من الجانب الآخر لوارسو تقوم مدينة « بنسك Pinsk » حيث التحق فى نفس العام الذى ولد فيه دافيد أعنى ١٨٨٦ طفل يهودى آخر يدعى « حاييم فيزمان » وهو ابن اثنى عشر عاما بمدرستها التجهيزية .

ومن الغريب حقاً أن يجمع التاريخ بين هذين الشخصين اللذين ولدا فى وطن واحد وفى عصر واحد وحققا رسالة واحدة إلا وهى احتلال فلسطين فحاييم كان مهندسها ودافيد بناءها و (فيزمان) أول رئيس لها كما أن بن جوريون أول رئيس لوزرائها .

أما (افيجدور) فقد تخرج فى كلية الحقوق إلا أن الحكومة القيصرية الروسية منعته من مزاولة مهنة المحاماة لكن هذا المنع لم يحل دون ذيوع صيته وتحليق شهرته بين أهالى (بلونسك) حيث قصده الكثيرون من أهالى البلدة لاستشارته فيما يعن لهم من مشاكل . وكان (افيجدور) حريصا على تعليم أولاده اللغة العبرية إلى جانب الروسية اللغة الرسمية فأثار غضب كثيرين من متزمتى اليهود الذين ينظرون إلى اللغة العبرية على

أنها لغة مقدسة ويجب ألا تنحدر إلى السوق والسوقة ، كما عنى دافيد منذ طفولته بدراسة تاريخ الكتاب المقدس والشرق الأدنى فوجدت الصهيونية إلى نفسه ترحيبا وقبولا فتجاوب مع والده فيمايدعو اليه بين أنداده واقرانه وتكاثر رواد بيت (جرين) وتحمست بعض الأقلام فدبجت المقالات حول تحقيق فكرة الوطن القومى ، كما نشط (جرين) وأكثر من عقد الاجتماعات وتأسيس المكاتب فى البلاد المختلفة للدعوة لهذه الفكرة بين مختلف الطوائف اليهودية فى روسيا القيصرية .

أما (هرزل) فقد أصدر مجلة أسبوعية تسمى (دى فيلت Die Welt) وذلك فى ٤ يونيه ١٨٩٧ وظلت تصدر نحو ١٧ عاما كلسان رسمى للدعاية الصهيونية ، وفى المدة الممتدة بين ٢٩ — ٣١ أغسطس ١٨٩٧ عقد أول مؤتمر صهيونى فى مدينة بازل بعد أن رفضت الطائفة اليهودية وجماعة الحاخاميين عقده فى مدينة ميونخ فكان هذا المؤتمر أول مجلس نواب يهودى بعد ألفى سنة ، وللمرة الأولى أخذ يتحدث اليهود داخل هيئة جماعية عن العودة إلى فلسطين كما لو أن العودة حقيقة واقعة وليست حلماً وأمنية ، ثم عرض المؤتمرون لعدة مقترحات تهدف إلى تحقيق فكرة الوطن القومى منها إنشاء جامعة عبرية فى القدس ، وفتح اعتماد مالى وطنى يهودى وتأسيس مصرف يهودى مركزى فى لندن لتمويل استعمار فلسطين وقد حقق اليهود جميع هذه الخطوات التى نادوا بها ففى عام ١٨٩٩ تكون البنك اليهودى الاستعمارى (Jewish Colonial Trust) .

وفى عام ١٩٠١ (قرن قياميت ليسرائيل) أعنى الرصيد القومى اليهودى .

وفى عام ١٩٠٢ قامت الشركة الفلسطينية الإنجليزية فى يافا (Anglo - Palestine Company وفى أبريل ١٩٢٥ افتتحت الجامعة العبرية بحضور اللورد بلفور وكثيرين من مشاهير الرجال .

كذلك استقر الرأى على صنع علم يهودى قومى من اللونين الأزرق والأبيض كما تقرر كذلك وضع نشيد للوطن المنشود وهو النشيد المعروف اليوم باسم (هتقوه Hatiqwa) أى الأمل .

لجميع هذه القرارات وتلك الأحداث لم تأت وتذهب وكأنها حبر على ورق فقط بل نفذت وتركت أبعد الآثار بين اليهود عامة وبخاصة الأوربيين منهم الذين كانوا عرضة للاضطهاد .

ففى (بلونسك) نجد دافيد ابن الرابعة عشرة يكون مركزاً لحركة الشباب الصهيونى حيث أقسم الأعضاء آلا يتحدثوا إلا العبرية وآلوا على أنفسهم أن ينشروا العبرية بين الشبيبة اليهودية ثم سرعان ما نجد لسان دافيد ينطلق خطيبا فى وارسو داعيا باللغة العبرية إلى نشر المبادىء الصهيونية . وبلغ من مهارة أفيجدورجرين أنه استغل مرة تشكيل الحكومة الروسية ببعض اليهود عام ١٩٠٣ فى بساراييا فضاعف جرين وغيره من اليهود من نشاطهم وأسس دافيد هيئة العمال الصهيونيين (فوعالى صيون) وهى هيئة عمالية صهيونية اشتراكية تهدف إلى العمل على الاستيلاء على فلسطين .

لكن الذى حدث أن محاولة شراء هرزل لفلسطين من الباب العالى باءت بالفشل فدخل هرزل مع الإنجليز عقب قيام الشركة الفلسطينية الانجليزية فى مفاوضات خاصة للاستيلاء على منطقة العريش إلا أن موقف مصر الحازم قضى على هذه المحاولة بالفشل . فلجأ هرزل إلى وزير المستعمرات

البريطانى يوسف شمبرلين الذى اقترح عليه أن يقطع اليهود نحو ١٥ ألف كيلو متر مربع من مرتفعات كينيا لاستيطانهم على أن تكون الدولة اليهودية تحت الحماية البريطانية ويعرف هذا المشروع باسم مشروع أوغنده . فقبله هرزل وأنصاره على أنه وسيلة لا غاية وسيلة لأنه سيمكن اليهود هناك من تشكيل جيش قوى يستطيعون بواسطته غزو فلسطين والاستيلاء عليها !! لكن هذا المشروع الذى عرضته أنجلترا عام ١٩٠٣ أصطدم بمعارضة قوية قام بها وتزعمها متطرفو الصهيونية وقال دافيد وانصاره جملته الشهيرة « أن الصهيونية ليست البحث عن وطن نهرب إليه من الاضطهاد الأوربى بل العمل على العودة إلى فلسطين » فهزم المشروع عند ما طرح للبحث فى المؤتمر السادس الصهيونى (بازل ٢٣ — ٢٨ أغسطس ١٩٠٣) وذلك بسبب تكتل الصهيونيين الروس .

ولم يقف تطرف دافيد عند هذا بل نجده بينما يدرس فى وارسو يهجر العلم وينصرف إلى الشغب والدعاية الصهيونية ففشل فى دراسته ثم سمع من أحد العائدين من فلسطين ما حبب إليه الهجرة إلى الأرض الموعودة فاتفق مع صديق له وهو (شلومو زيماخ) على الرحيل إلى فلسطين فاستقلا سفينة روسية أقلعت من أوديسا إلى البحر الأبيض المتوسط ووقف الشابان فى ملابسهما الرثة يتطلعان فى لهفة إلى الأفق علهما يبصران أول جزء من فلسطين وبغتة وبعد رحلة دامت ستة أسابيع ظهرت لهما يافا وطن قبيلة دان وفى مياهها تحطمت سفينة نبى الله يونس عندما غضب الله عليه فابتلعه الحوت ، كما يحدثنا التاريخ أن اليونانيين كثيراً ما استدرجوا اليهود إلى يافا وأغرقوهم فى مياهها .

رست السفينة وخرج اليهوديان (دافيد) و (وشلومو) ، وقصدا لتوهما فندقا متداعياً يسمى فندق حاييم باروخ ، وهناك اجتمع دافيد بالأعضاء

المحليين لجماعة (فوعلى صيون) وتوجهوا فى تلك الليلة إلى (فتاح تقوه) أى (مفتاح الأمل) وقد أسسها يهود القدس عام ١٨٧٨ وتعتبر هذه المستعمرة الأم التى ولدت مختلف المستعمرات الصهيونية فى فلسطين وخارجها ، وإلى البارون روتشيلد يرجع الفضل فى تمويلها كما خلق منها مستعمرة زراعية هامة وقد ظل دافيد يعمل هناك فى الزراعة والخمور عاما كاملا .

وحدث أن عقد فى فلسطين مؤتمر للعمال الصهيونيين فظهر من بين رؤسائه يهودى روسى وصل حديثا من أوكرانيا هاربا من وجه الحكومة الروسية التى كانت تريد القبض عليه لحيازته كميات كثيرة من الأسلحة والذخيرة واسمه (أسحق شيمشيليفيتش Schimschelevitsch) ولما وصل يافا نزل فى فندق صغير بها . وسجل اسمه على أنه (بن تصبى)(ابن الظبى) . وهو اسم تنكرى ظل محتفظا به حتى وفاته وهو رئيس الدولة ، فنشأت بينه وبين دافيد صداقة قوية . وانتهز دافيد فرصة انعقاد مؤتمر العمال الصهيونيين واتخذ قراراً أشد خطورة على العروبة من هذا النشاط الاقتصادى الذى يقوم به هو وسائر زملائه فى فلسطين . أما هذا القرار الخطير فهو إنشاء هيئة سرية عسكرية تعرف باسم (هشومير) أى الحارس ويرأس هذه الهيئة أسحق بن ظبى والذى قرر كذلك أصدار مجلة أسبوعية تكون لسان حال العمال الصهيونيين وفى اللغة العبرية واسمها (ها احدوث) أى الاتحاد واختار فتاة تعاونه اسمها (راحيل يانيت) وهى التى اقترن بها فيما بعد . ولكن راحيل كانت تجهل العبرية لذلك اضطر إلى طلب مساعدة دافيد والذى كان يعمل وقتذاك فلاحا فى الجليل . وفى عام ١٩١٠ حضر دافيد إلى القدس حيث أخذ يعمل صحفياً إلى جانب عمله الجديد كموظف فى هيئة العمال الصهيونيين كما تعين رئيسا لتحرير مجلة (ها احدوث)ودبج لها أول مقال له وقد وقعه باسم (بن جوريون = ابن الشبل) وهذه هى أول مرة استخدم فيها هذا الأسم الجديد والذى ما زال يستعمله حتى

يومنا هـذا وكان عمره وقتذاك أربعة وعشرين عاما كما أعلن نفسه مواطنا فلسطينياً .

ويذكر عن بن جوريون أنه لم يكن راضيا عن موقف اليهود من فلسطين فاليهود إذا ما وفدوا عليها جاؤها كسائحين ولفترة قصيرة لذلك قال مرة : في روما كاثوليك وليس في صهيون يهود: وعلل هذه الظاهرة بعدم استقرار اليهودية وتأصلها في فلسطين لذلك اتفق مع بن ظي على الاستعانة بالطرق العلمية لتدعيم اليهودية وتثبيتها وتقوية أصولها في فلسطين وذلك لن يتأتى دون القيام بدراسات علمية مختلفة تساعد على بعث الوعى القومى ، وقر قرارهما على السفر إلى استنبول صاحبة السيادة الحقيقية على فلسطين لدراسة اللغة التركية أولا والقانون ثانيا وقد منى كل منهما نفسه بأنه سيأتى اليوم الذى يدخل فيه مجلس الأعيان التركى ممثلا لليهود . فسافر بن جوريون إلى سالونيكى حيث تعيش هناك جالية يهودية كبرى ومنها إلى استنبول حيث التقى بالأمير عبد الله بن حسين بن على الذى كان يدرس فى نفس الكلية . ونشأت بينهما صداقة قوية ظلت حتى بعد عام ١٩٤٦ عندما تولى الأمير عبد الله أمارة الأردن[1] .

ولحق بن ظي بصديقه بن جوريون وحذا حذوهما كثيرون من الشباب اليهودى الفلسطينى فنجد أمثال موشى شرتوك الذى اتصلت حياته بحياة بن جوريون زهاء أربعين عاما . ووفد على استنبول أيضا اليهودى العسكرى (يوسف ترومبلدور) الذى ذاع صيته جنديا باسلا فهو الضابط اليهودى الوحيد فى جيش روسيا القيصرية وقد أبلى بلاء حسنا فى الحرب الروسية اليابانية فطارت شهرته من سيبريا إلى البحر الأسود ، وقد

(1) Rabert St. John : Ben Gurion. Muenchen 1961 p. 157, 164, 178, 254.

فقد ذراعه أبان حصار ميناء (بورت أرثر) وأصبح مواطناً فلسطينياً
قطن (داجانيا) الواقعة على الحدود السورية الفلسطينية وقد روى عنه
أنه بالرغم من مغامراته الحربية كان من أنصار السلام والداعين له .

وأعلنت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ — ١٩١٨) واختلف رأى
الصهيونية العالمية حول الموقف الذى يجب أن نقفه منها فبن جوريون
وبن ظبي أصدرا نشرة فى اللغة العبرية حول إدارة الولايات التركية .
أما حاييم فيزمان فقد أعلن منذ اللحظة الأولى وقوف الصهيونية العالمية إلى
جانب بريطانيا العظمى ومن بين الزعماء الصهيونيين مثل بن جوريون من
يرون فى انتصار بريطانيا انتصاراً لروسيا التى كثيرا ما اضطهدت اليهود
وسامتهم سوء العذاب ثم اخذت تركيا تجند القادرين من رعاياها وكان
أن أصبح (موشى شرتوك) ضابطا فى الجيش التركى واختفى (ترومبلدور)
وظهر فجأة فى الاسكندرية وقرر بن جوريون وبن ظبي تعبئة فيلق لخدمة
قضية فلسطين والاشتراك فى فتحها تثبيتا لحق اليهود فيها وبغتة ظهر
فى الإسكندرية إلى جوار (ترومبلدور) يهودى خطير جداً إلا وهو
(فلاديمير جابو تينسكى) الصحفى الروسى والذى كان يشارك بن جوريون
بغضه لتركيا فقدصرح مرة : حيث تحكم تركيا لا تطلع شمس ولا ينبت
عشب . وهو يوافق أولئك الذين يقررون إن ضياع تركيا شرط لابد منه
لانشاء الوطن القومى اليهودى . وقد كان (جابو تينسكى) خطيبا مفوها
يجيد عدة لغات فكان المثل الأعلى للشباب اليهودى كما كان شاعرا وعالما
وناقدا فنيا وصهيونيا متطرفا فلفت إليه أنظار أمثال(جوركى) و(تولستوى)
وكان الوطن القومى فى رأيه كل فلسطين بحدودها الطبيعية بما فى ذلك الأردن
لذلك قرر كل من (ترومبلدور) و (جابو تينسكى) تعبئة فيلق يهودى
يشارك فى فتح فلسطين فيسجل لليهود نصراً عظيما يكيف مستقبل فلسطين .
وقد تم لهما ما أرادا وتكون فيلق من ستمائة يهودى يستخدمون البغال

فاتجهوا تحت قيادة (ترومبلدور) إلى غاليبولى وأطلق على هذا الفيلق اسم « فيلق بغال صهيون .

وبينما تجرى الأمور على هذه الوتيرة فى الشرق إذ بنا نجد بغتة بن جوريون وبن ظبي يصلان إلى الإسكندريه فيلتقيان باليهود والانجليز ومن ثم يواصلون سفرهما إلى نيويورك فيصلانها فى صيف عام ١٩١٥ وهناك أخذا يدعوان يهود أمريكا إلى تكوين جماعة (حلوصيم) : « رواد » ليساهموا بانضامهم إلى الجيش البريطانى فى غزو فلسطين وسيكون هذا الفيلق همزة الوصل بين الأمريكيين وسائر اليهود وانضم الفيلق إلى الجيش البريطانى لا الأمريكى وبخاصة فان أمريكا لم تعلن الحرب على تركيا بل على ألمانيا .

وفى أواخر عام ١٩١٥ التقى بن جورين فى أمريكا بيهودية روسية كانت تعمل معرضة هناك واسمها (بولا مونفيس Paula Munweis فاقترن بها سرا .

وإذا تركنا (ترومبلدور) وفيلقه واتجهنا إلى انجلترا عام ١٩١٧ وجدنا « جابوتينسكى) بعد أن اندلعت نيران الثورة فى روسيا يحصل على إذن من بريطانيا بتعبئة فيلق يهودى يحارب إلى جانب الفيلق البريطانى ٣٨ مشاة وينتهز (ترومبلدور) اندلاع الثوره الروسية أيضا ويحاول تكوين جيش قوامه مائة ألف يهودى ليخترق بهذا الجيش القوقاز إلى فلسطين ويستولى عليها .

وفى شهر نوفمبر صدر وعد بلفور وفى ديسمبر انتزعت القدس من تركيا .

وفى ابريل ١٩١٨ التحق بن جوريون بالفيلق اليهودى الأمريكى وتلقى تدريبه العسكرى فى كندا وأصبح الفيلق اليهودى الامريكى تابعاً للفيلق

البريطانى ٣٩ مشاة . وفى أغسطس وصل هذا الفيلق إلى مصر حيث انضم إليهم يهود آخرون وكان بن جوريون فى رتبة صف ضابط وبن ظبي (نفر). ولم يكد الفيلق يصل إلى الصحراء حتى ساءت حاله ومرض بن جوريون. واستولى اليأس على الجميع وانحطت الروح المعنوية وأخذ كل يحاول الهرب فمثلا بن جوريون لم يكد يعلم بوصول (حاييم فيزمان) إلى القدس. حتى هرب من فيلقه الذى كان معسكرا فى تل ابيب إلى القدس ومن ثم. اعيد ثانية فقبض عليه البوليس الحربى البريطانى وقدمه للمحاكمة فانقصت رتبته وسجن ثلاثون يوما ثم نقل إلى فرقة أخرى .

لكن التحاق بن جوريون بالفيلق اليهودى الأمريكى ، بريطانى مشاة ٣٩ و (ترومبلدور) فى روسيا و (جابوتينسكى) فى الفيلق اليهودى بريطانى مشاة ٣٨ ترك فراغا فى الزعامة الصهيونية فى الشرق فخلا الجو لظهور زعماء آخرين أمثال (بيرل كتسنيلزون Berl Katznelson) اليهودى الروسى الذى كان مدرساً وتاجر كتب ، كذلك ظهر (الياهو جولومب Eliahu Golomb) أما الأول فقد كان شعاره « القوة ـ الكرامة . الرسالة » وقد أخذ عنه بن جوريون هذه الشعارات وصاغها فى عبارته المشهورة « اذا ارادت أمة أن تحقق رسالتها عليها أولا أن تبعث فى نفسها القوة والكرامة » . أما (جولومب) ، زوج أخت موشى شرتوك ، الضابط فى الجيش التركى فقد اهتم بجمع متطوعين لمساعدة الجيش البريطانى ، وبعد أن وضعت الحرب أوزارها تعاون مع بن جوريون وكتسنيلزون وبن ظبي فى تكوين الهاجاناه وبخاصة عقب وضع فلسطين تحت الانتداب بمقتضى قرارات مؤتمر سان ريمو عام ١٩٢٠ وإلغاء الحكومة العسكرية وإيفاد اليهودى السير هربرت صموئيل حاكما على فلسطين .

ثم نجد بن جوريون يتعاون مع (كتسنيلزون) وينشئان حزبا

جديدا الآ وهو (احدوت عابودا) أى وحدة العمل كما إزداد نشاط مختلف الزعماء الصهيونيين فى خلق الجمعيات الارهابية السرية التى أشاعت الإرهاب والقتل والفوضى فى مختلف أنحاء البلاد ، وبخاصة بعد أن عاد (ترومبلدور) من روسيا واستقر فى الجليل وأقام فى مستعمرة (تل حى) وواصل تدريب الشبيبة على أعمال العصابات والقيام باعمال القتل والنهب وفى إحدى الليالى وقع اشتباك بينه وبين جماعة من العرب فارداه فتى عربى قتيلا وانتهت حياة هذا الضابط الروسى الذى زعم يوما ما أنه سيقود جيشاً من مائة ألف مقاتل يهودى لفتح فلسطين[١] .

ثم توالت الاصطدامات بين العرب واليهود الذين لم يدخروا وسعا فى شراء الأسلحة واستيرادها من مختلف البلاد الأجنبية وكان يقوم بهذه المهمة أحيانا (جولومب) و (دافيد هكوهين) اللذين اتخذا من فينا وكرا لهما لتسويق الاسلحة وتخزينها ثم إرسالها إلى فلسطين تحت سمع حكومة الانتداب وبصرها .

ولم يقف نشاط بن جوريون عند خلق أول جيش حديث فى فلسطين وتزويده بمختلف الأسلحة بل اتجه إلى تنظيم الحياة الاجتماعيه والإقتصادية ليهود فلسطين فأنشأ منظمة الهستدروت ، وهى عبارة عن هيئة العمال اليهود وهى من أعجب المنظمات العمالية فى العالم فهى تضم النحاتين والفنانين والكتاب والعلماء والمدرسين وسائقى السيارات وغيرهم بتعبير آخر نصف سكان فلسطين فالهستدروت بتكوينها هذا تمثل مصالح أصحاب العمل والعمال ، كما انها تراقب أهم شركات التأمين والمصارف الكبرى ومعظم جميع طرق المواصلات كما أنها تملك معظم أسهم شركات البترول فى البلاد ونصف أسهم باقى الصناعات ومن بينها شركة البناء

---

(١) قتل عام ١٩٤٤ فى ١١ مارس .

الكبرى التى تحتكر هذه المهنة كما تمتلك المستدروت مسرحا خاصا بها .

والان لايوجد فى فلسطين المحتلة فرد يستيقظ أو ينام ، يأكل أو يجوع ، يسافر أو يقيم يحيا أو يموت إلا وعلى صلة بالمستدروت . أما مركز هذه المؤسسة الجبارة والذى يسمى وبحق (كرملين) ففى تل أبيب حيث يشغل بناء شامخا ، وبلغ من دهاء بن جوريون ومكره أنه أدخل العرب فيها ليسهل تهويدهم وكسبهم للصهيونية .

ولا يقف نشاط بن جوريون عند هذا بل نجده يقتحم أبواب الوكالة اليهوديه التى اسستها اليهودية العالمية لتكون بمثابة حكومة ترعى مصالح اليهود وتعمل على تحقيق فكرة الوطن القومى وهى ورسالتها هذه حكومة داخل حكومة لها ميزانيتها ولها جيشها ووكالات انبائها ووقع اختيارها على بن جوريون كعضو فى مجاسها أى وزيرا فى دولة لم توجد بعد .

أما جيش الوكالة فقد كان الهاجاناه وقد سلحت انجلترا معظم فرقه بحجة الدفاع عن المستعمرات اليهودية التى كانت منتشرة فى مختلف أرجاء فلسطين كما عهدت حكومه الانتداب إلى هذا الجيش بحراسة طرق المواصلات والحدود الشمالية والشرقية كما اسندت الحكومة البريطانية إلى أحد ضباط مخابراتها فى فلسطين وهو (أورد وينجت Orde Wingate) أو (ت . ى . لورنس T. E. Lawrence) إقليم يهوذا تدريب اليهود على حرب العصابات . فهـذا الضابط هو شر ما رمت به الحكومة البريطانية العروبة سواء فى فلسطين أو خارجها ، فقد انكب هـذا الإنجليزى فى انجلترا على دراسة اللهجات العربية البدوية لا عن طريق محاضرات مدرسة اللغات الشرقية والافريقية فى لندن بل كان يتجول فى (ايست أند East End) فى لندن حيث يقطن بعض البحارة العرب وهناك استأجر غرفة وعاش فيها عيشة العرب كما ارتدى ثيابهم وأكل طعامهم وتخلق بأخلاقهم ، ولما أتم تدريبه عمليا أرسلته

بريطانيا إلى فلسطين كضابط مخابرات فتوجه إلى (قبوص)[1] لكى يتعلم العبرية ويدرب الشباب هناك على أعمال حرب العصابات فكان يقود ليلا جماعات من شباب الهاجاناه إلى مواطن العرب فيقتل الحراس ثم يستولى على ممتلكاتهم وما فى مستودعاتهم ويحمل جنوده ما يستطيعون حمله من اسلاب ، ولم يكن (وينجت) هو الضابط البريطانى الوحيد الذى يعمل فى الهاجاناه فغيره كثيرون وكثيرون . ولم يقف نشاط (وينجت) عند هذا بل كون من الهاجاناه فرقة راكبى الدراجات البخارية وكانت مهمتها حراسة انابيب البترول الممتدة من الموصل إلى حيفا حتى لا يتمكن العرب من نسفها .

ولم تكد تطير الشرارة الاولى معلنة الحرب العالمية الثانية حتى سارع بن جوريون واجتمع بمجلس قيادة الهاجاناه وقال لهم إن الحرب العالمية الأولى جاءتنا بوعد بلفور والثانية يجب أن تأتينا بالدولة اليهودية ولتحقيق هـذا الحلم يجب أن يتطوعوا إلى جانب الإنجليز فتقدم نحو مائة ألف يهودى ويهودية . وذهب التعاون بعيدا بين الإنجليز والوكالة اليهودية فمدت الوكالة انجلترا بنحو ألف وخمسمائة خبير يعملون خارج البلاد كما أعدت الى مصنع للانتاج الحربى وانصرف الكيماويون اليهود إلى سد حاجات الجيش بالكيماويات . ولما اشتد خطر الغزو الألمانى عام ١٩٤١ غادر الإنجليز فلسطين بعد أن اسلموا زمامها إلى الهاجاناه للدفاع عنها ولا سيما فقد سبق للانجليز وانشاوا فى فلسطين مدرسة حربية لتخريج رجال الهاجاناه الذين كثيرا ما استعان بهم الإنجليز عند تحرير سوريا من جيش حكومة فيشى وفى أحدى هذه المعارك فقد موشيه ديان عينه ، كما أن (يجال اللون) احد قواد الهاجاناه وهو من مواليد فلسطين وابن فلاح من الجليل قد تسلل فى الحرب العالمية الثانية إلى سوريا فى زى عربى وقاد بعض اليهود الفلسطينيين الذين مهدوا الطريق للاستراليين .

---

(١) مستعمرة جماعية .

ويمتاز جيش الهاجاناه البالغ عدده نحـو خمسين ألف مقاتل بدقة مخابراته والإحاطة بكل صغيرة وكبيرة فى فلسطين هـذا فضلا عن مجموعة الصور الجوية الدقيقة التى التقطها لمختلف البقاع الفلسطينية ، وبذلك تمكن من عمل احصاء شامل لجميع السكان .

أما فرقة الصاعقة والمعروفة باسم (بلماخ) فتعتبر من أحسن الوحدات التى يتكون منها هذا الجيش وهى تتكون من نحو ألفى شاب وآنسة وكثيرا ما استعانت بهم بريطانيا فى أعمال الكومندو والمظليين فى صحراء ليبيا والبلقان .

أما الزى الرسمى للهاجاناه مع اختلاف الأسلحة والرتب فهو الزى العادى للسكان غير العرب أعنى الخاكى دون شارات تميز الرتب العسكرية أو نوع السلاح وغير الهاجاناه تكونت فى فلسطين جمعيات إرهابية أخرى لا تقل خطراً عن الهاجاناه منها (أرجون) و (شتيرن) . أما (أرجون) فقد أسسها الإرهابى (جابوتينسكى) وكانت أشد العصابات الإرهابية تطرفا فقد قررت قتل ثلاثة من العرب مقابل كل يهودى يقتل وقد خشى بن جوريون غضب الرأى العالمى العام ، إذ ما ذنب عربى يقتل لا لذنب اقترفه اللهم إلا لأنه عربى ، إن مثل هذا الإجراء الانتقامى يصور اليهود فى صورة إجرامية شنيعة ، فضلا عن أن مخالفة القانون تؤدى إلى مخالفة قانونية أخرى فاشاعة الفوضى . والواقع أن (جابوتينسكى) هذا وحزبه المتطرف الذى عرف باسم (ريفيسيونيست Revisionist ارتكب كثيراً من الأعمال الوحشية كما أنه أول حزب اقترف جرائم القتل السياسى . فى عام ١٩٣٣ أعلن هتلر عدم المساس باليهود إذا ما غادروا أوربا فسافر رئيس إدارة السياسة الخارجية فى الوكالة اليهودية آلاوهو (حاييم أرلوسوروف Hayim Arlosoroff) إلى برلين لانقاذ حياة نحو مليون يهودى ثم عاد وحدث أنه كان يسير مرة مع زوجه فى تل أبيب فاستوقفه شاب أجنبى

وطلب منه ثقاب كبريت وفى هذه الفترة أطلق عليه الرصاص فارداه قتيلا ولاذ القاتل بالفرار وهو أحد أعضاء حزب جابوتينسكى واسمه(ابراهام ستافيسكى .

لكن أطلق سراحه لعدم ثبوت الجريمة وشاءت المقادير أن يلق القاتل حتفه بعد خمسة عشر عاما فى نفس المكان الذى قتل فيـــه (أرلوسوروف) .

وهكذا نجد الاضطرابات تعم للبلاد وتسودها ويحاول بن جوريون بدهائه ومكره أخذ اعتراف من العرب الفلسطينيين بشرعية وجود اليهود فى قلب العالم العربى والاعتراف لهم بإقامة وطن فى فلسطين . ولعل أول محاولة قام بها بن جوريون كانت عام ١٩٣٦ ، وما كاد يستأنفها مرة ثانية حتى اندلعت نيران الثورة فى يافا وأعلن العرب الاضراب العام وأوفدت بريطانيا لجنة (بيل) التى وضعت تقريراً فى أربعمائة صفحة . ولكى نتبين مدى الأجحاف بالعرب وحقوقهم فى فلسطين وموقف انجلترا العدائى منهم من أن بن جوريون سافر لتوه إلى لندن ليحضر مناقشة هذا التقرير فى مجلس العموم البريطانى ولما فرغ المجلس من مناقشته سئل بن جوريون عن رأيه فقال « يخيل إلى أننى حاضر جلسات « مؤتمر صهيونى » .

اقترح القرار تقسيم فلسطين ، فانقسم اليهود على أنفسهم كما انقسموا من قبل حول مشروع أوغنده ، فنهم من حبذه أمثال بن جوريون وعارضه آخرون مثل (كتسنلزون) والحاخامان الأمريكيان (أسطفان فيز Stephan Wise) و (ابا هللر سيلفر Aba Heller Silver) وجميع أعضاء الوفود الأمريكية والسيدة (جولدا ما يرسون) وكذلك العرب والانجليز بالرغم من أنهم هم الذين اقترحوه ، وكان أشد الناس معارضة له (جابوتينسكى) وحزبه وكذلك حزب بن جوريون إلا وهو (المباى) .

وبعد هذه الجولة أخذ حلم بن جوريون يقترب من الحقيقة واعتقد أن قيام دولة يهودية أصبح قاب قوسين أو أدنى ، وتوالت المؤتمرات وكلما أبصر السياسيون شبح الحرب العالمية الثانية يطل عليهم أكثروا من الاجتماعات وعقد المؤتمرات وأدركت انجلترا قبل غيرها أنها بين حجرى الرحى بين العرب وبلادهم التى يجرى فيها الذهب الاسود والصهيونية العالمية التى تحرك أمريكا كيف ومتى تشاء ، واخيرا قر قرارها إصدار الكتاب الأبيض الذى يحدد الهجرة اليهودية إلى الأراضى المقدسة .

ثم وقع ما لم يكن منه بد وأعلنت الحرب العالمية الثانيه فقال بن جوريون « يجب أن نحارب مع انجلترا كما لو أن الكتاب الأبيض لم يصدر ، ونحارب انجلترا كما لو ان الحرب ليست قائمة وسافر بن جوريون إلى لندن ليعاون حايم فيزمان فى اتصالاته مع المسؤلين الانجليز لتعبئة جيش يهودى يخوض الحرب إلى جانب انجلترا وذلك بعد أن حل شرشل محل (شمبرلين) كما ابدى بن جوريون رغبة اليهود فى تجفيف مستنقعات الجليل وتوسيع ميناء تل أبيب .

توجه حايم فيزمان وبرفقته بن جوريون إلى وزارة المستعمرات لعرض مشروعهما على اللورد لويد وزير المستعمرات وقتذاك فأجابهم : « إذا كنتم ترغبون فى مساعدة انجلترا حقا فلماذا لا ينخرط اليهودى فى سلك الجيش البريطانى ؟ فأجابه بن جوريون . « لماذا لا يوجه هذا الإعتراض إلى فرنسا وبولنده وتشيكوسلوفاكيا ؟ يظهر أن الصعوبة الحقيقية هى فى وجودنا » . وهنا ظهرت السياسة البريطانية الانتهازية واضحة جلية وكشفت سياسه المساومة عن وجهها إذ ادرك اللورد مدى حرص اليهود على الاعتراف بكيانهم كأمة لها جيشها ولها علمها ولها شعارها ، كما أدرك أيضا أن الإعتراف

بمطالب حايم فيزمان ودافيد بن جوريون سيرضى ولا شك الصهيونية العالمية . وبخاصة أولئك اليهود الذين يعيشون فى الولايات المتحدة الأمريكية فتلقف اللورد لويد الفكرة وعرض على اليهوديين استعداده على الموافقة على مطالبها شريطة أن يبذلا نفوذهما لدى يهود نيويورك ومطالبتهم القيام بضغط على حكومة وشنطون لاخراجها من حيادها وأعلان الحرب على المانيا وحلفائها . فقام بن جوريون لتوه وتوجه إلى نيويورك مطالبا اليهود بتنفيذ ما اتفق عليــــه مع لويد . والواقع أن سماح بريطانيا ليهود فلسطين بتعبئة فيلق يهودى يرتدى لباسا عسكريا عليه نجمة داود ويرفرف عليه العلم الازرق الأبيض وتصدح موسيقاه عدا الاناشيد العسكرية نشيد (هاتقواه) وهو النشيد القومى للدولة التى لم تظهر رسميا بعد إنما هو خيانة من انجلترا لصك الانتداب الذى فرض فى مؤتمر سان ريمو عام ١٩٢٠ وحنثت بوعودها التى قطعتها على نفسها للعرب .

وصل بن جوريون إلى نيويورك فى أوائل ١٩٤١ وألقى خطبة فى (هدساه) (جمعية النساء اليهوديات الأمريكيات) وظل فى أمريكا ثلاثة شهور دائبا على مواصلة المقابلات والاجتماعات بزعماء اليهود فى نيويورك وغيرها لتدبير خطة سليمة للزج بالولايات المتحدة فى اتون الحرب المستعرة لا لشىء إلا لتحقيق قيام فكرة الوطن القومى اليهودى وسرعان ماانشطت الصهيونية وحاكت مؤامراتها ودبر طابورها الخامس فى اليابان والولايات المتحدة الأمريكية مادبر ، ولا سيما فبلاد الشمس المشرقة كانت طرفا فى المحور الهتلرى النازى وتحطيمها كان واجبا مقدسا على اليهود انتقاما للوحشية النازية التى عومل بها اليهود الألمان على يد هتلر وزبانيته فلم ينقض عام ١٩٤١ ألا ووقع حادث (بيرل هاربور) فى ٧ديسمبر ١٩٤١ وهذا الحادث كان كفيلا باقحام الولايات المتحدة فى الحرب التى سعت إليها الصهيونية العالمية وانجلترا التى تضرعت إلى اليهود لمعاونتها

لعلمها إن المحور يعلم علم اليقين قوة أمريكا وجبروتها وإن دول المحور حريصة الحرص كله على عدم التحرش بها ولا سيما فالنازية تئن من ألم الجراح التى اصابتها فى الميدان الروسى وكان المتوقع أن تنقض اليابان على الاتحاد السوفيتى فتقضى على مقاومته وبذلك يستطيع المحور أن يستولى على مواردها الطبيعية لمواصلة حرب طويلة الأمد ضد انجلترا ومن قد يساندها . لحادث بيرل هاربور لم يخدم فى الواقع قضية دول المحور بل أضر بها ضرراً بليغا وانقذ بريطانيا والصهيونية العالمية من ضياع محقق .

أما بن جوريون فقد عاد إلى فلسطين لمواصلة استشاراته فوجد أبنه عاموس الانجليزى الجنسية والضابط فى الجيش البريطانى ، كما علم ان (جابوتينسكى) قد توفى وصحة (كتسينلزوم) معتلة . أما ابراهام شتيرن أحد مؤسسى جماعة (أرجون) فقد أبى إلا أن يكوّن جماعة أرهابية أخرى تحمل اسم شتيرن .

وبعد خمسة شهور من إقامة بن جوريون فى فلسطين وإجراء الاتصالات الضرورية الخاصة بتنفيذ اتفاقية لويد بن جوريون ، رحل دافيد إلى القاهرة فلندن ونيويورك حيث وجد الفرصة سانحة لإعلان التطور الجديد الذى طرأ على قضية الدولة اليهودية وبخاصة بعد أن خلف اللورد موين اللورد لويد والذى أكد لبن جوريون التزامه بتنفيذ الاتفاق الذى تم بين بن جوريون وسلفه .

وفى نيويورك نزل بن جوريون فى فندق (بلتيمور) الواقع فى (ماديسون أفنيو Madison Avenue)عند شارع رقم ٤٣ حيث دعيت اللجنة التمهيدية الصهيونية الأمريكية فى مايو ١٩٤٢ أى بعد مضى خمسة شهور من حادث (بيرل هاربور) للاجتماع لحضر ستمائة مندوب يمثلون مختلف الولايات المتحدة وتناقش المجتمعون فى شتى المواضيع مع افتراض أن

أمريكا هى التى ستئول إليها زعامة العالم وذلك لأن انجلترا ستخرج من هذه الحرب بالرغم من عدم هزيمتها ضعيفة كسيرة ، كما وجد المجتمعون الفرصة سانحة للتخلص من وعد بلفور ومشروع التقسيم وأن عارضه أمثال (يهوذا مجنيس) اليهودى الأمريكى والذى اسندت إليه إدارة الجامعة العبرية فى القدس كما كان من أنصار قيام دولة مزدوجة الجنسية للعرب واليهود .

أما شخصية (يهود ليب مجنيس) فمن أحسن الشخصيات اليهودية الصهيونية التى عرفها القرن العشرون حقا فالأخلاق تكاد تكون مثالية ومثله العليا قد لا يتحلى بها غيره بين الصهيونيين هذا فضلا عن ادراكه الإنسانى للصهيونية والمبادىء الصهيونية . أما موقفه من خصومه ، وما أكثرهم ، فقد كان أيضا موقف الرجل المؤمن بمثله العليا الذى لن يحيد عنه مهما كان السلاح الذى يستخدمه خصمه ضده وقد بلغ من خوف رجال الأمن على حياته أن عينوا حرسا يقوم حول منزله فى (رجفيا) فى القدس مخافة الإعتداء عليه . وكان فوق ذلك يسمو على الفوارق الجنسية والعقائدية فالجميع لديه سواء . لقد كان (مجنيس) رجل سلام وحبه للسلام اضطره أن يحارب من أجل السلام لذلك كافح كفاحا شديداً لأجل التفاهم مع العرب لأجل السلام بين اليهود وبين العرب لأنه يعتقد أن التفاهم بين الشعبين أو بتعبير آخر بين الطرفين هو الطريق الوحيد لتحقيق أهداف الصهيونية الحقيقية ، الصهيونية التى تنزع إلى استقرار اليهود وبعث الثقافة الإنسانية العالمية وإحياء التراث اليهودى الأدبى وجميع هذه الأهداف لن تتحقق إلا إذا ساد السلام أرض السلام ومن هنا نفهم سر مقاومته لسياسة التقسيم لأن التقسيم سيحول ضد هذا التفاهم أنه كان يطمع فى قيام دولة مزدوجة الجنسية (binational)

ولم يكن الدكتور (يهودا ليب مجنيس Jehuda Leib Magnes)

هو الوحيد الذى يرى هذا الرأى فهناك (ارثور روبين Arthur Ruppin مؤسس جماعة السلام (بريث شالوم) و (حاييم كالفرسكى Chayim Kalwarisky) خالق جماعة التفاهم اليهودى العربى ثم جماعة (احود) التى خلقها (مجنيس) فعلى منابر هذه الهيئات كان يرسل (مجنيس) صوته مدوياً كما اتخذ من قاعات الجامعة العبرية التى كان هو مديرها منابر لهذه الرسالة التى كرس لها حياته . كما استنكر وقاوم بشدة الأعمال الارهابية والارهابيين وكثيرا ما فاضت عبقريته بالمقالات والرسائل إلى الصحف الامريكية وبخاصة (نيويورك تيمس) و (فورين افارز Foreign Affairs والمجلات الشهرية العبرية . وتجلت كفاءته فى معارضته لميثاق بلتيمور ومحاربته وعاونه على النهوض برسالته أنه كان حاخاما حرا درس اللاهوت اليهودى فى جامعتى برلين وهيدلبرج فى المانيا فضلا عن أنه كان خطيبا مفوها يؤثر فى سامعيه لذلك ناصره جميع اليهود الأحرار كما كان عضوا بارزا فى (جوينت Joint) (وهى الجماعة الأمريكية للقسمة المتحدة (American Joint Distribution Comittee

وقد شاركت (مجنيس) : هـذا الرأى سيدة يهودية فاضلة ألا وهى (هنرييت سولد Henrietta Szold) والتى تعتبر وبحق عند اليهود بأنها (فلوريفس نيتينجيل Florence Nightingal)فالسيدة (هنرييت) هى مؤسسة مستشفى (هدساه) فى القدس . وآخرون من أحرار اليهود .

ومن أكبر المناصرين لهذا الرأى اليهودى الاوكرانى (اشير جينزبرج) والمشهور باسم (أحد هاعم) أى (فرد من الشعب) وحزب (هبوعيل هصعير) أو (حزب العمال الفلسطينى) وقد اغتال أحد أعضاء حزب البعثيين زعيم هـذا الحزب وهو (حاييم أورلو سورروف) وذلك لأن حزب العمال هذا يرى وجوب التفاهم مع العرب وبخاصة الشعوب العربية المجاورة لفلسطين ، وقد شايع هـذه الهيئة زعماء آخرون ولتحقيق هذه

الأهداف أنشأت هذه الهيئة صحيفة فى اللغة الألمانية هى (دى اربيت) أى (العمل) وقد اشتهرت بحملاتها الشديدة على متطرفى الصهيونيين والذين يؤمنون بمبدأ استخدام القوة فوجهت مرة توجيها خطيراً إلى المؤتمر الصهيونى الثانى عشر تحت عنوان (حرب أو تفاهم) وفى هذا المقال نقرأ وجهة نظر هـذه الهيئة ، وقد أثبتت الأيام بعد نظرها .
فالصحيفة تتساءل : أيقرر المؤتمر إعلان الحرب على العرب ؟ كثيرون سيقولون ليس أمامنا اختيار ، فقد أعلن العرب الحرب علينا و ليس أمامنا إلا أن ندافع عن انفسنا ، ولـكن ويل لنا من أنفسنا أولا ، ومن الرأى العالمى ثانيا إذا دار بخلدنا أن نمثل دور البرىء المعتدى عليه ، لكن لماذا ازدادت كراهية العرب لليهود فى الزمن الأخير ، ولماذا بلغت الكراهية منتهاها ؟ هل السبب هو الجمع بين هذا الوضع وبين الفكرة الصهيونية الرامية إلى تأسيس دولة يهودية ؟

إننا نعلنها عالية مدوية ، لا نريد أن نفرض حكما على العرب بل نريد أن نعيش معهم كشعبين متآخيين متساويين فى الحقوق والواجبات فى فلسطين . . . هناك طريق واحد فقط هو التفاهم مع الشعب العربى وليكن هذا الطريق وعراً فى وقتنا الحالى إلا أنه يجب علينا أن نسلكه .

ولعل الدافع القوى إلى معارضة ميثاق بلتيمور هو النظر البعيد إلى إيجاد حل دائم لقضية بدأت مع الخليقة ومازالت منظورة أمام القضاة حتى اليوم ، ومصدر عدم البت فيها ليس عدم الاختصاص بل مخالفتها للقانون العام شكلا وموضوعا . فإذا نظرنا إلى فلسطين منذ القرن السادس الميلادى وجدناها آهلة بالمسلمين ومن قبل ، بل قبل نزوح العبريين اليها كان العنصر العربى من أكبر العناصر التى يتكون منها سكان تلك البلاد . هذا فضلا عن الإقليم الفلسطينى المسمى باسم (عرب) فكيف تجرؤ الصهيونية وتحاول أن توجد وطنا قومياً فى بلد هـو وطن لآخرين ، تقوم بينهم

وحدة الجنس ووحدة الثقافة ووحدة اللغة ووحدة التفكير ووحدة التربية بخلاف الحال فى هذا الخليط الذى جاء به بن جوريون أداة الاستعمار هذا الخليط الذى يتكون من أبناء سبعين دولة لا استثنى من بينها اليابان . إن العنصر الأساسى لقيام أمة من الأمم ، أعنى عنصر البناء أو الخلود وهو عنصر الوحدة والتجانس والبيئة وهذه غير متوفرة فيها كما أنه لا شك فى أن لكل جنس من الأجناس التى يتكون منها هذا الخليط طابعه الخاص الذى يؤثر بدوره فى إبراز العنصر الإنسانى للأمة أو الدولة كما أن نظرة اليهودى الأوربى إلى الدين تغاير ولا شك نظرة اليهودى الشرقى ، فما كانت بلاد الخزر مثلا فى يوم من الأيام وطنا لموسى بن عمران أو خليفته ابن ميمون . فى الشرق وبتعبير أدق فى مصر نشأ ابن عمران صاحب التوراة ، وفى مصر ابن ميمون واضع « مثانى التوراة » فكيف تستطيع حكومة مهما أوتيت من قوة ومهما خلصت نية أفرادها أن توفق بين هذا الخليط ؟

إن الوطنية التى يريد بن جوريون غرسها فى فلسطين هى هذه الوطنية الشكلية الوطنية المادية التى تخلق جسم الأمة أو الدولة بينما الوطنية الحقيقية هى الوطنية الموضوعية التى تمد هذا الجسم بالحياة أعنى الروح ولكى تؤدى الروح وظيفتها وتبعث الحياة يجب أن تكون سائر أعضاء الجسم ليست سليمة فقط بل أصيلة متحدة متعاونة وقد أثبت الطب الحديث أن الروح تفارق الجسد إذا أراد الطب استبدال كلية بكلية . فالوطنية الموضوعية هى باعثة الحياة فى الأمة والدولة هى خالقة الثقافة والقواعد الخلقية والمثل العليا والمبادىء الإنسانية والأخيرة هى التى تحلق بالأمة وتعبر بها الحدود الجغرافية التى أوجدتها الوطنية الشكلية وتجعل منها أمة دولية ذات ثقافة عالمية ورسالة إنسانية سواء فى الآداب أو العقائد

أو المذاهب الاجتماعية فالوطنية فى هذه الحالة ليست قوميه (ناسيونال : بل عالمية (übernational) .

وبالرغم من هـذه المعارضة القوية ضد بن جوريون وأنصاره من البعثيين وغيرهم من المتطرفين أعلن دافيد فى مؤتمر بلتيمور خلق الدولة اليهودية معتمدا لا على المنطق والصالح العام بل على وعد اللورد (موين) الذى خلف اللورد (لويد) فى وزارة المستعمرات عقب وفاته . وبعد ذلك أقر المجلس ميثاق بلتيمور وهو يلخص فيما يلى : ـ

١ ــ إلغاء الانتداب البريطانى .

٢ ــ إعلان فلسطين دولة يهودية عقب الحرب العالمية الثانية .

٣ ــ إهمال فكرة التفاهم مع العرب سواء كانوا سكان فلسطين أو البلاد المجاورة .

ثم عاد بن جوريون إلى فلسطين لاتخاذ التدابير اللازمة لتنفيذ قرارات هذا الميثاق فعاون فى تأليف حزب جديد أطلق عليه اسم (علياه حاداشاه) وهى تسمية لها مدلولان « التقدم الجديد » أو « الهجرة الجديدة » وبرنامج هـذا الحزب كما أورده (جورج لندور) فى كتابه « الصهيونية عبر ثلاثين عاما » تل أبيب ١٩٥٧ ص ٣٣ .

George Landauer : Der Zionismus im Wandel Dreier-Jahrzehnte. Tell -Aviv 1957.

١ ــ حشد جميع القوى لقهر هتلر .

٢ ــ الاستعداد عقب الحرب وعند إعادة تنظيم العالم وبخاصة الشرق العربى لإقامة الوطن القومى اليهودى ، وأخذ الأهبة لخوض غمار حرب طاحنة عملا بميثاق بلتيمور وإعلان فلسطين وطنا قوميا لليهود .

٣ — لتحكم الأقلية اليهودية الكثرة العربية .

٤ — نشن وحدنا أو بمساعدة العالم حربا شاملة لاعلى عرب فلسطين فقط بل على سائر الدول العربية .

والآن تجمعت شياطين الحرب ونشطت عناصر الدمار الصهيونية بعد أن خاضت الولايات المتحدة غمارها ، للقضاء على النازية فى الغرب والعروبة فى الشرق فبعد فتح الجبهة الثانية بزمن قصير أعلن شرشل فى مجلس العموم البريطانى : « إن الحكومة البريطانية قد استجابت لطلب الوكالة اليهودية وهو تجنيد فيلق يهودى يرسل إلى جبهة القتال » .

لقد كسب بن جوريون معركة أخرى ، والآن يستطيع آلاف الشباب اليهودى الانخراط فى سلك الخدمة العسكرية وفى الفيلق اليهودى حاملين على لباسهم العسكرى نجمة داود ويرفرف عليهم العلم اليهودى الأزرق الأبيض .

وبينما شرشل يعلن هذا ويقرره إذ بنا نجد تجاوباً عند رئيس أمريكا الراحل (ف . د . روزفلت) فقد انتهى مؤتمر (يلتا) وأبدى رغبته فى مقابلة الملك الراحل عبد العزيز آل سعود وقد تمت المقابلة على ظهر المدمرة الأمريكية (كوينسى) . وفى ١٤ فبراير ١٩٤٥ وفى البحيرات المرة ، وقد دامت هذه المحادثات بين العاهلين نحو خمس ساعات عرضا فيها لكثير من المسائل التى تهم البلدين ، ومن بينها رغبة الرئيس روزفلت فى معرفة رأى جلالة الملك فى استيطان من تبقى من يهود قلب أوربا والذين لاقوا أهوالا جساما على يد النازيين وعملائهم . وقد ضاعت أملاكهم وقتلوا وعذبوا ، والرئيس روزفلت يشعر شخصيا بمسئولية كبرى تجاههم ، لذا قرر المساهمة فى حل هذه المشكلة .

فماذا يقترح الملك ؟

فأجابه ابن سعود فى حزم وقوة : أعطهم ونسلهم أصلح أراضى وأفخر مساكن الألمان الذين اضطهدوهم .

فأجاب روزفلت : إن اليهود يحنون كثيراً إلى الإقامة فى فلسطين ، وافهم جيدا كيف أنهم يخشون العودة إلى ألمانيا والإقامة فيها حتى لا ن يتعرضوا ثانية إلى وحشية الألمان وأذاهم .

فأجابه ابن سعود : لا شك عندى فى أن اليهود على حق فى عدم الثقة بالألمان . لكن من المؤكد أن الحلفاء سيقضون على النازية والنازيين إلى الابد . وفى انتصار الحلفاء خير ضمان للمحافظة على ضحايا النازية ، وإذا كان الحلفاء لا يتوقعون استطاعة مراقبة سياسة ألمانيا فى المستقبل ، فلماذا يخوضون غمار هذه الحرب الضروس ؟ فابن سعود ان يستطيع إدراك ترك عدوه فى حالة تسمح له بإعادة الكرة عليه بعد هزيمته .

وبعد دقائق قليلة عاود روزفلت الهجوم ، وقال أنه يعتمد على الكرم العربى ، وعلى مساعدة الملك لحل مسألة الصهيونية .

فأجابه ابن سعود على الفور : دع العدو المستبد المضطهد يدفع . هكذا نحن العرب فى حالة الحرب . المجرم يجب أن يدفع التعويضات لا البرىء . فما هى الاضرار التى اقترفها العرب ضد يهود أوربا ؟ أنهم الألمان المسيحيون الذين سرقوا بيوتهم ونهبوا أموالهم وزهقوا أرواحهم . دع الألمان يدفعون .

وعاد روزفلت مرة أخرى إلى الموضوع شاكيا بأن الملك لم يساعده البتة فى حل مشكلته ، ففقد الملك بعض حلمه ولم يشرح وجهة نظره مرة أخرى عدا قوله فى شىء من الاستهجان :

« أن المبالغة فى إظهار هذا القلق من الألمان غير مفهومة لبدوى غير متعلم ، يقدره الأصدقاء أكثر من الأعداء ، وآخر ملاحظة أبداها الملك خاصة بهذا الموضوع : « من عادة العرب أن تأوى القبائل المنتصرة بقايا ضحايا المعركة وكل قبيلة حسب عدد أفرادها وإمكانيات الماء والطعام . والحلفاء يبلغون نحو خمسين دولة من بينها فلسطين الصغيرة الفقيرة ، وقد استوعبت أكثر من إمكانياتها من اللاجئين الأوربيين » .

ثم عاد ابن سعود وأكد رغبته فى صداقة روزفلت ومساعدته ، وقال أنه لا يرجو لبلاده إلا الاستقلال وهو يعتمد فى ذلك على الله ، ويرجو غير الاستقلال صداقة روزفلت بطل الحريات الأربع كما أن الملك يعلم تمام العلم أن أمريكا ليست دولة استعمارية . فأكد روزفلت لابن سعود أنه عند حسن ظنه به وبأمريكا ، وأرسل له قبل وفاته بأسبوع خطاباً بتاريخ ٥ أبريل سنة ١٩٤٥ جاء فيه :

١ — أنه كرئيس لن يصنع شيئاً يسبب عداوة العرب .

٢ — أن حكومة الولايات المتحدة لن تحدث تغييراً فى سياستها الموضوعة لفلسطين دون استشارة العرب واليهود .

وقد نشر نص هذا الخطاب فى صحيفة نيويورك تيمس فى عدد ١٩ أكتوبر سنة ١٩٤٥ .

وانتقل روزفلت إلى الدار الآخرة وخلفه (ترومان) فتنكر لهذا العهد الأمريكى وقال عبارته المشهورة فى حضور سفراء الولايات المتحدة فى مصر ولبنان وسوريا ، والمملكة العربية السعودية والقنصل العام فى فلسطين .

وقد نشر هذا الحديث الذى دار بين العاهلين العربى والأمريكى

الـكولونيل البحرى (وليم ا . ادى)وهو الوحيد من الإحياء الذى يعرف تماما مادار بين روزفلت وابن سعود ، إذ كان المترجم كما كان الوزير فوق العادة للولايات المتحدة فى المملـكة العربية السعودية (١٩٤٤ — ١٩٤٦)

William A. Eddy : F. D. R. meets Ibn Saud, New York 1954.

وفى عام ١٩٤٥ وقعت أحداث هامة جداً فقد مات روزفلت وانتحر هتلر وجوبلز وقتل موسيلينى وانفجرت القنبلة الذرية الأولى والثانية والثالثة وانتهت الحرب فى أوربا وقامت هيئة الأمم المتحدة واستسلمت اليابان بدون قيد أو شرط وهزم الناخبون شرشل .

وفى نفس العام أيضا تـكونت جامعة الدول العربية فى شهر مارس وتعداد هذه الأمم العربية لا يقل عن ثمانين مليون نسمة وهدفها إالدفاع عن المصالح العربية .

وشعر بن جوريون أن الخطر يحدق به من كل صوب فتوجه إلى باريس حيث اشترك فى مؤتمر سرى لرؤساء (موساد) استعداد للمعركة التى كانت مهمتها جمع شباب اليهود من مختلف البلاد الاوربية وشمال أفريقيا وإرسالهم إلى فلسطين ، وتحتاج هذه العملية إلى المال والعتاد والسفن والأسلحة والذخيرة ، فسافر بن جوريون بعد استسلام ألمانيا لمقابلة أيزنهاور إلى نيويورك حيث ألتقى بالزعيم الصهيونى الثرى (رودلف ذونبورن Rudolf G. Sonneborn) ، ودار الحديث بينهما حول جلاء بريطانيا واحتمال نشوب حرب فلسطين وبخاصة عند الشروع فى تنفيذ ميثاق بلتيمور . فدعا « زونبرن » ثمانية عشر صهيونيا من كبار رجال المـال والأعمال فى الولايات المتحدة إلى داره ، وقر قرارهم على المبادرة بإرسال الإمدادات إلى جيش الهاجاناه وتشكرت هذه الهيئة الصهيونية تحت اسم « معهد زونبورن » وسرعان ما أخذت الأموال

تتدفق لشراء مختلف أنواع الأسلحة من سفن وطائرات ودبابات ومدافع وغيرها من عتاد الحرب وتخزينها فى جهات مختلفة فى دول شرق أوربا وأمريكا انتظارا لساعة الصفر . واستكملت الهاجاناه استعدادها فانشأت محطة إرسال وإذاعة كما أخذ بن جوريون يوالى عقد الاجتماعات مع قواد المنظمات الإرهابية من هاجاناه وارجون وشتيرن مثل «يعقوب دستروفسكى Yakob Dostrovsky » رئيس أركان حرب الهاجانا وإسرائل جاليلى Israel Galili قائد الهاجانا وعضو حزب المابام المهالىء للشيوعيين هذا الحزب الذى تكونت من أعضائه جماعة البلماخ Palmach أعنى الصاعقة ، كذلك « يجال يدين ابن العالم الأثرى ويجال ألون » وغيرهم .

ولكى نتصور قوة هذا الجيش والدول التى عاونت على تكوينه يكفى أن أذكر أن الهاجانا كانت وقتذاك أكثر من خمسين ألف جندى ينتمون إلى ستين دولة ويرطنون مختلف اللغات وقليل جدا منهم من يعرف العبرية . أما تدريبهم فكان لا ينقطع وبخاصة فابن بن جوريون حرص على استحضار مختلف المراجع العسكرية فى اللغات المختلفة ونقلها إلى أشهر اللغات تداولا بين الهاجانا فنشر بذلك الثقافة العسكرية لا بين أفراد القوات المقاتلة فقط بل بين مختلف أفراد الشعب . وتبين لدافيد بن جوريون عند القيام بهذه الترجمة أن العبرية فقيرة جداً فى الاصطلاحات العسكرية فألف لجنة من اللغويين فوضعوا معجما عسكريا يضم نحو ثلاث آلاف كلمة هذا عدا الاصطلاحات الخاصة بالمظليين والفرق المضادة للطائرات .

وتسابقت الأحداث إلى فلسطين وشعر العرب بالخطر الذى تتعرض له البلاد العربية ففى أبريل ١٩٤٧ م عقدت هيئة الأمم المتحدة جلسة لمناقشة المشكلة الفلسطينية وخصوصاً لما اشتد الخلاف بين « ترومان » و « اتلى » وبين بن جوريون » و « بيفان » وفى تلك الجلسة حدث ما لم يكن فى الحسبان وصدرت تصريحات تذكرنا بتلك التى جرت بين روزفلت

وابن سعود فقد نهض اليهودى «أندريه جروميكو» مندوب الاتحادالسوفييتى وقال أنه يناصر فكرة إيجاد حل فى فلسطين لليهود ، وهذا على سبيل التعويض لما أصابهم فى أوربا على يد النازية ، ودارت المناقشات وتحمس أنصار الصهيونية ومأجوروها وشكلت لجان وتقرر انسحاب بريطانيا من فلسطين واستعجل بن جوريون البت فى تقرير مصير دولة اليهود والتى قررت الأمم المتحدة تقسيمها بينهم وبين العرب وبين التدويل وأدرك بن جوريون أن قرار التقسيم هذا لن يحمى اليهود من الأخطار التى تنتظرهم فقرار الأمم المتحدة كان إشارة إلى قرب وقوع هذه الأحداث الخطيرة التى ستعم الشرق العربى . ويعطى دافيد بن جوريون شارة العمل للعصابات الإرهابية وجيش الهاجانا الذى أجلى السكان العرب من حيفا وهاجمت عصابة أرجون يافا وأفراد هذه العصابة هم الذين اقترفوا مذبحة دير ياسين حيث أبادوا جميع سكانها أطفالا وشيوخا نساء ورجالا واكتفى بن جوريون بإرسال اعتذار إلى الملك عبد الله .

وقد أحدثت هذه المذابح بلبلة فى الأمم المتحدة حتى أن أمريكا التى كانت تناصر فكرة التقسيم عادت فاقترحت وضع فلسطين تحت انتداب هيئة الأمم المتحدة فرفضت سائر الدول هذا الاقتراح وقابل بن جوريون تذبذب الولايات المتحدة باعلان قيام الدولة اليهودية واتخذ من قرية (سارونا) التى كانت مستعمرة ألمانية لطائفة الداودية ،هذه الطائفة التى نجلت ميولها النازية إبان الحرب العالمية الثانية مما اضطر انجلترا إلى إجلائها عنها ولما استقر فيها بن جوريون أعاد إلى هذه القرية إسمها العبرى القديم (هاقريث) = القرية واتخذها مقراً لحكومته .

أما دافيد بن جوريون فقد أخذ يطوف بأنحاء البلاد متفقداً المصانع الحربية ومدى أهمية جيش الهاجانا للدفاع عن البلاد وخوض غمار المعارك التى تنتظره تحقيقاً لميثاق بلتيمور وأخذت السفن المحملة بالأسلحة

والذخائر تلق مراسيها فى فلسطين . أما انجلترا فلم تكلف نفسها مؤونة تفتيش هذه السفن بالرغم من علمها بأنها محملة بشحنات الأسلحة التشيكوسلوفاكية (١) .

وفى أواخر مارس ١٩٤٨ أعلن بن جوريون انهاء الانتداب ودعا مساء يوم الجمعة ١٤ مايو أى السبت ١٥ منه ، أعضاء مجلس الشورى الذين عقدوا اجتماعاً فى المتحف بعد أن أزيلت من على حيطانه اللوحات الفنية ووضعت فى صدره صورة (هرزل) . وفى هذا الاجتماع قامت جولدا مايرسون وأطلعت المجلس على نتائج زيارتها للملك عبد الله الذى كثيرا ما التقت به سرا من قبل وفى فلسطين .

أما هذه المرة فقد اضطرت إلى زيارته فى عمان متنكرة فى زى عربية ، وقالت أن الملك كان طيباً جدا رقيقا إلا أنه قال فى حالة عصبية : ما وجه السرعة أيها اليهود فى إعلان قيام دولتكم ؟ فأجابته جولدا : لقد انتظرنا ألفى سنة هل ترون أننا نتعجل ؟ أن عبد الله ضد فكرة التقسيم لأنه يريد الاستيلاء على كل فلسطين لنفسه بقوة الفيلق العربى : وانتهى الاجتماع بموافقة إجماعية على إعلان استقلال البلاد ، ثم دعا بن جوريون إلى اجتماع آخر من أربعة من القانونيين لوضع صيغة وثيقة إعلان الاستقلال إلا أن عضوا اعترض بقوله : كيف نعلن استقلال بلد لم توضع له حدود حتى اليوم ؟ أليس من الواجب تحديد وتعريف الدولة اليهودية أين توجد وما مساحتها وأين تبدأ وأين تنتهى ؟ إلا أن بن جوريون أسكته مستشهدا بإعلان استقلال الولايات المتحدة إذ لم ترد به حدود ، ثم دارت مناقشة حول اسم هذه الدولة فاقترح بعض الحاضرين (يهوذا) فرفض لأن

---

(١) لا عجب أن تنهض تشيكوسلوفاكيا لمساعدة الصهيونية فرئيس حزبها الشيوعى كان اليهودى Clemens Gottwald والذى تولى رئاسة البلاد فى الفترة الممتدة بين ١٩٤٨ — ١٩٥٣ .

يهوذا ينصرف إلى المنطقة المحيطة بالقدس ، وتقدم آخرون باقتراح آخر إلا وهو (صهيون) فقيل أنه عبارة عن جبل تقع فى سفحه القدس ورفض ، ثم اقترح آخرون (أرض إسرائيل) فرفض أيضاً لأنه يحدد هذه الدولة تحديدا لا يتفق وميثاق بلتيمور والمطامع الصهيونية فى الأقطار العربية المجاورة وعرض بن جوريون اسم (اسرائيل) فوفق عليه .

وبعد انفضاض الاجتماع بساعتين فقط أعلن الرئيس ترومان اعتراف الولايات المتحدة الأمريكية باسرائيل وتبعها الاتحاد السوفيتى ودول أخرى ، وسارع ترومان وأرسل (جيمس مكدونالد) سفيرا للولايات المتحدة وسبقه السفير السوفيتى (بافيل برشوف) وقدم أوراق اعتماده . وأحيط بن جوريون علما باعتراف (ترومان) فقام من نومه وارتدى بذلة فوق بيجامتـــه صائحاً سأوجه حديثاً إذاعيا إلى الشعب الأمريكى . وفى تلك اللحظة توالت الأخبار بأن السلاح الجوى المصرى أخذ يقذف مطار (Dow) فلم يـكد يفرغ بن جوريون من إذاعة حديثه حتى سارع إلى المطار ليرى مدى الخسارة التى لحقت به ولا سيما فان الطائرات المحملة بالقذائف أخذت تفد إلى اليهود بعـد إقامة جسر هوائى من اليونان إلى فلسطين .

وبعد نصف ســاعة من الغارة الجوية المصرية شوهد سرب مصرى آخر ينقض على المطار وكان به وقتذاك (يجال يدين) وهيئة أركانه فانبطحوا أرضاً حتى أفرغت الطائرات حمولتها . وبعد فترة وجيزة أقبل (يجال يدين) وأخبر بن جوريـن أن الجيش المصرى قد عبر الحدود ، وأخذ يقذف المستعمرات اليهودية ، فأجابه بن جوريون : كان هذا متوقعاً .

وفى هذا الوقت الذى تقذف فيه المدفعية المصرية مواقع العدو ولمدة

يمض على الغارات الجوية المصرية سبعة وعشرون يوما تدخل (فولك برنادوت Folke Bernadotte) وفرض الهدنة ووقف إطلاق النار .
ولم يمض يومان على إعلان الهدنة حتى وصلت إلى شواطىء فلسطين الباخرة (التالينا Altalena) وهى إحدى سفن الأسطول الأمريكى فى (بروكلين Brooklyn) وقيل قد اشترتها الجمعية الأمريكية لفلسطين الحرة وهى جمعية تضم عددا كبيرا من الأعضاء المسيحيين إلى جانب الصهيونيين ، ولم يكن وصول السفينة إلى فلسطين موضع استغراب إذ أن الجميع كانوا يتوقعون وصولها بعد أن شحنت بالذخائر والأسلحة التى تزيد على خمسمائة طن من الميناء الفرنسى (بورت ده بوك Port de - Bone) بالقرب من مرسيليا وتقدر قيمة هذه الشحنة بنحو أربعة ملايين دولار .

ألقت هذه السفينة مراسيها فى (كفر وتكين Kfar Witkin) على بعد ثمانية وثلاثين كيلو متر شمال تل أبيب . والآن نتساءل والهدنة قائمة أليس وصول مثل هذه الأسلحة خرقاً لاتفاقية وقف إطلاق النار ؟ أو ألم يكن تدخل (فولك برنادوت) وتقرير الهدنة مع سابق معرفته بأمر هذه السفينة منذ وصولها إلى فرنسا وشحنها بالأسلحة والذخائر ، ثم إبحارها إلى فلسطين ووصولها بعد إعلان الهدنة بيومين فقط دليلا قويا على المؤامرة الدولية التى كانت مدبرة ضد العروبة والعرب ؟ وصلت السفينة تحت سمع (فولك برندوت) وهيئة الأمم المتحدة ، وذرا للرماد فى العيون أرسل أحد معاونيه من مراقبى هيئة الأمم المتحدة لمعاينة شحنة السفينة التى جاء . تقرير عنها من فرنسا قبل إبحارها فرفض اليهود السماح له بالاقتراب منها بينما نجد نائب بن جوريون فى وزارة الدفاع إلا وهو (إسرائيل جاليلى) يتصل أكثر من مرة بالإرهابيين لإخطارهم

بوصول الأسلحة التى تسلمتها حكومة بن جوريون وتولت توزيعها على قواتها .

وفى أول يوليه ١٩٤٨ بدأت الحرب من جديد بعد أن أصبح لجيش بن جوريون أسطول جوى وصل من الولايات المتحدة مارا بمكسيكو عابرا المحيطات إلى تشيكوسلوفاكيا ومنها إلى اليونان ففلسطين(١) : أما الطيارون فجلهم من غير اليهود فقد كانوا أمريكيين وكنديين واستراليين . وهل نعجب بعد هذا إذا رأينا أسراب الطائرات الأمريكية والأسلحة التشيكوسلوفاكية والجنود من أكثر من ستين دولة يقومون بدور هام فى حرب فلسطين ؟ لكن يظهر أن جميع هذه المساعدات الحربية المختلفة لم تضمن لليهود ملاقاة العرب . لذلك جاءت الهدنة الثانية .

وفى سبتمبر أدرك بن جوريون أن (فلك برنادوت) وجد نفسه بغتة فى ميدان حرب عجيب لم تعد مصر فيه تواجه بن جوريون وشراذمه فقط بل تطورت الأمور إلى حرب بين مصر ورعايا دول الكتلتين الشيوعية والديموقراطية فأسراب الطائرات أمريكية وغير أمريكية يقودها طيارون أمريكيون وكنديون واستراليون والاسلحة والذخائر شيوعية من انتاج تشيكوسلوفاكيا وغيرها . أما الجنود فشيوعيون وديموقراطيون وحتى اليونان ساهمت علاوة على ذلك بجوها وأرضها ومياهها فجعلتها معبرا لجيوش المعتدين وعتادهم وطائراتهم إلى الشرق العربى(٢) بالرغم من كل ذلك الذى كان يتم تحت سمع مراقبى الأمم المتحدة وبصرهم فإن جيوش مصر ظلت متشبثة . مستميتة فى مواقعها وحيدة فى الميدان وأعجب (برنادوت) بهذه الشجاعة النادرة وقرر التقدم بمشروع لاحلال

---

(١) Wolfgang Bretholz : Aufstand der Areber Muenchen 1950 p. 201.

(٢) المرجع السابق .

السلام وفيه يقترح أجلاء هذا الخليط من الجيوش الاجنبية عن النقب والرملة والقدس الجديدة . أما حيفا فتبقى ميناء حرة كما أن مطار اللديصير مطارا دوليا ويطالب بن جوريون باعادة جميع ؟ اللاجئين إلى ديارهم فتقرر قتل الوسيط الدولى وقدتم لجماعة شتيرن قتل برنادوت ومرافقه الفرنسى فى ١٧ سبتمبر ، وقد أحدث هذا استياء عاما فى جميع الاوساط الدولية حتى بين أولئك الذين كانوا يناصرون الصهيونية بالمال والعتاد والرجال لكن بالرغم من ذلك فقد اعترفت الأمم المتحدة فى أكتوبر ١٩٤٨ باحقية بن جوريون فى النقب وفيه يربض خمسة عشر ألف جندى مصرى يحتفظون فى الصحراء بثلاث مناطق فيها غزه وبئر شبع فخلق هذا الوضع صعوبة كبرى أمام بن جوريون لأن الطريق الوحيد الموصل بين المستعمرات اليهودية فى جنوب النقب هواحد هذه الطرق التى فى قبضة المصريين وهذا الوضع كان يصادف مصر عند تموينها لقواتها فى بيت لحم لان الطريق بين الشرق والغرب كان فى يد هذا الخليط من الجيوش فتدخلت هيئة الهدنة التابعة للامم المتحدة لعمل تسوية بين الطرفين المتحاربين أعنى مصر وسائر القوات الأجنبية وهذه اتفاقية عجيبة حقا تقضى بأن يسمح كل طرف للآخر بأن تمر قافلته ست ساعات شمالا وجنوبا ولمصر شرقا وغربا .

ثم غدر بن جوريون ونقض الإتفاق بالرغم من احتجاج وزير خارجيته وقتذاك (شاريت) وهجم على النقب وتحصنت فرقة مصرية فى القرية العربية الواقعة شمال النقب الا وهى الفالوجه وانقطعت سبل التموين عنهـــا فالفالوجة أصبحت محاطة بالعدو من كل صوب وهو يرفض السماح بتموينها ولم يبق أمام مصر إلا أحد أمرين إما أن يمـــوت المصريون جوعا أو تسمح الحكومة المصرية لجنودها بشق طريقهم بالقوة . وقررت مصر الهجوم واستخـدام

القوة ولسان حال جنودها اننا أبناء أمة قديمة كالا بدية وطنها العالم العربى وسرها العقيدة ومقدراتها الكفاح وسعادتها فى التضحية . عدوها الاستعباد وعلمها الجهاد .

ولم يكد يصل خبر هذا القرار إلى مسامع بن جوريون حتى سارع مع كل من (يجال يدين) و (يجال الون) إلى التشاور لاتقاذ الموقف وادركوا إن الدائره ستدور عليهم وايقنت كل من انجلترا وأمريكا إن هذه المعركة الجديدة قد تقضى على الاخضر واليابس فى فلسطين وغيرها لذلك حالتا دون وقوع المعركة وتمت الهدنة . لكن هذه الدولة التى ظهرت فجأة إلى الوجود أثارت كثيرا من الشكوك حول كيانها أهى فى الحالة المرجوة التى تحقق رغبات الصهيونية العالمية ؟ الجواب ولا شك بالنفى فبن جوريون لم يتعلم من التاريخ واخطاء الآخرين . فالدولة الجديدة قامت بين دوى المدافع وصليل السيوف ومع من هذه الحرب ؟ مع الدول العربية التى بيتت لها الصهيونية فى ميثاق بلتيمور ، وتساندها الدول استعمارية هذه الحرب . أن دولة بن جوريون تقوم على محاربة الدول العربية أو الجنس العربى كله فهى إذن فى حالة حرب دائمة بخلاف الدول الأخرى التى تعنى قبل كل شىء باستقرار الأمن فى الداخل والخارج ، ورعاية حسن الجوار مع الشعوب التى تحيط بها فقيام دولة بن جوريون معناه فى اللغة الحديثة مدافع وطائرت وليس زراعة أو صناعة أو سلاما . إن قيام هذه الدولة أوضح لنا مدلول لفظ صهيونية ، أنها الوحشية والقتل والسلب والنهب . إن بن جوريون عرف الصهيونية التعريف الحقيق لها فهى الوحشية وايواء المشردين وتشريد الآمنين المستقرين إنها الظلم إنها مذبحة دير ياسين انها قتل (برنادوت) . لقد اقترف بن جوريون ما اقترف فى دير ياسين وغيرها آملا أن ينسى التاريخ هذه المذابح الوحشية ، وآملا ان يعفو التاريخ عما اقترفه بن جوريون فكافأ أولئك السفاكين لحشرهم

فى زمرة الأبطال الأحرار ، وقرر لهم مرتبات مدى الحياة . إن التاريخ لم يعرف فى جميع عصوره إن المحافظة على أرواح هذا العدد القليل من اليهود يتطلب مثل هذا العددمن المدافع والدبابات والطائرات والمدرعات، فضلا عن ان هذا الجيش لا تسلحه وتنفق عليه حكومة بن جوريون بل دول أخرى متخبطة فى سياستها تجاه العرب والإنسانيه ؟ الا تدرى هذه الدول ان أموالها إنما تنفق على أنقاض وطن عربى هل تعتقد هذه الدول أن الحياة اليهودية لا تزدهر وتينع الا فى خرائب وأنقاض فلسطين . ان هذا التعريف للحرية جديد عليناوعلى التاريخ كما أنه سيجر اشنع الويلات على اليهود أنفسهم . أن اليهود فى مختلف أرجاء العالم قلقون لاخوفا من اضطهاد عنصرى جديد مصدره اللاسامية بل خلط الشعوب بين اليهود المقيمين بينهم وبين الجرائم التى تقترفها الدولة البنجوريونية .

المجتمع الإسرائيلى

لا نجد شعبا من شعوب العالم معلوما ومجهولا كالشعب اليهودى فالإنسان لن ينساه ولن يحبه وذلك بسبب الكتب السماوية أولا والكثرة المطلقة من الكتب التى نشرت حول هذا الشعب وتاريخه ثانياً ، وقد حاول كثيرون من العلماء التوفيق بين رأى أولئك وهؤلاء إلا أن هذه الأمنية لم تتحقق وظل الأمر كما هو عليه اليوم .

وإذا أردنا أن ننصف التاريخ حقا ونتبين الأسباب التى دفعت الوحى فى مختلف العصور ، ومؤرخى هذا الشعب إلى الانتهاء إلى هذه النتائج المتضاربة تحتم علينا مراعاة الأصول المتبعة التى تمليها علينا الأمانة العلمية ، أعنى أن يتوخى المؤرخ الإنصاف فيعرض كما عرض الوحى تاريخ هذا الشعب بحسناته وسيئاته فعرض تاريخ المجتمع الإسرائيلى من هذه الزاوية سينتهى بالباحث ولاشك إلى إدراك المكانة التاريخية الحقيقية للاسرائيليين ، وهذا يتطلب الرجوع إلى حدثين هامين فى تاريخ هذا الشعب .

والحدث الأول عندما حطمت روما فى القرن الأول الميلادى الدولة اليهودية ، والحدث الثانى تشريد هذا الشعب . وترتب على هذين الحدثين أن أصبح الشعب اليهودى لا يحيا حياته الخاصة التى اعتادها وفطر عليها منذ قرون بل يتضور فى حياتين : حياته ، وحياة البيئة الغريبة التى يعيش فيها وتحيط به . فالمجتمع الإسرائيلى خلق أحداثه الخاصة الداخلية وتحمل كارها الأحداث الخارجية فتعرض الإسرائيلى لقوى غريبة عنه لم يكن مستعدا لإدراكها . وأهم هذه القوى « المسيحية » التى جعلت من الإسرائيليين هدفا من أهداف التاريخ حتى يومنا هذا .

وبالرغم من هذا الوضع نجد الإسرائيليين يحاولون جاهدين الخلق

والإعجاز والظهور بمظهر الأمة الكاملة أعنى بلوغ الإيجابية والتغلب على السلبية ، ولتحقيق هذا الهدف سلكوا طرقا تغاير ولا شك ما سلكته الشعوب الأخرى لجميع المقدمات والأحداث المرئية والمشاهدة والتى تكون المواقف الحاسمة فى تاريخ الشعوب مفقودة عند الإسرائيليين : فلا حروب، ولا فتوحات، ولا استعمار، ولا سيادة، ولا ثورات. ان الحرب عند الإسرائيلى اتخاذ الأسباب والحيطة ضد القتل أو الضرب حتى الموت ، والفتوحات كسب العيش وسبل الحياة . أما الاستعمار فتكوين جماعة منهم فى وطن أجنبى جديد . حكام الإسرائيليين هم العلماء والفنانون والحاخاميون، والثورات تندلع بينهم فى المجالات العقلية والعلمية .

وظلت الحياة الإسرائيلية تسير على هذا المنوال حتى منحت الدول الأوربية اليهود المساواة فترتب على هذا التطور الجديد ضياع الحافز الإيجابى للاسرائيليين فقد اختفى أمام هذا الاتجاه الجديد . فالإنتاج العقلى الإسرائيلى كان مقيدا وتابعا للكيان الإسرائيلى بمعنى أنه كلما كانت الحياة الإسرائيلية مقيدة انكمشت الحياة العقلية وتوارت واكتفى الإسرائيليون بالحياة الداخلية لا الخارجية أعنى الانصراف إلى الدين والشعور الدينى ، وبقدر اتساع مجال الحياة الإسرائيلية يتسع مجال الحياة العقليه لكن إذا انتهت الحياة من عوامل التهديد ظهر النشاط الثقافى الدنيوى غير متأثر بالعقيدة أو الشعور الدينى .

هكذا كان وضع الشعب الإسرائيلى عقب رفع الوصاية عنه وتحرره وأصبح الإسرائيلى حرا غير مشغول بمسألة حياته وعادت إليه بعض الحقوق التى تمتع بها كاملة تحت راية الإسلام وتم التبادل بين الوصى والقاصر لكن هذا التبادل لم يكن فى العالم المسيحى إلا ظاهرياً فقط وكانت المساواة بين المسيحيين واليهود مساواة صورية فدفع هذا الوضع إلى خلق حالة عدم استقرار جديدة فكثر تزييف التاريخ واتسعت هوة الخلاف وسعت

الشعوب المسيحية جاهدة إلى مقاومة الخطر الإسرائيلى كما تفنن الإسرائيليون في التشفى والانتقام من المسيحية وأتباعها وإذا ما قابلنا بين وضع اليهودية فى أحضان المسيحية ووضعها من قبل فى حمى الاسلام وجدنا المسلمين هم الذين حرروا اليهود والعقل اليهودى من اضطهاد الوثنية أولا ثم المسيحية ثانياً وتمكن اليهود سواء فى شرق العالم الاسلامى أو غربه من من وضع اللبنة الأولى فى صرح النهضة اليهودية الحديثة كما ظهر اليهود كدعاة رأى عالمى وهكذا أخذ التاريخ اليهودى يتطور حتى بلغ بالاسرائيليين المرتبة التى بلغوها اليوم .

والنهضة التى نعنيها تعتمد قبل كل شىء على الاختلاط بين الشعوب والتعاون والتبادل الثقافى واختلاط الشعوب هو العامل الأساسى فى هذه النهضة وذلك لأن حياة العزلة والانفصال كما هو حال المجتمع الاسرائيلى اليوم فى الوطن العربى، تنتهى ولا شك إلى البغضاء والحروب والزوال، وهكذا نجد المجتمع الاسرائيلى يسترد مقومات حياته البدوية الأولى أعنى حرية الفكرة وحرية الكلمة وحرية التنقل التى ناصرها الاسلام ودعا إليها .

والآن نتساءل هل يستطيع المؤرخ أن يكون محايداً ؟ هذا ما أشك فيه وذلك لأن أحداث التاريخ تتطلب من المؤرخ أن يحياها ويعيش فيها ويتأثر بها وإلا فهو جامع وثائق وأخبار فقط لذلك وراء كل موقف من المواقف التاريخية يجب أن يقف المؤرخ بقلبه ويعيش فيه متحليا بالشرف والحقيقة وهنا يتجلى لنا شعور المؤرخ بالمسئولية أمام نفسه أولا وأمام شعبه ثانيا وأمام العالم ثالثا . والواقع أن الحقيقة المطلقة إنما تنشأ فى إطار إدراك الحقائق التاريخية إدراكا شخصياً وبخاصة نخلق شعب ما وتكوينه عملية تتم بطرق خفية عجيبة جدا فمن مجموعات وعشائر وقبائل وأفراد لا هم لهم إلا التفكير فى أنفسهم تتكون مع مضى الزمن هيئات متحدة وجماعات متآلفة متفقة فى الطباع والأقدار، فى الحياة والموت، السعادة والشقاء،

ومن ثم تتنوع العواطف والأفهام والأفكار فتشكل مجتمعة البيئة تشكيلات متنوعة ولن نستطيع تعليل هذه الظواهر بأسباب هى الطقس والطعام والضرورات الاقتصادية . هذه أسباب مؤثرة حقا فى خلق البيئة والمجتمع إلا أنها ليست كل شيء . إن المجتمعات البشرية تنمو نموا عضوياً كما ينمو الانسان الذى هو جزء من الطبيعة فالمؤثر الهام فى هذا النمو وذلك التكوين ، الروح وكنهها وكذلك العقل والفكرة هذه هى القوى الحقيقية التى لا ندركها وهى التى تسرى سريان الكهرباء فتعمل جاهدة فى التطورات التاريخية . إن الأفكار لا تشاهد إنما تتجلى فقط وقد يتقبلها الفرد أو يرفضها حسب قدرته الشعورية العقائدية . وهذه المظاهر وتلك العوامل تتجلى لنا واضحة منذ ابعد العصور فى المجتمع الاسرائيلى وفى صورة متبلورة . وذلك لأن الوطن عقيدة وليس أرضا ، وما العقيدة إلا الحرية والكرامة الانسانية وحرية التنقل فى أرض الله ومن هنا ندرك لماذا نزح الاسرائيليون من مصر بزعامة موسى لما أراد الفرعون تحديد إقامتهم، وهم البدو الرحل أبناء الصحراء وعشاق الحرية وإذا كان العهد القديم صورة حية لمعنى الوطن والقومية ففى تراثنا العربى القديم وكتاب الله العظيم أصدق الشواهد لتصوير الدعائم الأولى لقيام المجتمع الحر وبدون إدراك هذه الدعائم لن يستطيع مؤرخ إدراك كنه المجتمع الذى يدرسه ليجنب حكامه التردى فى الأخطاء وإضاءة السبيل أمامهم لتحقيق رسالته الانسانية وهل أصدق من قوله تعالى : إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها . فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا (النساء ٩٧) .

* * *

ففى أوائل الألف الثالث قبل الميلاد نجد فى بعض أصقاع الشرق الأدنى مجموعات من هذا الشعب السامى والذى يرجح أن موطنها الأصلى

فهو شبه جزيرة العرب تنتقل شمالا إلى بلاد ما بين النهرين ومن ثم تستقر في جنوب بابل ، وكانت هـذه القبائل خليطا من البدو والفلاحين يجرى في دمائهم عدم الاستقرار وحب الحل والترحال آملين في إيجاد وطن يستقرون فيه لذلك نجدهم يتجولون ويتجولون بين قطبي الثقافة في ذلك الحين أعنى بابل ومصر ذارعين البلاد الرابطة بينهما ، أعنى تلك التي عرفت فيما بعد باسم فلسطين ، طولا وعرضاً وهى القنطرة الطبيعية بين أفريقيا وآسيا . واستتبع هذا التجول استقرار الجماعة تلو الجماعة في بعض أجزاء فلسطين وما جاورها ومن ثم تتعرض فلسطين للغزو البابلي حينا والمصري حيناً آخر لأن الأهمية التجارية والاستراتيجية لهذا المعبر بين الأمتين العظيمتين والقارتين الكبيرتين لم تغب عن كل من مصر أو بابل .

فني حوالى عام ٢٥٠٠ ق . م . استولت عليها بابل ثم جاءت مصر واستولت عليها وإلى هذه الفترة تشير رسائل تل العمارنة التى عثر عليها عام ١٨٨٧ وهى هذه الرسائل التى تبودلت بين الفرعونين أمينوفيس الثالث والرابع اللذين عاشا فيما بين ١٤١٠ — ١٣٦٠ من ناحية ، وبين أمراء وملوك الشرق الأدنى من ناحية أخرى . وفى هـذه الرسائل نقرأ أن (اديهبا) والى القدس أرسل إلى فرعون مصر يخبره أن قبائل وعشائر أخذت تنزح من الصحراء إلى فلسطين وأن هذه القبائل تهدد الأمن وتسبب كثيرا من الفوضى والاضطراب نظرا لأعمال السلب والنهب التى تقوم بها . وإذا واصلنا قراءة هذه الرسائل وجدنا (اديهبا) يطلق على هذه القبائل اسم (خبرى) أى (عبرى) حسب التسمية المعروفة لنا الآن ، إذ أن حرف (خ) يقابله الحرف (ع) كما أثبت ذلك رجال اللغات السامية بدراستهم المستفيضة لهذه الرسائل . أما لفظ (عبرى) فهو بدل (عبر) بمعنى شاطىء أو ناحية والمقصود هنا شاطىء الأردن لا الفرات كما ظن قديما .

أما متى انفصلت هـذه القبائل التى عرفت باسم العبريين عن الأمم، فلا نستطيع تحديدهذا الزمن إلا أننا من القصص التى جاءتنا و من لفظ العبريين. وأساطير الآباء الأولين نستطيع أن نقرر أن العبريين كانوا يقيمون قبل نزوحهم إلى فلسطين فى جنوب وادى الفرات ثم صعدوا إلى ما بين النهرين واقتفوا أثر من سبقوهم من المهاجرين الساميين الآخرين فاتجهوا إلى سوريا ومن ثم إلى كنعان على حدود البوادى ولما اشتد بهم الجوع هبطوا مصر. ثم نجد هؤلاء العبريين يستقرون فى جزء من حدود كنعان لكن الاستقرار يتعارض مع الترحال وليس هذا فقط بل هناك فرق بين الأفكار وطرق الحياة لذلك انقسمت القبائل العبرية فيما بينها حسب طرق حياتها انقسام الأسرة السامية إلى أكاديين وأراميين وكنعانيين وعرب جنوبيين ومصريين وحبش وعرب شماليين لقد انقسم العبريون إلى « بنى إسرائيل » وآخرين. ثم تذهب مسألة التطور والانقسام بعيداً فى المكان، أعنى فى بلاد كنعان. فنجد « بنى اسرائيل » المقيمين فى كنعان ينقسمون إلى اثنى عشر سبطا وهؤلاء الاسباط وان اتفقوا أصلا ولغة وعادات إلا أنهم يختلفون فيما بينهم فى سبل الحياة والمصير. فهناك قسم منهم ظل مقيما على حدود كنعان، وآخر نزل البوادى، وثالث عضه الجوع بنابه فنزح إلى مصر حيث الحياه رغدة والأمن مستقر.

وفى مصر أتيحت الفرصة لبنى اسرائيل للاندماج فى ساميى مصر والأقطار الأخرى وذلك لأن بنى اسرائيل لم يقيموا فى مصر بمعزل بعيدين عن الآخرين، فأرض جوشن التى نزلوا بها هى هذا الجزء من الدلتا الواقع بين فرع دمياط والصحراء وهو الاقليم الذى استوطنته قبائل سامية عديدة لخصوبته وكثرة مراعيه. ولما قررت مصر الاتساع شرقا حتى بابل رأت من ضروريات السياسة الجديدة إقرار البدو نشرا للأمن والاستقرار فشق هذا الوضع الجديد على بنى إسرائيل الذين نزلوا وادى جوشن بدوا يروحون ويغدون وهم بحكم هذا الضرب من الحياة تغلب عليهم النزعة.

الفردية وينفرون من الاشتراكية الجماعية لذلك تمردوا مفضلين البداوة والترحال على الحضارة والاستقرار فمن هذا العرض لوضع بنى اسرائيل فى مصر نتبين ثلاثة عناصر هامة جدا أثرت فى خلق الشعب اليهودى :

١ — عاش الشعب اليهودى قرابة قرن فى عزلة مستمرة ، وهذه العزلة أخذت تسلمه إلى ثانية وثالثة حتى عصرنا الحالى . إن هذه العزلة أصبحت شعارا لهذا الشعب وعلامة مميزة له بين الشعوب .

٢ — ومن هذه العزلة ظهرت فكرة الاختيار وان بنى اسرائيل هم شعب الله المختار .

٣ — وأصبحت فكرة الاختيار مع مرور الزمن توحى إلى الاسرائيلى أن يخلق تلقائياً القدرة والكفاءة وما اليهما من الخصائص التى تميزه على أفراد الشعوب الأخرى التى يعيش فى كنفها وبتعبير آخر الحيوية الجبارة للكفاح حبا فى البقاء .

فالعناصر الثلاثة « العزلة » و « الاختيار » و « التجمع » إلى جانب العقيدة الدينية هى مقومات الأمة الاسرائيلية التى تلازمها حتى اليوم .

موسى

وفى وسط الأحداث التاريخية لبنى اسرائيل تظهر شخصية موسى واضحة جلية فمن هو موسى وماذا يريد ؟ تجمع الأخبار التى وصلتنا عنه إنه كان لين الطبع دمث الأخلاق مهذبا ، وبتعبير آخر طيبا ، والطيبة من أهم الصفات التى يجب أن تتوفر فى الشخص الحر المحب للعدل . وذلك لأن الاستعباد والظلم صنوان ، فموسى هو الرجل ، المصرى اسمه ، عرف القصر الفرعونى فى ممفيس كما تأثر ولا شك بالعقيدة المصرية القديمة وإدراكها للعالم والألوهية ، وكما تأثر موسى بهذه العقائد كذلك بنو اسرائيل وذلك لأن موسى لم يخلق دينا فالدين لا يخلقه فرد كما أن الثورة مهما كان لونها ليست من عمل زعيم من الزعماء وكل ما فى الأمر أن العقائد الدينية

والثورة على الأوضاع كانت مكبوتة واقعة تحت ضغط الظروف ، فجاء البطل فحطم هذه القيود فانطلقت الروح الشعبية من هذا القمقم محطمة الأوضاع البالية مبشرة بفجر عهد جديد . فموسى هو مظهر هذه القوى الشعبية وفيه تتجلى مقوماتها . لقد كان موسى زعيما حقيقيا ولو أن المصادر تطلق عليه لفظ (نبى) وهذا أيضاً صحيح لأنه فى تفكيره وعمله كان ينظر إلى المستقبل ويعد الشعب له . فبفضله بلغ بنو اسرائيل مرحلة الرغبة فى الاستقرار ، والتخلص من طبيعة البداوة ، والحل والترحال وعندئذ فقط يبدأ عصر الخلق الثقافى ، لذلك أدرك الخطر الذى يتهدد بنى اسرائيل إذا ما ظلوا مقيمين فى (جوشن) يحيون حياة البدو فانتزعهم من هذا المكان وحبب إليهم الرحيل فوعدهم بأنهم سيستولون على وطن آخر أعنى أرض كنعان التى يستوطنها العرب وبعض العبريين إلا أن هذه الأرض قد غصت بسكانها فكل هجرة جديدة إليها يجب أن تشق طريقها بالقوة أعنى حرباً ضد أقارب لبنى اسرائيل جنسا وثقافة فجميعهم ساميون ، وقد طالبهم موسى بهذا القتال وعلل رغبته هذه بشريعة الآباء الأولين ، ولو أن كنعان قد تطورت حياتها وتقاليدها عما كانت عليه أيام أولئك الآباء والأجداد . فنجد موسى يفكر فكرة أخرى متصلة بالدعوة لإله جديد يغاير سائر المعبودات التى عبدها بنو اسرائيل من قبل .

وكان من الصعب على الشعب إدراك الفكرة الجديدة التى ينادى بها موسى لكن ثقة بنى اسرائيل فى زعيمهم اضطرتهم إلى الايمان بدعوته فتبعوه إلى سيناء المتاخمة لاقليم جوشن وهناك فى واد من الأودية المرتفعة الغنية بمختلف أماكن العبادة أفهم موسى بنى اسرائيل أن رسالة جديدة جاءته تتصل بحدث دينى عظيم ، وهو عقد حلف أو عهد مع الله .

فمن هو هذا الإله ؟ وكيف فهمه بنو اسرائيل ؟ الواقع أنهم لم يفهموه ولم يدركوه لأن بنى اسرائيل لم يخلقوا من أنفسهم لأنفسهم إلها

بل شاهدوه على المرتفعات وفى أعماق الوديان ، فقد توهموه فى سيناء حيث فرضت عليهم التعاليم الدينية والخلقية أعنى (الوصايا العشر) و (كتاب العهد) وهذه الوصايا وذلك العهد يتفقان تماما مع ما جاءنا فى شريعة كل من مصر وبابل أعنى كتاب الأموات وشريعة حمورابى . والذى حدث أن بنى اسرائيل تركوا هذه التعاليم التى أخذوها عن الشعبين الساميين العريقين ثم مع مضى الزمن حوروها بعض التحوير . فبينما نجد فى كتاب الأموات مثلا كيف تدافع الروح عن نفسها أمام الاله أوزيريس قائلة « أنا لم أقتل » إذ بالوصايا تستخدم صيغة الأمر « لا تقتل » ، « لا تزن » ، « لا تسرق » . فجميع هذه الوصايا وتلك الأوامر بدائية إلا أنها لم تلبث إلا أن تطورت مبتدأة بفكرة التوحيد التى خرج بها الاسرائيليون من مصر ومن ثم أكدها موسى فى سيناء ، وذلك لأن الله لم يختر شعب بنى اسرائيل بل الشعب نفسه هو الذى اختار هذا الإله .

وفى صحراء سيناء أيضاً واصل موسى نشاطه ، وقد قصد الصحراء لأنها أصلح مكان لرياضة بنى اسرائيل على الحياة الروحية وبخاصة حيث مدينة « قادش » أى « مقدسة » فهى مركز قديم للعقائد المعينية التى كانت سائدة فى شمال الجزيرة وبخاصة فى هذا الصقع حيث طرق القوافل التجارية التى كانت تروح وتغدو بين جنوب الجزيرة وشمالها ، ومن ثم تتفرع إلى شرقية تتجه إلى بابل وما إليها وغربية عابرة سيناء إلى وادى النيل وقد أقام بنو اسرائيل ، كما تحدثنا التوراة ، هناك أربعين عاما فتزايدوا بالتناسل أولا وانضمام بعض القبائل الاسرائيلية الأخرى إليهم ثانيا فأصبحنا أمام شعب خليط من مجموعة من القبائل التى لا تنتمى إلى قبائل بنى اسرائيل ، وظل هذا الخليط من الناس يتجول فى الاقليم الممتد من قادش إلى ايلات قرابة نصف قرن ولما أحس موسى أن الفرصة

موانية للاستقرار فى وطن ما ولكن كنعان اتخذله شعاراً ، كنعان هى أرض الميعاد ، لذا طالب أنصاره بوجوب غزوها والاستيلاء عليها. وهكذا نجد بنى اسرائيل يتقدمون فى الحياة وشعارهم كنعان التى لم يشاهدها أحد منهم من قبل وهم بالرغم من ذلك يدعون أنها وطنهم، وهنا فقط تنشأ عند بنى اسرائيل فكرة « الوطن » والوطن هنا بلاد لم ينشأ فيها شعب ولم يتوارثها أبناء وأحفاد كالأوطان الأخرى بل الوطن عند بنى اسرائيل عبارة عن فكرة لا استيطان ، إن الوطن هنا نشأ عن فكرة تقول أن وعد الله لهم يتحقق بأستيطان كنعان وهنا نجد الأرض ممتزجة بالعقيدة ولا تنفصل واحدة عن الأخرى ، فالرابطة قوية جدا بين الوطن والعقيدة والعادة أن الشعب ينمو ويتزايد ويتطور مع وطنه غالباً فالشعب يعيش ويتطور عن طريق وطنه ولكن هنا نجد شعبا يظهر إلى الوجود أولا ثم يتجه روحيا إلى إقليم بعينه كوطن له ثانيا ، وهنا نرى بنى اسرائيل يقفزون قفزة إلى وطن غريب عليهم فعند بنى اسرائيل الفكرة الوطنية أولا ثم الوطن ثانيا بخلاف نظرية التطور الاجتماعى فى حياة جميع شعوب العالم والقوميات المختلفة لذلك نجد الاقليمية والطقس يلعبان دوراً ثانويا جدا فى حياة بنى اسرائيل فنجد الاسرائيلى يعيش فى أى بلد وتحت كل سماء دون أن يفقد شخصيته أو يغيرها فهو لن يفنى فى البلد الذى يأويه .

أن الوطن الذى يطمع فيه الاسرائيلى هو وطن روحى وقد حاول موسى بما لديه من وسائل قليلة بلوغه فتقدم من جهة الشمال فاعترضته بعض القبائل الأجنبية التى اضطرته إلى الالتفاف جنوبا فنجح بعد كفاح مرير فى الوصول إلى سهل شرق الأردن إلا أن قبيلة (يهوذا) تخلفت ونجحت فى دخول كنعان من جهة الجنوب وبلغت مكانا قريبا من أورشليم التى كانت وظلت فى يد اليبوسيين . ومع قبيلة (يهوذا) سارت أيضاً قبيلة

(شمعون) أما باقى الأسباط فقد ظلوا فى شرق الأردن وأن أصبح الطريق أمامهم مفتوحا لدخول كنعان . لكن وقع انقسام بين مختلف الأسباط فنجد جاد وروبين و بعض سبط منسى يقررون البقاء فى شرق الأردن، ثم مات موسى ولم ير عبور الأردن وخلفه فى القيادة يشوع بن نون فانتقل إلى الأردن وقضى على الحلف القائم بين العموريين والكنعانيين الشماليين وبذلك نجح فى تحقيق بعض النصر .

وهكذا نجد الأسباط تنزل فى ثلاثة أقاليم : أقليم يهوذا فى أقصى الجنوب وتفصل بينه وبين بقية الأسباط قبائل أجنبية . والإقليم الثانى هو شرق الأردن وهو إقليم مغلق يحده نهر الأردن ويفصل بينه وبين الإقليمين الآخرين . أما الاقليم الثالث . ففى وسط كنعان وتنزل فيه بقية الأسباط . أما القسم الساحلى الشمالى فكان ينزل فيه الفينيقيون وفى الشاطىء الجنوبى الفلسطينيون وقد نزحوا من جزر بحر ايجة .

ويلاحظ أن أهم شىء فى هذا الغزو لا مقاومة السكان الأصليين بل التنافس القوى بين الأسباط وتكالب كل سبط على الاستقرار فى مكان بعينه ، وقد استتبع هذا التنافس طبعا تفرق الأسباط وتشتتها إذ كان كل سبط لا يهتم إلا بنفسه فالاستيطان لم يكن جماعيا بل فرديا وهنا تجلت وبرزت الأنانية الفردية .

والشىء الجدير بالذكر أن سبط (ليفى = لاوى) لم يحصل على أرض بعينها ليقيم فيها كما أنه لم يبغ التبعية لسبط آخر كما صنع سبط (شمعون) الذى خضع لسبط يهوذا لذلك منحت الأسباط أفراد سبط (ليفى) حق الاقامة بينها وكان هؤلاء اللاويون يقومون بوظيفة الكهنة ومعنى هذا الاعتراف بأن وظيفة الكاهن وظيفة عامة تهم الجميع أنى يقيمون ، وإذا حدث وشن سبط أو أكثر حربا دفاعا عن أملاكه أو رغبة فى التوسع

لم ينظر لهذه الحرب على أنها حرب سياسية يشعلها سبط ضد آخر بل تعتبر الهية أعنى « حرب يهوه » والتمسك بهذه الفكرة خلق اللاهوتية الإسرائيليـــة .

وكل غزو تترتب عليه أقامة المنتصر فى الأرض المفتوحة وتتبع هذه الإقامة أو الاحتلال حرب ثقافية قد تنتهى بهزيمة المنتصر عسكريا ونصر المهزومين وهذا ما حدث فعلا بعد استيلاء الاسرائيليين على البلاد فقد اضطروا إلى الانسحاب من المعركة الثقافية وفضلوا حياة العزلة على الاختلاط والامتزاج الثقافى بالرغم من قلة عددهم إذ كانت البلاد عامرة بالفينيقيين والفلسطينيين والآراميين والآدوميين والموآبيين والعمالقة والآمونيين والعرب وغيرهم فهؤلاء جميعهم كانوا يحيطون بالاسرائيليين ويقطنون بينهـــم .

فلسطين

لفظ « فلسطين » هو الصيغة اليونانية للفظ « فلاشت » الوارد فى العهد القديم[1]. ومعنى هذا اللفظ « أرض الفلسطينيين » وهى الجزء المطل جنوبا على البحر ولو أن اليونان منذ عهد هيرودوت كانوا يطلقونه أيضا على الجزء الداخلى للبلاد . وفى هذا المعنى استخدمه الكتاب المسيحيون .

وليس لفظ « فلسطين » هو أقدم أسم أطلق على هذا الأقليم فقد احتفظت لنا الكتابات المسمارية باسم آخر إلا وهو (أمورو) كما نجد فى العبرية « أمورى » وهو يطلق على فلسطين وكنعان والبقاع . وتطلق رسائل تل العمارنة على فلسطين الحالية ووسط سوريا لفظ (كينخى) أو (كينخنى) كما أطلق قدماء المصريين لفظ (كنعان) على الشرق الأدنى بما فى ذلك

(١) سفر الخروج س ١٥ ى ١٤ وأشعيا س ١٤ ى ٢٩، ٣١ والمزامير ٦٠ ى ١٠ .

كنعان وعبروا عن جنوب فلسطين بلفظ (خرو) وشمالها (روتنو) .

أما لفظ كنعان كما هو وارد فى العهد القديم فيشير إلى هذا الجزء من فلسطين الواقع غرب الأردن بما فى ذلك الجزء الساحلى . أما حدود هذه البلاد فقد اختلفت الآراء حولها فشمالا حتى حماة[١]. وحماة المعنية هنا هى حماة الكبرى[٢]. أعنى الاقليم الواقع شمال نهاية لبنان . لكن هناك رأى آخر يقول إن حماة المقصودة هى الجنوبية وهى المشهورة باسم (حماة صوباه) الوارد ذكرها فى أخبار الأيام الثانى[٣]. ويعتقد أنها تقع جنوب جبل حرمون وهو جزء من جبل لبنان ويقع شمال شرق فلسطين . وعلى كل حال فالجزء المأهول ببنى اسرائيل يمتد من (دان) حتى (بئر شبع)[٤]. أما حدود كنعان الجنوبية فتبلغ ما بعد (بئر شبع) حتى قادش ووادى مصرى وهو الاقليم الشمالى من البلاد العربية وأحيانا يفسر خطأ على أنه مصر[٥] واختلاف الروايات حول الحد الجنوبى يرجع إلى عدم وجود حدود معينة .

أما الجزء الذى نزله بنو اسرائيل فى شرق الاردن فيطلق عليه عادة فى القديم اسم « جلعاد » وهو لفظ يطلق على جبل جلعاد أو كما يسمى اليوم جبل جلعود وهو الممتد بين نهرى « يبوك » (فى العهد القديم واليوم « الزرقاء ») واليرموك[٦] . ومن ثم يطلق هذا اللفظ أيضا على كل شرق الاردن[٧] .

---

(١) راجع عاموس ص ٦ ى ١٤ والقضاة ص ٣ ى ٣ والملوك الأول ص ٨ ى ٦٥ وحزقيال ص ٤٧ ى ٢٠ ويشوع ص ١٣ ى ٥ والعدد ٣٤ ى ٨ .

(٢) عاموس ص ٦ ى ٢ .

(٣) ص ٨ ى ٣ .

(٤) صمويل الثانى ص ٢٤ ى ٢ و ١٥ وكذلك الملوك الأول ص ٥ ى ٥ .

(٥) سفر العدد ص ٣٤ ى ٣ . . . وحزقيال ص ٤٧ ى ١٩ .

(٦) راجع التثنية ص ٣ ى ١٠ ويشوع ص ١٣ ى ١١ والملوك الثانى ص ١٠ ى ٣٣ .

(٧) تكوين ص ٣٧ ى ٢٥ ويشوع ص ٢٢ ى ٩ وصمويل الثانى ص ١١ ى ٩ ...

أما فلسطين فتكون الثلث الجنوبى لهذا الإقليم العظيم الذى كان يسمى منذ عصور قديمة جداً « سوريا » ، وتحد شمالا بخط يقع شمال صور جنوب سفح لبنان وحرمون ممتداً إلى خرائب تل القاضى وأبعد من هذا نجد المجرى الاسفل لنهر الليطانى أو كما يسمى أيضاً نهر القاسمى .

وجنوبا يفصل وادى غزة بين جبال سيناء وفلسطين ، وقد يطلق على وادى غزة الممتد جنوب غزة اسم وادى سبع ، المار ببئر شبع ومن ثم يمتد حتى النهاية الجنوبية للبحر الميت . وعلى الجانب الآخر من هذا الخط نجد وادى الحصا والذى يكوّن الحدود الطبيعية .

أما الحد الغربى فالبحر الأبيض المتوسط . كما أن الحدود الشرقية غير واضحة المعالم وقد تسير على امتداد الاراضى التى يستغلها البدو لرعى الماشية .

أما مساحة هذا الاقليم فتبلغ حوالى ٢٣٠ كم طولا بينما يكون غرب الأردن فى الجنوب حوالى ١٢٠ كم وشمالا يبلغ عرضه ما بين ٣٥ و ٤٠ كم فالمساحة نحو ١٥٧٠٠ كم مربع . أما مساحة شرق الأردن فتبلغ حوالى ١٢٠٠٠ كم مربع بما فى ذلك اقليم حوران . ولم يحدث أن استقر أو امتلك الإسرائيليون هذا الجزء الساحلى فى جميع تاريخهم .

أما موقع فلسطين فهو القنطرة التى تربط بين آسيا وأفريقيا حيث تطل القارتان على البحر الأبيض المتوسط أو على أوربا . ففلسطين من هذه الناحية على جانب عظيم من الأهمية لكيان هذه الشعوب وبخاصة تلك التى انحدرت من ارومة واحدة متفقة جنسا وعقيدة وثقافة ولغة ، فى فجر التاريخ آخت بين قطبين من اقطاب الحضارة القديمة أعنى بابل ومصر بين قطبين من أقطاب الأسرة العربية قدما للانسانية فى البابلية الأشورية والهيروغليفية خير ما انتجته القريحة العربية قبل الإسلام فاللغتان

عربيتان بكل ما الكلمة عربية من معانى فالهير وغيلفيه لم يستطع لغويوها فى قرننا الحالى فهمها إلا على ضوء اللغة العربية التى حفظها لنا القرآن الكريم . والتبادل الثقافى بين فرعى هذه الدوحة العربية الكبرى كان يتم عن طريق هـذا الممر الذى يخرج من مصر مخترقا سيناء ففلسطين محاذيا الشاطىء متجها شمالا حتى جنوب الكرمل وهناك يتشعب إلى شعبة تتجه شمالا فى محاذاة الشاطىء إلى فينيقيا ، وهناك بالقرب من مصب نهر الكلب شمال بيروت يتخطى الطريق الصخور الناتئة حيث خلفت لنا القوافل الثقافية التجارية التى كانت تقطع هـــذا الطريق ذهابا وإيابا كثيراً من الكتابات المصرية والآشورية واللاتينية .

أما الشعبة الثانية فكانت تتخطى الكرمل متجهة شرقا حيث مرج « يزرعئل » جنوب الجليل والمعروف اليوم باسم (عمق) ومن ثم تتجه إلى بحيرة طبرية ووادى الأردن فبحرة الحوله لتتجه مخترقة البقاع فحماة فشمال سوريا ومن ثم تتسلق مرتفعات شرق الأردن لتربط دمشق بالبحر الأبيض[1].

ومن ايلات على البحر الأحمر كان يخرج طريق يسير محاذيا لشرق الأردن حتى يبلغ دمشق وعند معان يلتقى به الطريق القادم من جنوب الجزيرة العربية . كما كان هناك طريق يخرج من البحر الأحمر مخترقا إقليم (عربه) إلى حبرون كما خرج طريق من شمال شرقى الدلتا مخترقا النقب إلى حبرون أيضاً .

وعن طريق هذه الشرايين التجارية والثقافية وصلت الحضارة والثقافة إلى فلسطين الفقيرة مساحة وثراء ، وهذا ما يعلل لنا أن فلسطين عبر التاريخ لم تنجح فى خلق تاريخ خاص بها فهى مصرية حينا وبابلية حينا آخر ولم تكن يوما من الأيام فلسطينية .

---

(١) راجع سفر أرميا س ٨ ى ٢٣ .

هذه فلسطين من ناحية موقعها الجغرافى ومكانتها من الناحية السياسية كقنطرة تربط بين أفريقيا وآسيا من ناحية وبين الشرق والغرب من ناحية أخرى ، أما إذا نظرنا اليها من حيث التضاريس الأرضية وأثرها فى حياة البلاد اقتصاديا وسياسيا وجدنا سوريا عامة تعرضت قبل فجر التاريخ لكثير من التصدعات الأرضية العنيفة التى شقت هضبتها الجيرية شمالا وجنوبا إلى شقين عظيمين ، ويبدأ هذا الكسر من المنطقة الواقعة شمال انطاكية القديمة مكونا وادى نهر العاصى ومن ثم المنخفض الواقع بين لبنان والبقاع ثم يغور بعيدا مكونا وادى نهر الاردن ويصل أبعد عمق له فى البحر الميت . ثم يسير هذا الكسر بعيدا فى نفس الاتجاه مخترقاً أقليم عربة حتى يبلغ خليج العقبة فى البحر الأحمر وهكذا نجد فلسطين تنقسم إلى أربع مناطق متباينة تبايناً تاما من حيث طبيعة أرضها وهذه المناطق هى : السهل الساحلى ، غرب الأردن الجبلى ، وادى الأردن ، وأخيراً شرق الأردن .

أما السهل الساحلى فقد ظهر فى عصور متأخرة وذلك لأن مياه البحر كانت أعلى من منسوبها الحالى إذ أن منسوب المياه كان يتراوح بين ٦٠ و ٧٠ متراً فوق المنسوب المعروف لنا اليوم فقد كانت المياه تكاد تبلغ قمة الجبل ومن ثم أخذت تنحسر تدريجيا فظهر هذا السهل الساحلى وما زلنا نشاهد اثار هذه التعرية فى جهات مثل صور وعكا وغزة .

غرب الأردن الجبلى يكون خطاً يكاد يكون مستقيما ممتداً من الجنوب إلى الشمال وهو يربط بين التيه فى شبه جزيرة سيناء وبين لبنان .

وادى الأردن يمتاز الاردن بمسقطه القوى فمنبعه يقع على ارتفاع ٥٢٠ مترا فوق سطح البحر وبحيرة الحوله على ارتفاع مترين بينما بحيرة طبرية على عمق ٢٠٨ أمتار تحت سطح البحر والبحر الميت ٣٩٨ر١ مترا

تحت سطح البحر ، فسقط مياه الأردن يبلغ نحو ٩١٤ مترا منها ٥٢٠ مترا فوق سطح البحر ويبلغ طول النهر من منبعه إلى مصبه ٢٢٠ كيلو مترا . ويخرج نهر الأردن من ثلاثة منابع أبعدها نهر الحصبانى فى غرب جبل حرمون خارج فلسطين وعلى ارتفاع ٥٢٠ مترا من سطح البحر .

أما المنبع الثانى فهو نهر بنياس بالقرب من بنياس (قيصرية فيليب) وعلى ارتفاع ٣٣٠ مترا فوق سطح البحر .

والمنبع الثالث هو « اللدان » ويستمد مياهه من نبعين فى سفح « تل القاضى » وهذا المنبع يقع على ارتفاع ١٥٤ مترا فوق سطح البحر ويعتبر المصدر الرئيسى للاردن ، وعلى بعد ٨ كيلو مترات من تل القاضى جنوبا (على ارتفاع ٤٣ مترا فوق سطح البحر) يلتقى الحصبانى مع نهرى المنبعين الآخرين وهنا يبلغ اتساع نهر الاردن ١٤ مترا .

أما مياه الأردن فتمر شمال البحر الميت فى بحيرتين ، والأراضى التى يخترقها حتى بحيرة الحوله خصبة جدا بالرغم من وجود بعض المستنقعات فى الوسط . أما بحيرة الحوله ذاتها فمثلثة الشكل يبلغ طولها نحو ٨و٥ كيلو مترات وأقصى عرض لها نحو ٢و٥ كيلو مترات .

وجنوب بحيرة الحوله يجرى النهر فى أرض خصبة ثم يأخذ مجراه فى الانخفاض حتى يصل بحيرة طبرية الواقعة على عمق ٢٠٨ أمتار تحت سطح البحر أما عمق مياهها فيتراوح بين ٥٠ و ٧٠ مترا وأقصى عرض لهذه البحيرة ٥و٩ كيلو مترات كما أن طولها يبلغ ٢١ كيلومترا ومساحة سطح البحيرة ١٧٠ كيلو مترا مربعا ويلاحظ أن الجبل يقوم شرق البحيرة عليها مباشرة بينما فى الغرب ينفرج عن شاطئها مسافة يقدر عرضها بنحو ٥و١ كيلومتر وطولها ٥ كيلومترات وتعرف هذه المنطقة اليوم باسم « الغوير » . والبحيرة غنية بالاسماك ومن بينها أنواع لا توجد إلا فى نهر النيل أو فى المياه المدارية الأخرى كما تشتهر المنطقة المحيطة بها بالخصوبة .

أما معظم الراوفد التى تمد الاردن ببعض المياه فهى عبارة عن نهيرات لا ترى الماء إلا شتاء وأشهر هذه النهيرات « شريعة المنادرة وفى التلمود يسمى اليرموك ويكاد يساوى الاردن فى كمية المياه التى يأتى بها ثم نجد أيضاً نهر الجالود ثم نهر الزرقاء ويطلق عليه العهد القديم نهر (يبوك) ثم وادى فرعه وأخيراً وادى الـكلت الذى يجرى فى حقول أريحا وهى تعتبر من الأراضى التى يصب فيها الأردن .

أما أكثر الجهات غوراً فى حوض الأردن فالبحر الميت ويطلق عليه العرب أيضاً بحر لوط وهو يحتوى على كثير من المعادن وبخاصة الملح و"ـكلور ولـكثرة ملوحته لا تعيش فيه أسماك وان عثر فيه أخيراً على بعض الميـكروبات .

شرق الأردن عبارة عن هضبة تنحدر عمودية من جهة الغرب فى وادى الأردن أما من الناحية الشرقية فتنتهى تدريجيا فى الصحراء دون إدراك حدود فاصلة ، أما من الناحية الجنوبية فعبارة عن سهل وتخترق هذه الهضبة ثلاثة وديان تتجه من الشرق إلى الغرب وادى الـكرك ووادى المجيب ووادى زرقاء معين . . أما الاقليم الواقع بين وادى الزرقاء والمجيب فيسمى اليوم « البلقاء » . أما الجزء من الهضبة الواقع شمال اليرموك فيسمى « حوران » .

فهذه التضاريس الأرضية التى تتـكون منها فلسطين فرضت عليها سياسة خاصة خضعت لها فى مختلف العصور فالقبائل النازلة فى شرق الأردن لم تخضع سياسيا فى عصر من عصور قيام الدولة الاسرائيلية لليهود ونفس الظاهرة نجدها أيضاً فى غرب الأردن كذلك الحال إذا ما قابلنا بين شمال فلسطين وجنوبها فمنذ أقدم العصور كان اقليم الجليل يتمتع بنوع من الاستقلال وفى المناطق الأخرى من البلاد نجد جماعات تتـكون ولا تربط بينها روابط قومية كما لا تخضع لسلطان سياسى يوحد بينها وهكذا نجد سكان المناطق المختلفة يحيون حياة مستقلة وكل طائفة

تتولى الدفاع عن مصالحها الخاصة والتاريخ يمدنا بكثير من الأدلة التى تؤيد هذا .

الطقس

لاتعرف فلسطين الفصول الأربعة بل تنقسم السنة إلى فصلين متباينين صيف لايعرف الغيث وشتاء مطير وأكثر شهور السنة بردا فبراير حيث تبلغ درجة الحرارة حوالى ٨ درجات وأحر شهر هو أغسطس إذ تبلغ درجة الحرارة ٢٤ درجة وذلك فى مدينة القدس وتتجمع فى فلسطين حرارة النهار وبرودة الليل والرياح الشمالية الباردة والجنوبية الحارة . أما الحاصلات الزراعية والفواكه وما إليها فنجد منها التين والزيتون والعنب والتفاح والجوز ومن الحبوب الحنطة والشعير والذرة والثوم والبصل والقثاء والبطيخ ، أما الحيوانات المستأنسة فالبقر والضان والابل والمعز والخيل والحمير وفيها من الطيور الدجاج والطيور المستأنسة الأخرى كما نجد فيها الزواحف والحشرات .

سكان فلسطين وثقافتهم فى عصر ما قبل التاريخ

ان الثقافة الاسرائيلية لم يأت بها الاسرائيليون من الصحراء بل استمدوها من أرض كنعان أعنى من الحضارة الكنعانية والفضل فى الاهتداء إلى هذه النتيجة يرجع إلى الكتابات والاثار المصرية والبابلية التى وصلتنا والتى تؤرخ بصفة خاصة الفترة السابقة لنزوح الاسرائيليين إلى فلسطين مباشرة .

فى العصر (الأيوليتى) أعنى عصر تدفق الأمطار يعتقد أن هضبة شرق الأردن هى أول مكان كان آهلا بالسكان ثم فى العصر (البليوليتى) نجد

أوائل القوم الذين نزلوا غرب الأردن واستوطنوه . وفي منتصف العصر (النيوليتي) (حوالى ٥٠٠٠ ق . م .) نستطيع أن نقرر في شيء من اليقين إزدهار حضارة كل من مصر وبابل وحوالى عام ٢٥٠٠ أخذت ترسل كل من الحضارتين أضواءها إلى كنعان كما نتبين هذا من كثير من الاثار المصرية التي عثر عليها بخاصة في (جيزر) .

سكان فلسطين قبل نزوح الإسرائيليين إليها

إذا استثنينا الفلسطينيين والحيثيين فسكان البلاد قبل نزوح الاسرائيليين اليها كانوا من الساميين . وأقدم شعب سامى نزح إلى فلسطين هم الكنعانيون وقد ذكروا أحيانا باسم الفينيقيين ونجد غيرهم الاراميين ثم العرب . وفي العصر الرومانى نجد الكتاب الرومانيين يطلقون على الاقليم الشمالي الشرقى لفلسطين اسم « بلاد العرب [1] » وقد امتدت الهجرة العربية حتى شملت جزءا كبيرا جدا من سوريا وقد جاءنا ذكر أحد الأمراء العرب واسمه (جندب) بمناسبة الحديث عن معركة «قرقر» التي وقعت عام ٨٥٤ ق . م . وظل العرب مقيمين في سوريا وفلسطين حتى جاء الاسلام في القرن السابع الميلادى وبسط سلطان العروبة على جميع أنحاء الجزيرة وحررها من نير الحكم الأجنبي .

نزوح الإسرائيليين إلى فلسطين

إن استيطان الاسرائيليين لفلسطين لم يتم عن طريق غزو حربي وانتصار عسكرى على السكان الأصليين بل ، إذا استثنينا بعض المعارك البسيطة حول بعض القرى ، عن طريق التسلل التدريجي والاندماج

---

(١) غلاطية ١ ى ١٧ .

فى السكان الأصليين . ورسائل تل العمارنة تلقى ضوءاً قويا على هذا الاستيطان فقد حدث أن الأمراء الكنعانيين استدعوا هؤلاء الخبيرى لخدمتهم ومن ثم أصبح التخلص منهم أمراً شاقاً وبخاصة فإن قبائل الخبيرى أخذت تتوافد على البلاد وتتكاثر كما أقبل الكنعانيون على الاسرائيليين فاستوعبوهم عن طريق المصاهرة والاختلاط . أما الجيل الذى انحدر من هذا التزاوج فهو الجيل الاسرائيلى الحقيقى أعنى الخليط من الخبيرى والكنعانيين أو ان شئنا أطلقنا على هذا الجيل لفظ الكنعانى ، هذا من ناحية الدم والجنس . وإذا نظرنا إلى هذا الجيل الجديد ثقافيا فقد كانت ثقافته كنعانية كما تذكر التوراة هذه الحقيقة وتعترف بها[1] . فالزراعة وحياة المدن والصناعة والفنون والتجارة وفنون القتال تلقنها الاسرائيليون عن الكنعانيين كذلك الأماكن الكنعانية المقدسة لم تلبث إلا وانتقلت إلى الاسرائيليين كما تحول « بعل » الكنعانيين إلى (يهوه) الاسرائيليين .

أما هجرة الاسرائيليين إلى كنعان فقد تمت فى عصر كانت فيه سوريا تقريبا مستقلة كما أن السيادة المصرية على تلك البلاد كانت آخذة فى التقلص وهذا فقط هو الذى مكن الاسرائيليين من البقاء . أما الرغبة فى اقتباس الثقافة الكنعانية المصرية البابلية فكانت أمنية سادة الاسرائيليين لا الشعب ذاته كما نشاهد هذا الاتجاه فى قصر سليمان وأمثاله وذلك لأن الشعب لم يبلغ المستوى الرفيع الذى يدفعه إلى الرغبة فى الاستزادة من الثقافة وطلب العلم . ولكى ندرك رجحان كفة الثقافة المصرية يكفى أن نعرف السيادة المصرية ممثلة فى وصول فرعون مصر إلى (جيزر) وتدخل (شيشونك) عند تقسيم الدولة .

لكن ليس معنى هذا أن العلاقات الثقافية بين الاسرائيليين وصور كانت مقطوعة ففى عصر سليمان نجده يستعين بعمال فينيقيين لبناء برجه

(١) التثنية ٦ ى ١٠ — ١١ .

كما استعان بعدد من العمال الفنيين الفينيقيين فى الصناعات البرنزية . والحقيقة الجديرة بالملاحظة أن البطون الاسرائيلية الشمالية مثل يساكر وزبولون ونفتالى كانت أكثر اتصالا بالفينيقيين منها بالقبائل الاسرائيلية[1] .

وقد ظلت هذه العلاقات قائمة وتزداد مع مضى الزمن قوة حتى عصور متأخرة وبخاصة أيام الدولة الشمالية أعنى اسرائيل ولعل فى اقتران الملك (اهاب) باميرة من صور ما يشير إلى مدى التبعية القائمة بين اسرائيل وفينيقيا وقد آثرت اسرائيل هذه التبعية حتى لاتبتلعها دمشق وذهبت هذه العلاقات بعيـــداً حتى أن (اهاب) الاسرائيلى قدس الـه صور (ملـكرت) تقديسه لبعل .ثم انتصر (تجليتبلزر) الاشورى عام ٧٣٢ ق .م . على سوريا فما كان من الملك (أحاز) إلا أن توجه للقاء (تجليتبلزر) وشاهد فى دمشق مذبحها فرغب (أحاز) فى تشييد نظيره فى أورشليم[2] كما أخذ عن دمشق المزولة البابلية الأصل[3] ووجدت اللغة الارامية طريقها إلى العبرية[4] .

ولما استولت أشور على سوريا على يد تجلتبلزر عام ٧٣٢ ق . م . وتبعت دولة يهوذا سوريا أخذ تقديس الاجرام السماوية الأشورى ينتقل أيام منسى إلى معبد أورشليم وهكذا نجد التعاليم الدينية البابلية الأشورية تعود ثانية قوية عنيفة إلى هذه المنطقة فتخلق أثراً قوياً فى سكانها وتتسع مدارك القوم وهكذا نجد الاسرائيليين يدخلون عالماً جديداً عالم الثقافة والحضارة الشرقية القديمة ومن ثم أخذت تقاليد الاسرائيليين وعاداتهم القديمة تختفى تدريجياً أمام الغزو الثقافى الجديد كما أخذ أثرياء

---

(١) تـكوين ٤٩ ى ٣ .
(٢) الملوك الثانى ١٦ ى ١٠ .
(٣) الملوك الثانى ٢٠ ى ٩ — ١١ .
(٤) الملوك الثانى ١٨ ى ٢٦ .

الاسرائيليين يقلدون الملوك فى حياتهم الخاصة وهكذا نشأت الطبقات فى المجتمع الاسرائيلى وأصبحنا نجد أنفسنا أمام أغنياء وفقراء وطبقات عليا وأخرى دنيا وقد أخذ الاسرائيليون عن البابليين ابان السبى وبعده كثيراً من مقومات الحضارة مثل المقاييس والنقود والتوقيت وغيرها .

ثم دالت دولة الأشوريين وجاءت فارس فانتقلت هذه الولايات الأشورية اليها ودخلت الأنظمة الفارسية إلى الاسرائيليين فأرخوا بسنى حكم ملوك الفرس كما استخدموا العملة الفارسية وشقت بعض المفردات الفارسية طريقها إلى الاسرائيليين .

ثم إورث الاسكندر الشرق الأدنى فدخل فى منطقة نفوذ الثقافة الهللينية فأصبحنا نجد نظام الحكم والقضاء والإدارة والمنافع العامة والعلوم والفنون والتجارة والصناعة وهكذا فرضت الثقافة الهللينية نفسها على هذه البلاد المفتوحة .

الطعام والمسكن والملبس

الطعام

إن طعام الاسرائيليين الأولين كان بسيطا ومتواضعا وهو يتكون من الخبز والفاكهة والخضر . أما اللحم فقد كان قاصراً على الأعياد للغنى والفقير .

أما الحنطة فكانت تحمص أو تقلى ثم تفرك وتؤكل (فريك)[1] وكان هذا (القلى) هو الطعام الذى يحمله معهم المسافرون فى أسفارهم[2] .

---

(١) اللاويون ٢٣ ى ١٤ وروث ٢ ى ١٤ .

(٢) صموئيل الأول ١٧ ى ١٧ وس ٢٥ ى ١٨ وصموئيل الثانى ١٧ ى ٢٨ .

أما الخبز فيصنع من دقيق القمح ونادراً الشعير . وإعداد الرغيف لا يختلف كثيرا عن اعداده اليوم أعنى يطحن القمح بالرحى يوميا ثم يعجن ويخبز .

أما طحن الحبوب فكان يتم إما بالمهراس أو الطاحون أو المدق ومع الخبز كانوا يأكلون الفاكهة والخضر والزيتون المخلل . أما الفاكهة فكانت تؤكل طازجة أو مجففة وبخاصة العنب والتين والتمر فكانوا يجففونها فى هيئة أقراص . وأحب البقول إلى الاسرائيليين العدس والفول ثم البصل والثوم وكثيرا ماكانوا يأكلون الخبز مع البطيخ أو القثاء .

كذلك اللبن كان يكون طعاما هاما للشعب سواء كان حليبا أو مصنعا لاستخراج الجبن والزبد منه ، أما اللحم فقد كان قديما نادراً لذلك كان أكل اللحم قاصراً على أيام الأعياد أو المناسبات السعيدة أو لتكريم الضيوف الأعزاء[١] وكان القدامى عامة يعتبرون كل نحر قربانا وذلك لأن كل دم يسيل من الحيوان محرم على الانسان لأنه من نصيب المعبود .

أما موائد الملوك فلم تخل يوميا من اللحم ثم جاء الأعيان وقلدوهم[٢]. وأحب الحيوانات إلى القوم الضأن والماعز[٣] لكن يجب ألا نفهم من هذا أن القوم كانوا يجهلون القيمة الغذائية للعجول والثيران[٤] .

إعداد اللحم للطعام كان قديما جدا يطبخ[٥] لكن خروف الفصح

---

(١) تكوين ١٨ ى ٧ وصموئيل الثانى ١٢ ى ٤ .
(٢) عاموس ٦ ى ٤
(٣) صموئيل الأول ١٦ ى ٢٠ وص ٢٥ ى ١١ و ١٨ وصموئيل الثانى ١٢ ى٤ .
(٤) صموئيل الأول ١٤ ى ٢٢ وص ٢٨ ى ٢٤ وأشعيا ١ ى ١١ والتكوين ١٨ ى ٧ .
(٥) الخروج ٢٣ ى ١٩ ولاويون ٦ ى ٢١ .

كان يشوى ثم أخذت فكرة الشواء تنتشر بين القوم . وبينما نجد العرب يطبخون الحمل فى اللبن إذ بالعبريين يحرمونه[١] .

والاسرائيليون كسائر الشرقيين مغرمون جدا بأكل الحلوى وبخاصة أنواع الفطائر والكعك مثل كعك العيد[٢] وكعك الزبيب[٣] وكعكة العيد والعسل[٤] وكعكة الزيت (لقمة القاضى[٥]) وهناك كعكة أخرى من الفواكه والعسل واللبن والجبن . ويستخدم الاسرائيليون لاعداد هذا النوع من الكعك عادة الزيت[٦] ولتحليته يستخدمون الدبس وهو مستخرج من النحل البرى[٧] كذلك هناك عسل البلح .

واعتاد الاسرائيليون أكل السمك ولو أنه كان طعام الفقراء[٨]. لكن بعد السبي أصبح طعام جميع الطبقات .

وغير السمك نجد الجراد الذى كان أيضا طعام الفقراء[٩] وهو طعام البدو حتى يومنا هذا وهم يأكلونه مشويا أو مطبوخا .

أما التوابل فاهمها الملح[١٠] والملح كالخبز[١١] أعنى يقوم مقام العهد[١٢]

---

(١) خروج ٢٣ ى ١٩ .
(٢) تكوين ١٨ ى ٦ .
(٣) صموئيل الثانى ٦ ى ١٩ .
(٤) خروج ١٦ ى ٣١ .
(٥) عدد ١١ ى ٨ وخروج ٢٩ ى ٢ .
(٦) لاويون ٢ ى ١ — ٧ وص ٦ ى ١٤ وص ٧ ى ١٢ .
(٧) تثنية ٣٢ ى ١٣ وصموئيل الأول ١٤ ى ٢٥ — ٢٦ وانجيل متى ٣ ى ٤ ومرقس ١ ى ٦ .
(٨) العدد ١١ ى ٤ — ٥ وأرميا ١٦ ى ١٦ .
(٩) لاويون ١١ ى ٢٢ ومتى ٣ ى ٤ ومرقس ١ ى ٦ .
(١٠) أيوب ٦ ى ٦.
(١١) عزرا ٤ ى ١٤ .
(١٢) عدد ١٨ ى ١٩ وأخبار الأيام الثانى ١٣ ى ٥ وقارن لاوين ٢ ى ١٣ .

وغير الملح نجد الكزبرة[١] وكذلك الكمون[٢] والكمون الأسود[٣] والنعناع[٤] والخردل[٥] .

أما الفراخ والبيض[٦] فيرجح أن اليهود جاءوا بهذا الطعام من بابل منذ عصر السبي . كما أخذ اليهود عادة أكل السمك المملح من مصر وشربوا الجعة المصرية وغيرها من المشروبات أما النقل وبخاصة الجوز فقد جاءوا به من فارس .

واعداد الطعام كان قسمة بين الرجال والنساء فالمرأة هي التي تطحن وتخبز كما تعد الخضر والزبد والجبن وما إليها[٧] أما ذبح الماشية والطيور وشوائها فمن عمل الرجال[٨] وأحياناً نجد الرجل يقوم بأعمال إعداد الخضر[٩] . وقد عرف الاسرائيليون في المدن الكبرى المخابز[١٠] .

والمطبخ الاسرائيلي في غاية البساطة ففيه أولا الرحى والقادوس لاحضار الماء من النبع وكان هذا عادة من عمل النساء[١١] كذلك كان يحفظ الاسرائيلي الزيت في القواديس[١٢] أما السوائل الأخرى كالنبيذ واللبن

---

(١) خروج ١٦ ى ٢١ وعدد ١١ ى ٧ .
(٢) أشعيا ٢٨ ى ٢٥ .
(٣) أشعيا ٢٨ ى ٢٥ وأنجيل متى ٢٣ ى ٢٣ :
(٤) متى ٢٣ ى ٢٣ ولوقا ١١ ى ٤٢ .
(٥) متى ١٣ ى ٣١ — ٣٢ وس ١٧ ى ٣٠ .
(٦) لوقا ١١ ى ١٢ .
(٧) صموئيل الأول ٨ ى ١٣ وتكوين ١٨ ى ٦ .
(٨) تكوين ١٨ ى ٧ وصموئيل الأول ٩ ى ٢٣ وس ٢ ى ١٣ — ١٥ .
(٩) تكوين ٢٥ ى ٢٩ .
(١٠) هوشيع ٧ ى ٤ .
(١١) تكوين ٢٤ ى ٤١ .
(١٢) الملوك الأول ١٧ ى ١١ .

فكانت تحفظ فى القرب[١] . أما الحبوب والبقول فنى صوامع كبيرة كما حافظوا على الفواكه والكعك والفطائر فى سلال مختلفة[٢] .

أما قدور طبخ الطعام فكانت من الطين مثل الطواجن أو البرنز[٣] لطهى الخضر[٤] واللحم[٥] أما أوانى الشرب فكثيرة كما استخدم الاسرائيلى (شوكة = مزليج) لنشل اللحم من القدر فقط ولا تستخدم فى الطعام[٦] وكذلك السكين = (ما كلت) للذبح وتقطيع اللحم عند الطبخ فقط[٧] .

أما المشروبات فأهمها الماء ولما استقر الاسرائيليون فى أرض كنعان أخذوا يتعرفون إلى النبيذ[٨] وكان الاسرائيليون مولعين بالنبيذ حتى أننا عثرنا على كثير من أماكن تحضيره كما أن العهد القديم كثيراً مايشيد بالنبيذ وشربه[٩] والنبيذ ضرورة من ضروريات الاحتفالات والأعياد[١٠] ويحدثنا العهد القديم عن كثير من حالات السكر[١١] والاسرائيلى ذواقة للنبيذ فقد كان يشربه صرفا ولم يمزجه بالماء إلا فى العصر اليونانى الرومانى وهذا النوع من النبيذ لم يكن محببا إلى الاسرائيليين الذين يفضلون شرب النبيذ الممزوج ببعض التوابل وأنواع العطارة[١٢] وبخاصة

(١) تكوين ٢١ ى ١٥ ...
(٢) أرميا ٢٤ ى ٢ وتكوين ٤٠ ى ١٧ ... وتثنية ٢٦ ى ٢ .
(٣) الملوك الثانى ٤ ى ٣٨ ... وأرميا ١ ى ١٣ .
(٤) الملوك الثانى ٤ ى ٣٨ ...
(٥) خروج ١٦ ى ٣ وميخا ٣ ى ٣ ...
(٦) صمونيل الأول ٢ ى ١٣ .
(٧) تكوين ٢٢ ى ٦ و ١٠ .
(٨) هوشع ٢ ى ١٠ و ١٤ و ١٧ والتثنية ٦ ى ١١ و س ٨ ى ٨ ..
(٩) مزمور ١٠٤ ى ١٥ .
(١٠) صموئيل الأول ١ ى ٩ و ١٣ ..
(١١) أشعيا ٥ ى ٢٢ وهوشع ٧ ى ٥ وأرميا ٢٣ ى ٩ ..
(١٢) نشيد الأناشيد ٨ ى ٢ .

المر[١] ومن أنواع الأنبذة الأخرى المحببة إليهم ذلك الممزوج بالعسل وبنسبة أربعة نبيذ وواحد من عسل .

وإلى جانب النبيذ الطبيعى شرب الاسرائيلى المسكرات الأخرى[٢] ففى نشيد الأناشيد[٣] نقرا ذكرا لنبيذ ممزوج بعصير الرمان هذا إلى جانب شراب العرق المأخوذ من مصر عن طريق تخمير التمر .

الكساء

لا يقدم لنا العهد القديم وصفا للملابس الاسرائيليين وكل معلوماتنا عن الكساء مستمدة من الآثار والبقايا التى ما زالت مستخدمة فى الشرق حتى يومنا هذا .

وأقدم كساء للانسان المئزر[٤] أو « المنطقة » وهى عبارة عن كساء للحقوين وقد تصنع من الكتان[٥] أو من الجلد[٦] . وفى مصر القديمة نجد هذه المنطقة وفى أشكال مختلفة ويمتاز بدو الصحراء أحيانا باستخدامها أو باضافة حرام اليها وهذا اللباس مازال إلى الآن مستخدما عند المسلمين فى الاحرام ويطلق العهد القديم عليه عبارة لباس المحاربين الأشوريين[٧] .

---

(١) مرقس ١٥ ى ٢٣ .
(٢) تثنية ٢٩ ى ٦ وصموئيل الأول ١ ى ١٥ ولاويون ١٠ ى ٩ وأشعيا ٢٨ ى ٧ .
(٣) ٨ ى ٢ .
(٤) تكوين ٣ ى ٧ .
(٥) أرميا ١٣ ى ١ .
(٦) الملوك الثانى ١ ى ٨ — ٩ .
(٧) أشعيا ٥ ى ٢٧ ٠٠٠ وحزقيال ٢٣ ى ١٢ .

واحتفظ الاسرائيليون بهذا اللباس فى الطقوس الدينية[1] ثم انتقل إلى حالات الحزن إذ يتمنطق به الرجل والمرأة وهو مصنوع عادة من شعر الماعز أو وبر الجمال[2] وغالبا ما تستخدم هـــذه المنطقة عند الاسرائيليين لباسا مستقلا[3] وحينا يستخدم الاسرائيلى المنطقة كساء تحت العباءة[4] .

وغير المنطقة والحزام نجد فيما بعد « القميص » وقد حل محل المنطقة وهو كساء للجسد مقفل عند الرقبة وله كمان وطول الكم تقريبا ربع طول الذراع أما طول القميص فيصل حتى فوق الركبتين ونادرا مايبلغ القدمين وينتهى القميص عادة بأهداب ويحزم الفرد فوقه عند حقويه حزاما . لكن مع مرور الزمن نجد القميص يبلغ القدمين حتى أن الانسان يضطر إلى رفعه بالحزام عند العمل أو السرعة فى المشى[5] وفى عصور متأخرة أصبح من المستحب لبس الأثواب الطويلة التى تلمس الأرض سواء كانت الأثواب للرجال أو النساء[6] .

وعن الكنعانيين أيضا أخذ الاسرائيليون اللباس الملاصق للجسد وكانوا يلبسونه تحت الثوب وهو عادة من القماش الرقيق ويعرف فى العبرية باسم (سدين)[7] .

---

(١) الملوك الثانى ١ ى ٨ وأشعيا ٢٠ ى ١ وأرميا ١٣ ى ١ وصموئيل الأول ١٩ ى ٢٤ .
(٢) أيوب ١٦ ى ١٥ .
(٣) الملوك الأول ٢٠ ى ٣١ وس ٢١ ى ٢٧ وأشعيا ٣ ى ٢٤ وس٣٢ ى ١١ .
(٤) الملوك الثانى ٦ ى ٣٠ .
(٥) الملوك الثانى ٤ ى ٢٩ وس ٩ ى ١ وخروج ١٢ ى ١١ .
(٦) أشعيا ٦ ى ١ وس ٤٧ ى ٢ وأرميا ١٣ ى ٢ ونحميا ٣ ى ٥ .
(٧) أشعيا ٣ ى ٢٣ .

أما أقدم ثوب خارجي استخدمه البدوي السامي فكان عبارة عن كساء يبلغ أسفل الركبتين وهو يستر أحدى الكتفين ويكشف الذراعين والفرق بين كساء المرأة وكساء الرجل الخارجي أن كساء المرأة أطول من كساء الرجل ويطلق الاسرائيليون عادة على الكساء الخارجي (سمله) وهو الذي تطور إلى العباءة وهي متسعة عند الصدر (عب) إذ كان يضع يده فيه أو يحمل فيه بعض المواد على أن يكون مستخدما حزامه وهذه العادة موجودة حتى يومنا هذا عند البدو[1] لكن هذا الثوب معوق في العمل لذلك كان يخلع[2] بالرغم من أنه مفيد جدا ومن ضروريات الوقار والاحترام[3] وما زال البدو حتى يومنا هذا ينظرون إلى الشخص الذي لا يضع العباءة وكأنه لا يرتدي شيئا[4] .

ومع مضي الزمن تأخذ ملابس الكنعانيين الملونة بأفئدة الاسرائيليين فاقتبسوها عنهم[5] والصورة التي جاءتنا عن زهاء الملابس وجمالها في قصر سليمان تشير إلى تطور الكساء في المجتمع الاسرائيلي[6] . ومن الملابس التي أخذها الاسرائيليون في تلك الفترة عن الكنعانيين لاشك تلك العباءة المعروفة باسم (معيل) وهي من قماش رقيق جداً[7] وقد ارتداها الوجوه والملوك عوضاً عن الشملة المنسوجة من خيوط خشنة[8] .

---

(١) خروج ٤ ى ٦ ومزمور ٧٤ ى ١١ والملوك الثاني ٤ ى ٣٩ ولوقا ٦ ى ٣٨ .
(٢) متى ٢٤ ى ١٨ .
(٣) خروج ٢٢ ى ٢٥ .. وتثنية ٢٤ ى ١٢ ..
(٤) صموئيل الأول ١٩ ى ٢٤ وعاموس ٢ ى ١٦ وأشعيا ٢٠ ى ٢ — .. وأيوب ٢٢ ى ٦ وس ٢٤ ى ٧ و ١٠ .
(٥) صموئيل الثاني ١ ى ٢٤ .
(٦) الملوك الأول ١٠ ى ٥ .
(٧) صموئيل الأول ١٥ ى ٢٧ وأيوب ١ ى ٢٠ وس ٢ ى ١٢ وعزرا ٩ى ٣ .
(٨) صموئيل الأول ٢ ى ١٨ .. وس ١٨ ى ٤ وس ٢٤ ى ٥ و ١٤ وس ٢٨ ى ١٤ .

أما العباءة الثانية التى أخذها الاسرائيليون عن الكنعانيين فتلك المعروفة باسم (أديرت)[١] وهى تقوم مقام المعطف إذ أنها كانت تلبس فوق الشملة[٢] .

ملابس السيدات

أهم ملابس السيدات لا شك (الكتونت) القميص والشملة . وكان يحرم على النساء التشبه بالرجال فى الملبس والعكس أيضاً[٣] فالفرق بين ملابس الجنسين كان بصفة خاصة فى الحجاب وغطاء الرأس وغيرهما . فالمرأة ترتدى المعطف وهو ولا شك يتصل إبالقميص ولو أنه أطول منه كما اشتهرت بحب تعدد الألوان . كذلك الكساء الرجالى المعروف باسم (سدين) تلبسه المرأة أيضا[٤] . أما الملابس الخارجية للمرأة فعبارة عن الشملة والطرحة وكانت تستخدم أيضا لحمل الأشياء[٥] ومن المعاطف عرفت المرأة (فتيجيل)[٦] . والمعطف[٧] .

أما الحجاب وهو الذى يميز أصلا بين الرجل والمرأة فمن مستلزمات الالــهة (عشترت) فهو شعارها وذلك لأنها كانت عندما تنتقل إلى العالم السفلى تتجرد من جميع ملابسها طيلة بقائها فى العالم السفلى وذلك لأن الموت يخيم فى ذلك الوقت على الأرض وتموت جميع النباتات لأن عشترت

---

(١) يشوع ٧ ى ٢١ وميخا ٢ ى ٨ .
(٢) ميخا ٢ ى ٨ .
(٣) تثنية ٢٢ ى ٥ .
(٤) أشعيا ٣ ى ٢٥ والأمثال ٣١ ى ١٤ .
(٥) أشعيا ٣ ى ٢٢ وروث ٣ ى ١٥ .
(٦) أشعيا ٣ ى ٢٤ .
(٧) أشعيا ٣ ى ٢٢ .

تجلب الموت وكل فرد يعرض حجاب عشترت للهواء موتا يموت، ولما تترك العالم السفلى ترتدى ثيابها وتضع حجابها وتتجه إلى حبيبها (تاموز = أدونيس) .

والعلاقة قوية بين استخدام الحجاب وبين هذا العنصر الاسطورى فى حجاب عشترت فمثلا نجد العروس تتوجه إلى عريسها متحجبة[١] كذلك نجد روث تتوجه إلى بوعز متحجبة[٢] و (تامار) الزانية تضع حجابا[٣] والنساء يسرن محجبات[٤] فالحجاب من ملابس السيدات إلا أنه لا يستخدم دائما كغطاء للوجه بل أحيانا أيضا كشال حول الرقبة وذلك بتغطية الرأس به ومن ثم يتدلى حتى الحقويين .

ثم مع الزمن تتطور الملابس تطوراً يدل على رقة الذوق وحب الأناقة وخاصة بعد أن اتصلت العلاقات التجارية بين شعوب الشرق الأدنى فاستورد الاسرائيليون أقمشة من فينيقيا ومصر وبابل وبخاصة من الأخيرة التى اشتهرت مصانعها بانتاج الأقمشة الملونة والمزخرفة والتى تتحلى برسوم الشخوص[٥] . وهكذا نجد الاسرائيلى لا يقنع بالمنطقة بل بالثياب الجميلة[٦] .

والمرأة الاسرائيلية لم تتخلف عن الرجل فى الملبس والتجمل كما نتبين هذا من[٧] .

---

(١) تكوين ٣٤ ى ٤٧ .
(٢) روث ٣ ى ٣—٤ .
(٣) تكوين ٣٨ ى ١٤ — ١٥ .
(٤) تكوين ١٢ ى ١٤ وس ٢٤ ى ١٥ ..
(٥) حزقيال ٢٧ ى ٧ و ١٦ و٢٤ و... ويشوع ٧ ى ٢١ .
(٦) للملوك الثانى ٥ ى ٥ وأرميا ٤ ى ٣٠ والمراثى ٤ ى ٥ وأيوب ٢٧ ى ١٦ والملوك الثانى ١٠ ى ٢٢ وأشعيا ٣ ى ٦ .
(٧) أشعيا ٣ ى ١٨ — ٢٣ .

وفيما يتصل بغطاء الرأس فلم يصلنا فى العهد القديم ما يشير اليه لكن فى الآثار التى جاءنا بعضها نتبين أن الاسرائيليين كانوا يغطون رءوسهم بالغطاء الأشورى التقليدى . ووصلتنا تماثيل تشير إلى أن السوريين كانوا يربطون شعر الرأس بشريط حوله وهذه العادة مازالت موجودة عند بعض الأفراد فى بلاد العرب[1] .

وبينما نجد الفلاح الاسرائيلى يحتفظ بالغطاء البسيط إذ بنا نجد وجهاء الاسرائيليين والاسرائيليات يغطون رءوسهم بما يشبه العمامة وهذا الغطاء يطلقون عليه أسماء متعددة منها الصنيف)[2] وهو خاص برئيس الحاخاميين . أما الكاهن فكان يغطى رأسه بال (مجبعة)[3] وقد تسمى أيضا (فئر)[4] كما استخدمت ال (فئر) كغطاء يزين رأس العريس فى الزفاف[5] .

لباس القدم : استخدم قدماء المصريين الخف ، وفى فلسطين نجد فقراء الاسرائيليين يسيرون حفاة بالرغم من وجوده[6] ويعرف هذا الخف باسم (نفعليم) وكان يصنع من الجلد أو الخشب ويربط فى الرجل بسير[7] وكان الاسرائيلى يخلع نعليه إذا ما دخل الغرفة أو المعبد[8] أما رجال الدين فيؤدون طقوسهم حفاة كما جرت العادة أن الفرد يسير حافيا فى أيام الحزن[9] .

---

(١) الملوك الأول ٢٠ ى ٣١ .
(٢) خروج ١٨ ى ٤ .
(٣) خروج ٢٨ ى ٤٠ .
(٤) حزقيال ٤٤ ى ١٨ وحزقيال ٢٤ ى ١٧ و٢٣ وأشعيا ٢ ى ٢٠ :
(٥) أشعيا ٦١ ى ١٠ .
(٦) عاموس ٢ ى ٦ وس ٨ ى٦ وقارن التثنية ٢٥ ى ١٠ :
(٧) تكوين ١٤ ى ٢٣ وأشعيا ٥ ى ٢٧ .
(٨) خروج ٣ ى ٥ وس ١٢ ى ١١ ويشوع ٥ ى ١٥ .
(٩) صموئيل الثانى ١٥ ى ٣٠ وحزقيال ٢٤ ى ١٧ و ٢٣ .

التبرج والعناية بالجسد

من الأشياء التي هى من حاجيات الرجل ولو أنها ليست للزينة العصا والخاتم[١] فالعصا (مطه) ضرورية للهش بها على الغنم وكسلاح وبخاصة فى الاسفار[٢] .

أما الخاتم (حاتم) أو (طباعت) فقديم جداً عند الاسرائليين[٣] والخاتم يستخدم حتى اليوم عوضا عن التوقيع . واعتاد الاسرائيلى قديما حمل الخاتم فى حبل حول عنقه[٤] . أما قدماء المصريين فيلبسونه فى أصابعهم[٥] وفيما بعد نجد الاسرائيليين يضعونه الخاتم فى أصبع من أصابع اليد اليمنى[٦] والخاتم فى مصر على شكل الجعران .

وغير العصا والخاتم نجد الصلة قوية جداً بين الحلى والطلاسم فالمعادن والأحجار الكريمة أو الشبيهة بالكريمة تتصل أصلا ببعض المعبودات ومن هنا اكتسبت قوتها السحرية فالشرقى قديما وحديثاً يعتقد فى الحسد فكل مايحمله من طلاسم يتعلق بالحسد والوقاية منه وهذا يعلل لنا السبب فى أن الشرقى يحمل منذ عصور قديمة جداً كثيرا من أدوات التبرج وقد أشار العهد القديم إلى هـــذه الظاهرة[٧] حيث نجد ذكرا لقطعة من حلى النساء مستخدمة كطلسم . ولم يكن استخدام هذه الطلاسم قاصراً على الادميين بل تعداهم إلى الحيوانات كما هو مشاهد حتى اليوم . والاحجار الكريمة يطلق عليها الاسرائيليون الأولون أسم الأحجار

(١) تكوين ٣٨ ى ١٨ .
(٢) خروج ١٢ ى ١١ والملوك الثانى ٤ ى ٢٩ .
(٣) تكوين ٣٨ ى ١٨ .
(٤) تكوين ٣٨ ى ١٨ .
(٥) تكوين ٤١ ى ٤٢.
(٦) أرميا ٢٢ ى ٢٤ .
(٧) أشعيا ٣ ى ٢٠ .

المقدسة[1] . ويلاحظ أن معظم أدوات الزينة من حلى وطلاسم أخذها الاسرائيليون عن المصريين أو البابليين وذلك لأنها فى مجموعها أجنبية الصنع . ومن أدوات الزينة الحلقان (نيزم[2]) وهناك نوع آخر يسمى (عاجيلى حجول[3]) وقد استخدم الأطفال ذكوراً وأناثا الحلقان[4] وكذلك ما يعرف باسم (نطيفوت[5]) .

واستخدم الاسرائيليون أيضا الحلى فى الانف[6] .

أما الجبهة والشعر فقد زينتهما الاسرائيلية بعصابة تعرف باسم (شبيث[7]) وحول الرقبة تزينت بالعقود المتنوعة .

وفى اليدين لبست الاسرائيلية الأساور[8] (صميديم) .

كما زينت القدمين بالخلاخيل[9] (عكسيم) وأحيانا كانت تجمل الخلاخيل بسلسلة لتحديد خطوة المرأة فتشبه فى هذه الحالة الحجال وفى العبرية (صعدوت[10])

العناية بالجسد

كان الاسرائيلى يهتم بالغسل فى الأنهار والبحيرات[11] . وكان

---

(١) المراثى ٤ ى ٣ .
(٢) تكوين ٣٥ ى ٤ وأيوب ٤٢ ى ١ .
(٣) عدد ٣١ ى ٥٠ .
(٤) خروج ٣٢ ى ٢ .
(٥) أشعيا ٣ ى ١٩ .
(٦) تكوين ٢٤ ى ٢٢ وأشعيا ٣ ى ٢١ والأمثال ١١ ى ٢٢ .
(٧) أشعيا ٣ ى ١٨ .
(٨) تكوين ٢٤ ى ٢٢ .
(٩) أشعيا ٣ ى ١٨ .
(١٠) أشعيا ٣ ى ٢٠ .
(١١) الملوك الثانى ٥ ى ١٠ .

ومازال يتطلب الاستحمام والغسل قبل دخول المعبد[١] وجرت العادة أن الإنسان يغتسل قبل تناول الطعام وكان يقدم الماء للضيف لغسل قدميه عند مقدمه[٢] .

ويتصل بالغسل التدليك بالزيت لتطرية الجسد . وكان الاسرائيليون يدهنون أجسامهم بالزيت فى الأفراح وعند الزواج وفى الولائم[٣] لكن عند الحزن لايدهن[٤] .

وكان الاسرائيليون يدهنون بالزيت شعر الرأس واللحية[٥] ثم نجد بعد ذلك دهن جميع الجسد[٦] . ومن علامات التكريم دهن قدمى[٧] الشخص.

أما مادة الدهان فكانت عادة زيت الزيتون[٨] (شيمن) ولم يكتف الاسرائيلى بزيت الزيتون بل أضاف اليه بعض أصناف العطارة الذكية وصنع منها معاجين عطرية[٩] . أما عملية صناعة المعاجين فكانت من اختصاص الاماء[١٠] أو مركب [١١]المعاجين (روقيع) . ولعل أرقى معجون هو الناردينى[١٢] .

---

(١) تكوين ١٨ ى ٤ وص ١٩ ى ٢ و ...
(٢) تكوين ١٨ ى ٤ وانجيل لوقا ٧ ى ٤٤ .
(٣) عاموس ٦ ى ٦ ولوقا ٧ ى ٤٦ .
(٤) صموئيل الثانى ١٤ ى ٢ .
(٥) مزمور ١٣٣ ى ٢ .
(٦) حزقيال ١٦ ى ٩ .
(٧) لوقا ٧ ى ٤٦ ويوحنا ١٢ ى ٣
(٨) مزمور ٩٢ ى ١١ وتثنية ٢٨ ى ٤٠ وميخا ٦ ى ١٥ .
(٩) الملوك الأول ١٠ ى ١٠ وحزقيال ٢٧ ى ٢٢ وقارن الخروج ٣٠ ى ٢٢ .
(١٠) صموئيل الأول ٨ ى ١٣ .
(١١) خروج ٣٠ ى ٣٥ ونحميا ٣ ى ٨ .
(١٢) نشيد الأناشيد ١ى١٢ وانجيل مرقس ٢٤ ى ٣ .

أما فيما يتعلق بالشعر وتزيينه فالشرق القديم عادة كان يهتم بغزارة شعر الرأس وطول اللحية أما فى مصر الفرعونية فكان الكهنة يحلقون شعر الرأس وربما الأعيان أيضا[١] كذلك الحال عند البابليين أما الاسرائيليون فمن المرجح أنهم كانوا يحلقون الشعر عند الحزن[٢] ولأسباب دينية[٣] حرمته التوراة[٤] أما الكهنة فكانوا يطالبون بعدم حلق الشعر حلقا نهائيا أو تركه ينمو طويلا جداً[٥] أما الذين ينذرون فيجب ألا يمس المقص شعرهم[٦] لكن بعد تقديسهم يقص شعرهم ويلق به فى نار القرابين[٧] ويذكر لنا العهد القديم إن من بين الاسرائيليين من اشتهروا بطول شعرهم مثل ابشالوم[٨] وشمسون[٩] .

أما الاسرائيليات فاعتبرن الشعر الطويل من علامات الجمال[١٠] والصلع من أقبح ما يصيب الاسرائيلية[١١] كما أن كشف شعر رأس الاسرائيلية يعتبر إهانة وإذلالا[١٢] أما العناية بتصفيف الشعر والتفنن فى هذا التصفيف فكان شغل الاسرائيلية الشاغل[١٣] .

وبلغت عناية الاسرائيلية بتصفيف شعرها درجة جعلت بعض

---

(١) تكوين ٤١ ى ١٤ .
(٢) عاموس ٨ ى ١٠ وميخا ١ ى ١٦ وأشعيا ٣ ى ٢٤ وأرميا ١٦ ى ٦ وحزقيال ٧ ى ١٨ .
(٣) تثنية ١٤ ى ١
(٤) لاويون ١٩ ى ٢٦ .
(٥) حزقيال ٤٤ ى ٢٠ .
(٦) صموئيل الأول ١ ى ١١ .
(٧) العدد ٦ ى ١٨ .
(٨) صموئيل الثانى ١٤ ى ٢٦ .
(٩) قضاة ١٦ ى ١٣ .
(١٠) نشيد الأناشيد ٤ ى ١ وص ٧ ى ٦ .
(١١) أشعيا ٣ ى ٢٤ .
(١٢) العدد ٥ ى ١٨ وقارن أيضا لوقا ٧ ى ٣٨ و ٤٤ .
(١٣) الملوك الثانى ٩ ى ٣٠ .

الأنبياء يهاجمونها ويرمونها بأقبح السباب[1] ويذكر المؤرخ اليهودى يوسيفوس أن الاسرائيلية كانت تستخدم التبر فى تسريح شعرها لكى يكسبه لونا براقا جميلا[2] .

وفيما يتعلق باللحية فالاسرائيلى كان يعنى بلحيته وويل لمن يقصها[3] وقص اللحية كان يقع لأسرى الحرب فقط[4] وكان الإسرائيلى يحلق ذقنه فى حالة الحزن أو عند الإذلال[5] .

وكانت الإسرائيلية تعنى عناية شديدة بوسائل التجميل فمن معاجين إلى مساحيق من الاثمد واللازورد والكحل[6] (فوك) .
أما المرود فكان عادة من أجود أنواع الخشب أو السن أو الذهب .

حتى الوشم استخدمه الاسرائيلى والاسرائيلية أحيانا ولو أن بعض رجال الدين حاربوه[7] .

---

(١) أشعيا ٣ ى ٢٤ .
(٢) راجع يوسيفوس : التاريخ اليهودى القديم الكتاب الثامن الفصل السابع الفصلة الثالثة .
(٣) صموئيل الثانى ١٠ ى ٤ — ٥ .
(٤) أشعيا ٧ ى ٢٠ وفى مصر حتى اليوم يهدد الرجل بحلق ذقنه إذا فشل فى مهمة ما .
(٥) أشعيا ١٥ ى ٢ وارميا ٤١ ى ٥ وص ٤٨ ى ٣٧ .
(٦) الملوك الثانى ٩ ى ٣٠ وارميا ٤ ى ٣٠ وحزقيال ٢٣ ى ٤٠ وأيوب ٤٢ ى ١٤ .
(٧) لاويون ١٩ ى ٢٨ .

المسكن

إن مسكن البدوى فى جميع العصور هو الخيمة (أوهل) أو (بيت)
وتذكر القصص الإسرائيلية أن أباء الشعب الأولين كانوا يحيون حياة
الخيام[١] . ومازال الاسرائيليون يستخدمون حتى اليوم تعبيرات ترجع
إلى تلك الحياة مثل (نسوع) بمعنى « تحرك واصلا انتزاع وتد الخيمة »
وكذلك (هاlخ لا وهله) أى « عاد أو رجع لخيمته » ولو أنه لا يفكر اليوم
فيها أو فى الحياة فيها[٢] .

ومن التعبيرات المشهورة « إلى خيامك يا اسرائيل[٣] » وكثيراً ما نجد
استخدام لفظ (أوهل = خيمه) فى الاستعارة والتشبيه[٤] وكانت الخيام
تصنع أحيانا من شعر الماعز[٥] حيث يشبه الخيمة بخيام قيدر . وهذا
يذكرنا بالتسمية العربية « بيت الوبر وبيت الشعر » والخيمة تنقسم عادة
إلى قسمين قسم خاص بالرجال وآخر بالحريم ويطلق عليه « حدر[٦] »
لكن الأغنياء من الاسرائيليين كانوا يخصصون للحريم خيمة خاصة
بهن[٧]. وخيام القبيلة تنتشر عادة فى شكل مجموعات غير منسقة. لكن فى حالة
تهديد القبيلة بغزو تتجمع الخيام معا وغالبا ما تقام على شكل هلال . وتمتاز
خيمة شيخ القبيلة عادة بكبرها فقط .

---

(١) تكوين ١٣ ى ٣ وس ١٨ ى ١ وس ٢٦ ى ٢٥ وس ٣٢ ى ١٩ :
(٢) يشوع ٢٢ ى ٤ والقضاة ٧ ى ٨ وس ١٩ ى ١ والملوك الأول ١٢ ى ١٦ :
(٣) صموئيل الثانى ٢٠ ى ١ والملوك الأول ١٢ ى ١٦ .
(٤) أشعيا ٣٣ ى ٢٠ وس ٣٨ ى ١٢ وأرميا ١٠ ى ٢٠ وعزرا ٩ ى ٨ وأيوب ٤ ى ٢١ .
(٥) نشيد الأناشيد ١ ى ٥ .
(٦) النشيد ١ ى ٤ وس ٣ ى ٤ والقضاة ١٥ ى ١ .
(٧) تكوين ٢٤ ى ٦٧ وس ٣١ ى ٣٣ .

أما أثاث الخيمة فبسيط جداً فهى تحتوى عادة على عدد من الفراء المفروشة وبعض الوسائد وأحيانا بعض الأبراش . والموقد عبارة عن حفرة فى الأرض أو حجرين أو أكثر . أما المائدة فقطعة مستديرة من الجلد (شلحان) مبسوطة على الأرض . كما أن تموين القوم كان يحفظ فى جلود الضأن أو الماعز[١] وهناك أيضا الرحى وبعض الاطباق الخشبية أو المعدنية . أما رحل الجمل فأهم محتويات الخيمة . وغير الخيام نجد أيضاً المظال (سكوت) وهى أماكن للراحة فقط ، للقطعان والرعاة[٢] .

وغير الخيام سكن الاسرائيليون أيضاً الكهوف ومن ثم اتخذوا منها ملجأ يفزعون اليها خوفا من العدو[٣] .

البيت وأثاثه

عن الكنعانيين أخذ الاسرائيليون فكرة البيت وبنائه ومن السهل حتى اليوم مشاهدة أثر البيئة فى تشييد المنازل فالإنسان فى فلسطين ليس فى حاجة إلى مايقيه البرد القارص الطويل الأمد بل إلى سقف يحفظه من الشمس وضرباتها طوال العام وأحيانا يحفظه من بعض الأمطار التى قد تزور البلاد وفى فصل الشتاء القصير . فالبيت يجب أن يكفل لسكانه جواً مقبولا ملطفا للحرارة مع سهولة التهوية لذلك كانت فلسطين منذ القدم بلداً للأبنية السميكة ذات القباب القوية لتحفظ للبيت جوه الداخلى البعيد عن حرارة الشمس القاتلة كما نجد أيضاً الاكواخ الطينية التى تكفى

(١) القضاة ٤ ى ١٩ .
(٢) تكوين ٣٣ ى ١٧ وأشعيا ١ ى ٨ .
(٣) القضاة ٦ ى ٢ وص ١٥ ى ٨ وصموئيل الأول ١٣ ى ٦ وص ١٤ ى ١١ وص ٢٤ ى ٤ .

لحماية سكانها من الأمطار . ولما كان الجو هناك يسمح للقوم بالجلوس فيه وتمضية معظم الوقت ، لم يفكر الاسرائيلى فى إعداد بيته بسائر وسائل الراحة . إن الاسرائيلى يريد من البيت مأوى له ليلا وذلك لأنه يمضى معظم نهاره فى الحقل أو العمل أو الشارع أو السوق . والطبيعة الفلسطينية كريمة بمواد البناء إلا أنها فقيرة فى الخشب مما اضطر سليمان عند تشييد مبانيه إلى استيراده من لبنان[١] .

لذلك كان الاسرائيليون يتجنبون الخشب كثيرا فى مبانيهم ويعتمدون على الطين فقط أو الطوب بنوعيه أعنى الأخضر والمحروق وفى المناطق الجبلية يعتمدون على الاحجار وبخاصة الجيرية منها . أما المنازل فصغيرة لايتجاوز قطاع البيت أربعة أمتار . والمشيدة من الاحجار فغالبا ماتبيض من الداخل وذلك لأن الاسرائيليين عرفوا الجير منذ عصور بعيدة جداً[٢] وكانوا يبيضون به الحيطان[٣] ولو أن معظم البيوت كانت تطلى حيطانها بالطين فقط[٤] . وكثيرا ما استخدم الملك الاحجار المنحوتة فى بناء المعبد والبيت[٥] .

وفى العصور المتأخرة لما أخذ الأغنياء فى تقليد الملك تعرضوا لكثير من النقد[٦] .

والحقيقة الجديرة بالذكر أن الاسرائيليين كانوا يقدمون القرابين البشرية عند الشروع فى بناء مبنى من المبانى فكانوا يأتون بالطفل الحى

---

(١) الملوك الأول ٥ ى ٢٠ .
(٢) عاموس ٢ ى ١ وأشعيا ٣٣ ى ١٢ .
(٣) حزقيال ١٣ ى ١٠ والتثنية ٢٧ ى ٤ .
(٤) لاويون ١٤ ى ٤١ .
(٥) الملوك الأول ٧ ى ٩ .
(٦) عاموس ٥ ى ١١ وقارن أيضا أشعيا ٩ ى ٩ .

ويضعونه فى أناء كبير من الفخار ويدفنونه فى أساس المبنى قربانا وهكذا نفهم الآية الواردة فى الملوك الأول[١] وهذه العادة ومازالت إلى اليوم حية ، مع الاستعاضة عن الإنسان بحيوان ينحر عند وضع الأساس ، فى مصر مثلا .

أما سقف البيت فكان عبارة عن جذوع الشجر والاغصان التى تمدد على الحيطان ومن ثم تغطى بطبقة من الطين سميكة أما المنازل المصنوعة من الحجر فكانت تسقف عن طريق القباب . وكان بيت الاسرائيلى العادى يتكون من غرفة واحدة بينما بيت الغنى من أكثر من غرفة وكان عادة يشيد على سطح البيت مظلة يأوى اليها إذا ما التمس النسيم كما كان يستقبل فيها اخلص الاصدقاء ويعقد فيها الاجتماعات أو يأوى اليها أيام الحزن إذا ما التمس الهدوء والراحة[٢] . ويطلق على هذه المظلة فوق السطح (عليا) ويمتاز بيت الغنى بأنه به عند مدخله غرفة استقبال. بينما فى الداخل غرف الحريم وغرف النوم[٣] كذلك يمتاز هذا البيت أيضاً باحتوائه على غرف للشتاء وأخرى للصيف[٤] ومثل هذه البيوت كانت تحتاج إلى بوابين أو بوابات[٥] . والكثرة المطلقة من البيوت كانت من طابق واحد أما المعابد والقصور فكانت لها أبواب ولكل باب مصرعان أو أكثر[٧] .

---

(١) الملوك الأول ١٦ى ٣٤ .
(٢) صموئيل الثانى ١٩ى ١ .
(٣) صموئيل الثانى ٤ى ٧ قارن للملوك الأول ١٥ .
(٤) عاموس ٣ى ١٥ وأرميا ٣٦ ى ٢٢ .
(٥) صموئيل الثانى ٤ ى ٦ وقارن يوحنا ١٨ ى ١٦ .
(٦) الملوك الأول ٦ ى ٣٤ وس ٧ ى ٥٠ .

وفى سائر البيوت نجد الباب عاديا قليل الارتفاع[١] وهو من خشب أو لوح من الحجر يدور على عقب (صيراه) مثبت فى ثقب (فوثوت) ويقفل الباب بواسطة مرتاج (بريح) ويفتح من الخارج بواسطة مفتاح (مفتيح) . أما من الخلف فيغلق ويقفل بواسطة مترس[٢] هذا مع العلم بأن المرتاج والمفتاح يشبهان ماقد نشاهده أحيانا فى الريف المصرى وكان هـــذا المفتاح من الكبر بحيث ينطبق عليه فعلا التعبير الوارد فى اشعيا[٣] (مفتاح البيت يحمله فرد على كتفه) أما قائما الباب فهما دعامتا (مصبوت) البيت وهما يقابلان العمودين المقدسين بباب المعبد وهما عصادة باب (مزوزه) معبودة البيت وهناك يضع الإنسان الطلاسم لطرد الشياطين[٤] أيام عبادة يهوه وقد حلت محلها بعد ذلك بعض آيات التوراة[٥] والإنسان يدهن المزوزة بدم عيد الفصح[٦] ، وتحت عتبة الباب يدفن قربان الاساس[٧] .

أرضية البيت : تدك وتغطى عادة بطبقة من الطين . أما النوافذ (حلونوت) فقليلة جدا وهى تطل على فناء البيت وعلى الشارع أيضا لذلك نجدها مصانة بقطع خشبية[٨] .

---

(١) الأمثال ١٧ ى ١٩ .
(٢) أمثال ٢٦ ى ١٤ والملوك الأول ٧ ى ٥٠ .
(٣) أشعيا ٢٢ ى ٢٢ .
(٤) أشعيا ٥٧ ى ٨ .
(٥) تثنية ٦ ى ٩ .
(٦) خروج ١٢ ى ٧ .
(٧) صموئيل الأول ٥ ى ٥ .
(٨) قضاة ٥ ى ٢٨ والملوك الأول ٦ ى ٤ والأمثال ٧ ى ٦ .

وفضلا عن الحجارة المنحوتة التى استخدمها الأغنياء فى بناء بيوتهم فإنهم كانوا يدهنونها من الداخل بالمغره[١] (لون قرمزى) (ششر) كما استعاضوا عن خشب الجميز الذى كانت تصنع منه العامة الأبواب والنوافذ بخشب الزيتون[٢] أو خشب الارز الذى كانوا يبطنون به أيضاً الحيطان[٣] . وذهب الثراء بعيدا فكان الأغنياء يطعمون هذا الخشب والأبواب والشبابيك بالسن[٤] كما بالغوا فى الزخرفة حتى غطوا الخشب بصفائح من الذهب[٥] وأحيانا ببعض الرسوم الأخرى[٦] .

أما أرضية البيت فكانت تغطى بألواح من خشب الارز[٧] هذا إلى جانب السجاد الثمين .

أما الاثاث فيتكون عادة من أربع قطع أساسية[٨] السرير والمائدة والكرسى والفنار . أما السرير كما نفهمه اليوم فلم يعرفه الاسرائيلى اللهم إلا نفر قليل جدا فالاسرائيلى العادى كان يلتف بعباءته ويفترش الأرض أو على قطعة من الفراش[٩] . أما السرير (مطا) أو (عرش) فكان يستخدمه الأغنياء وهو عبارة عن أريكة للجلوس عليها أو النوم[١٠] . أما المائدة

---

(١) لون قرمزى . أرميا ٢٢ ى ١٤ .
(٢) الملوك الأول ١٠ ى ٢٧ وأشعيا ٩ ى ٩ والملوك الأول ٦ ى ٣١ .
(٣) حجاى ١ ى ٤ وأرميا ٢٢ ى ١٤ .
(٤) الملوك الأول ٢٢ ى ٣٩ وعاموس ٣ ى ١٥ .
(٥) الملوك الأول ٦ ى ٢٠ .
(٦) الملوك الأول ٦ ى ١٨ و ٢٩ .
(٧) الملوك الأول ٦ ى ١٥ .
(٨) الملوك الثانى ٤ ى ١٠ .
(٩) خروج ٢٢ ى ٢٥ وتثنية ٢٤ ى ١٣ .
(١٠) صموئيل الأول ٢٨ ى ٢٣ .

فكان القوم يجلسون حولها على الأرض أو على فرش مبسوطة[١] .

وفى عصور متأخرة كان الاسرائيلى الغنى يتناول طعامه مضطجعا[٢] ، كما استخدم السرير المريض يلفظ عليه نفسه الأخير[٣] .

ثم بعد ذلك نجد الديوان مع السرير[٤] وكان من الخشب يقوم على أربع قوائم وعليه غطاء . أما الأغنياء فكانوا يطعمون الخشب بالسن[٥] كما صنعوه من خشب الصنوبر وكانت للسرير ركيزة مغطاة بصفيحة من الذهب كما أن قوائمه مكسوة بالفضة[٦] والوسائد وغيرها من أجود الاقمشة فضلا عن السجاد والأغطية المطرزة المصنوعة من الكتان المصرى[٧] .

أما مائدة الطعام فقد تطورت بعد أن كانت فى ارتفاع الذين يجلسون أرضاً يتناولون طعامهم ارتفعت لتصبح فى متناول أيدى الذين يأكلون وهم جلوس على الكراسى أو مضطجعين على الأسرة[٨] .

والكرسى (كسا) كان قديماً بدون ركيزة أو مسند ومن ثم تطور وأصبح تقليداً لعرش الملك[٩] .

---

(١) حزقيال ٢٣ ى ٤١ وصموئيل الاول ٢٠ ى ٢٥ .
(٢) عاموس ٦ ى ٤ . ١
(٣) تكوين ٤٧ ى ٣١ وس ٤٩ ى ٣٣ وصموئيل الأول ١٩ ى ١٣ . . والملوك الثانى ١ ى ٦ .
(٤) أيوب ٧ ى ١٣ والمزامير ٦ ى ٦ ومزمور ١٣٢ ى ٣ والنشيد ١ ى ١٦ .
(٥) عاموس ٦ ى ٤ .
(٦) النشيد ٣ ى ١٠ .
(٧) حزقيال ١٣ ى ١٨ والأمثال ٧ ى ١٦ والنشيد ٣ ى ١٠ .
(٨) صموئيل الأول ٢٠ ى ٥ والقضاة ١ ى ٧ .
(٩) الملوك الأول ١٠ ى ١٨ .

المنار (نير) كان عبارة عن طبق من الفخار له جزء من حافته يشبه الشفتين يوضع فيه الفتيل . وهناك من الأنواع مايشتمل على اكثر من فتيل قد تبلغ السبعة وهي التي يطلقون عليها (منارة)[1] وكان المصباح يظل منيراً دائما وإذا ما أرادوا التعبير عن شخص قد توفى أو حلت به مصيبة قيل خبا مصباحه[2] .

وهذه العادة تذكرنا بالقول المأثور — ربنا مايطفيله شمعة — .

وإلى جانب ماذكر من أثاث البيت يجب ألا يفوتنا أن نشير إلى الموقد[3] (اح) الذي يستخدم شتاء للتدفئة .

القرى والمدن

لا شك فى أن أهم مدن عرفها الاسرائيليون كنعانية وأقدم مدينة تذكرها المصادر الاسرائيلية هي مدينة « هنوخ »[4] وقد سميت بهذا الاسم لأن مؤسسها هو ، كما تقول الاسطورة ، « هنوخ » بن قابيل . وأشهر هذه المدن الكنعانية ، أورشليم ، واريحا ، وزيشيم ، وحبرون وبيتئيل وغيرها .

وعندما نزل الاسرائيليون غرب الاردن كانت هذه المدن قد بلغت مكانة عظيمة فهى مسورة حصينة تدخل الرعب فى قلوب الاسرائيليين .

---

(١) الملوك الثانى ٤ ى ١٠ .

(٢) الملوك الأول ١١ ى ٣٦ وأرميا ٢٥ ى ١٠ وأيوب ١٨ ى ٦ .

(٣) أرميا ٣٦ ى ٢٢ .

(٤) تكوين ٤ ى ١٧ .

أما القرى المفتوحة المحيطة بهذه المدن فكانت تدفع لأمراء المدن أتاوة . ومن حسن الحظ أنه وصلتنا فى الكتابات المصرية القديمة بعض تقارير النصر التى أحرزها تحتمس الثالث حيث يذكر لنا ١١٨ مدينة كما نجد أيام رمسيس الثانى كذلك عدداً كبيرا من هذه المدن فى رسائل تل العمارنة مثل عكا ، وعسقلون ، وبيروت ، وبيبلوس وغزة ، وأورشليم .

وغير هذه المدن الكنعانية نجد أخرى اسرائيلية الأصل وقد حصنها الملوك الاسرائيليون[١] وأخرى شيدها ملوك مثل العاصمة سماريا التى أمر بتشييدها عمرى[٢] .

ولا يفوتنا ونحن فى صدد الحديث عن المدن وانشائها أن نذكر أسرة هيرودوس التى شيدت بعض المدن مثل قيصرية وطبرية .

وليس معنى هذا أن هذه المدن قامت من العدم بل أنها مدن قديمة أعيد تخطيطها ويفرق العهد القديم بين المدن المسورة وغير المسورة[٣] .

وهناك إسرائيليون يسكنون فى العراء[٤] . ويعتبر الاسرائيلى المدينة أما للقرى المجاورة لها . ففى المدينة القضاء الذى يقيم العدالة ويقتص من الظالم للمظلوم لذلك يدفع سكان المدن المفتوحة والقرى أتاوة للمدينة التى تقيم الحق بينهم وتحميهم وراء أسوارها إذا ما غار عليهم مغير . وهذا الفرق بين القرية

---

(١) يشوع ١٩ ى ٥٠ .
(٢) الملوك الأول ١٦ ى ٢٤ .
(٣) لاويون ٢٥ ى ٣٠ — ٣١ .
(٤) حزقيال ٣٨ ى ١١ .

والمدينة ظل قائما حتى أبان ظهور المسيحية . وفى المشنا نجد التفرقة واضحة بين (عير) أى « مدينة » و (كرخ) و (كفر) علما بأنه من المرجح أن الفرق بين « كرخ » و « عير » ينصرف إلى عدد السكان فقط .

أما تخطيط المدن فكان يراعى فيه أولا توفر المياه وقد وصلتنا أسماء بعض المدن التى تشير صراحة إلى مراعاة هذا المبدأ مثل (عين جدى) و (عين شمس) . كذلك كان يراعى الموقع الحصين ويفضل على غيره مثل « حبرون » والناصرة وأورشليم وسماريا ويزرعئل كما نجد مدنا تدل على المناعة مثل (رامة) و (مصباه) . وإلى جانب ماذكرنا نجد أسماء بدلا من المدينة أو المكان مثل (مجدل=برج) و (عيمق=وادى) و (هار=جبل) و (بئر=بئر) و (جنيم =حديقة) و (بيت لحم=بيت الخبز) .

وهناك نوع ثالث من أسماء المدن أو القرى المستمدة من أسماء السكان مثلا (شمرون) من (شمر) و (حبرون) من (حبر)[1] .

أما النوع الرابع فالمركب أو الدال على أسماء معبودات مثل « شمش » و « رمون » و « ايل » و « بعل » وغيرها . وهناك أسماء مدن لا يمكن فهمها وذلك لأن معلوماتنا اللغوية لا تسكنى فهى ألفاظ ترجع إلى عصور بعيدة جداً فضلا عن التطور العظيم الذى طرأ عليها مع توالى العصور لذلك يجب أن نحتاط من الاشتقاقات الشعبية التى كثيراً مانقرأ عنها أو ـ ددها الأفواه مثال ذلك « أورشليم » .

أما تنظيم المدينة فنكاد ندركه من بعض الحفائر التى تمت فى فلسطين فالبيوت صغيرة متراصة تتكون من طابق واحد وهى أما من الطين أو الحجر العادى وعادة فى سفح تل أو عبارة عن كهوف فى سفح التل .

---

(١) أخبار الأيام الأول ٨ ى ١٧ .

أما فى داخل المدينة فالشوارع ضيقة جدا ملتوية ولا توجد بها ميادين . وعند مدخلها يوجد السوق حيث تقام المحكمة[١] . وتعقد العقود[٢] وتعلن التشريعات والأوامر[٣] .

وهناك عند مدخل المدينة كانت تتدفق جموع السكان للتشاور والتسلية[٤] . كذلك الاغراب كانوا ينامون هناك أو يجدون كريما يرعاهم ويأخذهم إلى داره[٥] .

وامتاز الشرق منذ القدم بأن كل أصحاب حرفة أو مهنة يقطنون فى منطقة خاصة بهم ففى أورشليم مثلا كانت توجد حارة الخبازين[٦] . ووادى النجارين[٧]. وبوابة الصيادين أو السمك وغيرهم[٨]. كما كان هناك شارع الصاغة والعطارين[٩] .

الأسـرة

الأسرة الاسرائيلية وحدة سياسية صغيرة كما أنها تكون جماعة دينية ينوب فيها ربها عنها أمام الله أو معبود القبيلة فالوالد هو الكاهن الذى ينظم العلاقات بين أفراد أسرته والاله كما نتبين هذا من طقوس عيدالفصح[١٠].

---

(١) صموئيل الثانى ١٥ ى ٢ .
(٢) تكوين ٢٣ ى ١٠ وروث ٤ ى ١ .
(٣) الملوك الأول ٢٢ ى ١٠ ونحميا ٨ ى ١ و٣ .
(٤) تكوين ١٩ ى ١ ومزمور ٦٩ ى ١٣ .
(٥) تكوين ١٩ ى ٢ — ٣ والقضاة ١٩ ى ١٥ .
(٦) أرميا ٣٧ ى ٢١ .
(٧) أخبار الأيام الأول ٤ ى ١٤ ونحميا ١١ ى ٣٥ .
(٨) أشعيا ٧ ى ٣ وص ٣٦ ى ٢ .
(٩) نحميا ٣ ى ٣٢ .
(١٠) خروج ١٢ ى ٣ .

والملاحظة الجديرة بالاعتبار اطلاق لفظ « أب » على الكاهن[١] .

وفى العصور التاريخية نجد الأسرة تجتمع بأكملها فى أعياد القرابين[٢] ، وحتى العبيد كانوا يصبحون منها إذا ما شاركوا فى طقوسها[٣] .

والأسرة الاسرائيلية أسرة أبوية أعنى ربها وسيدها هو الوالد لا الوالدة فالوالد هو الذى كان يقرر قيام القرابة أو التبعية أو حق الوراثة كما أننا نتبين من العهد القديم أن الأسرة الاسرائيلية عرفت أيضا نظام الأم إذ نجد نساء مثل « ليا » كانت أما لقبائل روبين وشمعون وليفى ويهوذا وزبولون وايساخر وابنتها « دينا » من يعقوب . وغير « ليا » نجد « راحيل » وهى أم « يوسف » و « بنيامين » ومنهما انحدرت بطون كثيرة . كذلك نجد (بلها) أم قبيلتى « دان » و « نفتالى » و « زلفا » أم « قبيلتى » جاد » و « أشير » . ثم « هاجر » أم الاسماعيليين (العرب الشماليين) وغيرهن . كما نعلل أباحة زواج الأخت وأمرأة الأب وأمرأة الابن[٤] بعدم الاعتراف بصحة النسب إلى الاب مع الجزم بصحة نسبته إلى الأم .

وقد ظل الاعتراف بإثبات صحة النسب عن طريق الأم قوياً تردده الاسفار المقدسة[٥] . كحق الأم فى التبنى[٦] ، ومنح الاسم وكذلك الميراث حسب نسبها[٧] كما جرت العادة أن الأخ لا الأب هو الذى

---

(١) القضاة ١٧ ى ١٠ .
(٢) صموئيل الأول ٢٠ ى ٢٩ .
(٣) تكوين ٢٤ ى ١٢ .
(٤) حزقيال ٢٢ ى ١٠ — ١١ .
(٥) تكوين ٤٢ ى ٣٨ وس ٤٣ ى ٢٩ وس ٤٤ ى ٢٠
(٦) تكوين ٣٠ ى ٣ .
(٧) تكوين ٢١ ى ١٠ .

يزوج ابنته فكل هذه الظواهر وغيرها دليل على أن الأسرة الاسرائيلية مرت بطور سيادة الأم وهيمنتها عليها . ومن هنا نفهم معنى المثل الوارد في سفر التكوين[1] .

والأسرة الاسرائيلية في مختلف عصورها قديما وحديثا أسرة تقوم على تعدد الزوجات وهى فى هذه الظاهرة تختلف عن الاسرة البابلية التى كانت منذ عصر حمورابى (حوالى ٢٢٥٠ ق . م) . لا تعترف به . ولو أن شريعة حمورابى تبيح فى حالات قليلة جدا تعدد الزوجات وحتى فى هذه الحالات لاتساوى الشريعة البابلية بين سيدة البيت والأخرى بخلاف الحال فى الاسرة الاسرائيلية حيث تتساوى جميع الزوجات ، وعددهن يتفاوت قلة وكثرة حسب ثروة الزوج ومكانته ولو أن علماء التلمود يحددون للرجل أربع زوجات فقط وللملك ثمانى عشرة زوجة كما أن قانون الملوك يمنعهم من المبالغة فى اقتناء الزوجات[2] . وقد استغل الاسرائيلى هذا الحق فبالغ فيه[3] . أما الرجل الفقير فكان يقنع بامرأتين .

ولا شك فى أن هذا الوضع فى الاسرة الاسرائيلية سبب كثيرا من المشاكل فالمنافسة شديدة جدا بين الزوجة التى تلد والعاقر[4] .

وفى عصور متأخرة نجد الشريعة الاسرائيلية تسن قانونا يحمى الزوجة المكروهة[5] .

---

(١) تكوين ٢ ى ٢٤ .

(٢) تثنية ١٧ ى ١٧ .

(٣) القضاة ٨ ى ٣٠ وس ٩ ى ٢ وصموئيل الثانى ٥ ى ١٣ .

(٤) صموئيل الأول ١ ى ٦ ... وتكوين ١٦ ى ٤ وس ٣٠ .

(٥) تثنية ٢١ ى ١٥ — ١٧ .

كذلك حرم الجمع بين الاختين كما جرت العادة من قبل تجنبا للغيرة . ولم يقنع الاسرائيلى بزوجاته بل كان حرا فى علاقاته الجنسية الخارجية . أما إذا اضطجع مع زوجة آخر فهنا يعتبر هـــذا التصرف عدوانا على حقوق زوجاته الشرعية . وبينما نجد الاسرائيلى يتمتع بحقوق كثيرة فيما يتصل بالناحية الجنسية إذ بالشريعة تقسو كثيرا على المرأة[١] فالمرأة الزانية ترجم[٢] .

النـكاح

النكاح يتم بدفع العريس المهر لعروسه أو بدفع جزء منه . فالزواج الاسرائيلى زواج شراء . وارتكاب الفاحشة مع العروس يعاقب عليه القانون كما لو أنه ارتـكب مع زوجة رجل آخر[٣] .

أما اغراء العذراء فيعتبر وكأنه اضرار بملـكية والد الفتاة[٤] يعوض عنه بما يقابل مهر الفتاة لو زوجت . أما المهر فلم يرد فى الشريعة الاسرائيلية ما يحدده ولـكن يظهر أنه لم يختلف عما جاء فى شريعة حمورابى . وفى حالات كثيرة نجـد العريس يؤدى خدمة لوالد العروس نظير المهر هكذا فعل يعقوب وموسى وغيرهما وكان الرجل يعير إذا ما استغل مهر ابنته لنفسه[٥] .

أما اختيار العروس فكان من عمل والد العريس أو رئيس العائلة[٦] . وكان يستقبح أن يختار الابن عروسه[٧] . وموافقة الفتاة لم تـكن

(١) تثنية ٢٢ ى ٢١ .
(٢) تثنية ٢٢ ى ٢٢ وحزقيال ١٦ ى ٤٠ وانجيل يوحنا ٨ ى ٥ .
(٣) تثنية ٢٢ ى ٢٣ .
(٤) خروج ٢٢ ى ١٥ .
(٥) تـكوين ٣١ ى ١٥ .
(٦) تـكوين ٢٤ ى ٢ ... وس ٣٨ ى ٦ .
(٧) تـكوين ٢٦ ى ٣٤ — ٣٥ وس ٢٧ ى ٤٦ .

ضرورية ، وفيما يتصل بتقدير المهر فهذا من عمل أعضاء الاسرتين[١] .
كما أنه كان يحدث أحيانا أن الوالدين يسألان الفتاة رأيها فى عريسها[٢] .
كما حدث أن (عيساو) خالف أهله واقترن بنساء أجنبيات عن قبيلته[٣] والواقع
أن اللقاء بين الشاب والفتاة لم يكن صعبا كما هو الحال فى بعض
الأوساط الشرقية[٤] . فعند النبع كثيرا ما التقى الجنسان وقدم كل للاخر
مساعدته كما تبادلا الرأى فى كثير من المسائل التى تهم الطرفين[٥] .

وهذ الاجتماعات لم تكن بريئة دائما[٦] . بالرغم من حماية القانون
الاخلاق[٧] .

وكانت العادة عند الاسرائيليين أن الزواج يتم بين أفراد القبيلة
الواحدة ، وهذا النكاح أفضل بكثير من ذلك الذى يتم بين عشيرتين
مختلفتين[٨] . لذلك كثيرا ما تم النكاح بين الأقارب فمثلا موسى ولد لقريبين
كذلك الحال مع اسحق وريبيكه ويعقوب وراحيل . . .

حفلات الزفاف : لم تصلنا معلومات هامة حول حفلات الزفاف
ولعل السبب فى هذا أن عقد القران كان عملا مدنيا خالصا لذلك كان الزفاف
أيضا مدنيا لا صلة للدين به . وكل ما فى الأمر هو انتقال العروس إلى
دار الزوجية حيث تنتقل من أسرتها إلى أسرة الزوج فكانت تتحلى

---

(١) تكوين ٢٤ ى ٥٠ وس ٣٤ ى ١٢ .
(٢) تكوين ٢٤ ى ٥٨ وصموئيل الأول ١٨ ى ٢٠ .
(٣) تكوين ٢٦ ى ٣٤ — ٣٥ .
(٤) القضاة ١٤ ى ١ ... وصموئيل الأول ٩ ى ١١ .
(٥) تكوين ٢٤ ى ١٥ وس ٢٩ ى ١٠ .
(٦) خروج ٢ ى ١٦ .
(٧) خروج ٢٢ ى ١٥ وتثنية ٢٢ ى ٢٣ .
(٨) تكوين ٢٩ ى ١٩ والقضاة ١٤ ى ٣ .

بحلى الزفاف[١] ويرافقها أقارب العريس وأهله[٢] إذ كانت العادة أن العريس يتوجه إلى دار العروس ويرافقها مساء إلى داره وخلفهما جمهور المهنئين يهللون ويصيحون ويحيون العروس فى زينتها[٣] كما ترافق العروس صويحباتها[٤] ويسير الموكب حتى بيت الزوجية[٥] ومن حسن الحظ أنه وصلتنا مجموعة من أغانى الزفاف فى نشيد الأناشيد . وحتى أن تصل العروس إلى دار الزوجية كانت تحتفظ بالحجاب[٦] وفى دار العريس كانت الحفلة الكبرى حيث تستمر حوالى سبعة أيام أو أربعة عشر يوما[٧] وقد يحدث ان الرجل يتزوج فى بيت العروس كما فعل يعقوب[٨] وكذلك شمشون[٩] كما أن حفلة الزفاف تتم فى بيت العروس لا العريس[١٠] وكما هو الحال اليوم فى الشرق كذلك قديما كان المرء حريصا على البكارة[١١] ولما كان الرجل هو مشترى المرأة ودافع ثمنها أصبح من حقه التخلص منها عن طريق الطلاق وذلك بقوله « ليست زوجتى ولست زوجها »[١٢] وهنا تتفق الاسرائيلية مع البابلية، وكذلك الطلاق فى الإسلام ، كما جرت العادة أن يحرر الزوج خطابا بهذا إلى زوجته التى يريد أن يطلقها[١٣] . ولما كان

---

(١) أشعيا ٦١ ى ١١ .

(٢) القضاة ١٤ ى ١١ ومتى ٩ ى ١٩ .

(٣) أشعيا ٤٩ ى ١٨ وأرميا ٢ ى ٣٢ .

(٤) مزمور ٤٥ ى ١٥ .

(٥) أرميا ٧ ى ٣٤ وس ١٦ ى ٩ .

(٦) تكوين ٢٩ ى ٢٥ .

(٧) تكوين ٢٩ ى ٢٧ والقضاة ١٤ ى ١٢ .

(٨) تكوين ٣١ ى ٣٦١ .

(٩) تكوين ١٤ ى ١٠ .

(١٠) تكوين ٢٩ ى ٢٢ والقضاة ١٤ ى ١٠ .

(١١) تثنية ٢٢ ى ١٣ .

(١٢) هو شيع ٢ ى ٤ .

(١٣) أشعيا ٥٠ ى ١ وأرميا ٣ ى ٨ .

الزوج يتنازل عن المهر الذى دفعه فإن صدور الطلاق منه إنما هو تنازل عن حق له وهذا التنازل ليس فيه إهانة للزوجة أو أهلها والمرأة تعود ثانية إلى أهلها وقد تتزوج مرة أخرى وفى هذا الاجراء لا سبة ولا عار ولا إهانة تلحق بالزوجة . ومن ثم نجد الشريعة الاسرائيلية تحرم على الرجل الذى طلق امرأته أن يستردها ثانية[1] أما المرأة فلم يكن من حقها طلب الطلاق من الرجل إلا فى حالة بغضها الشديد له مما يضطره إلى طردها . ويحدثنا التاريخ أن « سالومى » ابنة (هيرودس) أرسلت وثيقة طلاق إلى زوجها (كوستاباروس Kostabarus) لكن مثل هذه الحالة تعتبر غريبة وليست إسرائيلية . ومن الجدير بالملاحظة أن شريعة حمورابى كانت تبيح للزوجة تطليق زوجها إذا ما اعتدى على حقوقها الزوجية أو لم يقم بها .

أن الرجل هو بعل المرأة أى رب الأسرة وهى ملك الرجل الذى اشتراها ومن حق الرجل أن يطلقها فى أى وقت أو يقترن بغيرها بينما المرأة لا تستطيع أن تهجر بيت الزوجية وهى مطالبة بالاخلاص للرجل وليس لها حق وراثته .

وبالرغم من ذلك فمكانة المرأة الاسرائيلية تختلف عن مكانة الأمة وذلك لأن حق الرجل لا ينصرف إلى المرأة ذاتها ، إلى شخصية المرأة بل حقه ينصرف إلى حيازتها لكى تضع له أطفالا كما أن الرجل لا يستطيع أن يبيع امرأته كما يبيع امته مثلا أو ابنته ، وليس للرجل الحق فى بيع امته أو سبية الحرب إذا ما اتخذها سرية له[2] . إلا أن المرأة ملزمة بالذهاب مع زوجها والعمل معه كعبدين سدادا لدين ، وذلك لمدة

---

(١) تثنية ٢٤ ى ١ — ٤ .

(٢) تثنية ٢١ ى ١٤ .

ست سنوات[١] كذلك للمرأة الاسرائيلية الحق فى الملكية وملكية أشياء خاصة وهى تأتى إلى بيت الزوجية ومعها المنحة التى قد تمنحها لها أسرتها[٢] لكن ليس من حقها أن تتنازل عما جاءت به من ملابس أو حلى إلى أقاربها لأنها تكون جزءا من الاتفاق وذلك لأن جزءا من المهر قد يستخدم لشراء هذه الأشياء وكذلك فمعظم ما قد تأتى به العروس إلى بيت الزوجية عبارة عن أمة أو اماء[٣] . وهذا لا يعتبر هدية ينال منها الزوج أو الاسرة عامة نصيبا حسب الشريعة الرومانية بل تظل ملكا خاصا بالزوجة . كما أن الجوارى بعيدات عن سلطان الزوج[٤] وهن خاضعات لسيادة الزوجة .

والمرأة الاسرائيلية لم يكن مركزها سيئا كما نتصوره فكونها ملك للرجل[٥] ليس نقيصة وذلك لأنها قبل الزواج كانت ملكا لأبيها وكان له الحق فى بيعها فتصبح أمة . والطاعة العمياء لسيد البيت كانت مفروضة أيضا على الأطفال وأخيرا فلها فى أهلها وأقاربها درع يقيها العاديات .

وعلى كل حال فمكانة المرأة من الشعب كانت قاسية حقا وذلك لأنها كانت تقوم بأشق الأعمال وأتعبها فى البيت وخارجه فهى التى تجلب الماء إلى البيت وهى التى تطحن الحبوب وتخبز الخبز وسائر أعمال المنزل وعلاوة على ذلك كانت تقوم بأعمال الحقل وترعى الماشية .

---

(١) خروج ٢٢ ى ٢ — ٣ ولاويون ٢٥ ى ٣٩ و٤٧ .
(٢) يشوع ١٥ ى ١٦ والقضاة ١ ى ١٢ .
(٣) تكوين ١٦ ى ١ ـ ٢ وس ٢٤ ى ٥٩ وس ٢٩ ى ٢٤ .
(٤) تكوين ١٦ ى ٢٦ وس ٣٠ ى ٤ و٩ .
(٥) تكوين ١٦ ى ٦ ـ ٧

الأرملة

كان مركزها سيئا جدا فهى تورث مع سائر أمتعة المتوفى ونجد أحيانا مثل (روبين) الذى أراد أن يرث والده ابان حياته[1] كذلك أبشالوم الثائر يريد أن يعبر لشعبه على أنه وريث والده وخليفته باستيلائه على حريمه[2] كما نجد (ابنير) يغتصب سرية شاءول وهى « رصفه » وهى فى الواقع من حق أيشبوشث[3] كذلك نجد أدونيا يطالب يد « ابيشج » فيحصل على جزء من ميراث داود[4] . فالبرغم من تحريم التثنية الزواج من امرأة الأب فإن كثيرين الذين تزوجوا من نساء آبائهم[5] . وعلى كل فالأرملة كانت مضطربة بعد وفاة بعلها لأنها لا تعرف عما إذا كان أحد الورثة سيعولها أم لا ولو أنه كان من حقها العودة إلى أهلها إذا كان والدها حيا ولا يمانع فيها ، كذلك كان لها الحق فى الزواج ثانية[6] . علما بأن جميع هذه التشريعات تكاد تكون مقتبسة من شريعة حمورابى .

الأطفال

الأطفال منحة من الله لذلك نجد أن أمنية الاسرائيلية الأطفال[7] وبالرفاء والبنين خير دعوة عند الزفاف[8] وعدم الحمل عقوبة من الله[9] والمرأة تبلغ المكانة المرموقة فى الأسرة عندما تنجب أطفالا[10] والرجل

---

(١) تكوين ٣٥ ى ٢٢ .
(٢) صموئيل الثانى ١٦ ى ٢٠ .
(٣) صموئيل الثانى ٣ ى ٧ .
(٤) الملوك الأول ٢ ى ٢٢ .
(٥) حزقيال ٢٢ ى ١٠ .
(٦) تثنية ١٠ ى ١٨ وص ٢٤ ى ١٧ وقارن أرميا ٧ ى ٦ .
(٧) تكوين ٣٠ ى ١ .
(٨) تكوين ٢٤ ى ٦٠ .
(٩) صموئيل الأول ١ ى ٥ .
(١٠) تكوين ١٦ ى ٤ صموئيل الأول ١ ى ٦ — ٧ .

أن يتزوج امرأة ثانية إذا لم تنجب له زوجته أطفالا وكانت أحيانا تقدم له جاريتها فأطفالها سينسبون إليها وبذلك تتخلص من عار العقم . وإذا حدث وتوفى رجل دون أن ينجب تقدم أحد أقاربه وتزوج أرملته لأن هذه العمل يعتبر مقدسا وإذا أنجب منها أطفالا نسب الابن الأول للمتوفى[١] .

أما مشكلة الأطفال الشرعيين وغير الشرعيين فلا نكاد نجدها فى الشرق قديما أو حديثا طالما نظام تعدد الزوجات قائم ، وذلك لأن جميع الأطفال هم أبناء سيد البيت أو الوالد وجميعهم لهم الحق فى الميراث[٢] فشرعية الطفل تتوقف على الوالد لا على الأم فالوالدة مهما كانت لا دخل لها فى شرعية الطفل وعدم شرعيته .

والمجتمع الإسرائيلى يفرق بين الولد والبنت وذلك بحكم الواقع فالولد يحافظ على جنس الأب بينما البنت بحكم الزواج تنتقل إلى أسرة أخرى فالولد هو الذى يحافظ على تقاليد الأسرة وعاداتها وعقيدتها بينما البنت غير قادرة على القيام بها والفتى لا يباع بينما الفتاة تباع عند الزواج ومن هنا نتبين تمييز الولد فى الميراث فالولد فقط هو الذى يرث والده وليست الأرملة أو البنت . وبين الأولاد يمتاز البكر عن الآخرين فهو يرث ضعف الآخر من أخوته[٣] كما منحه المجتمع تمثيل الأسرة فى المسائل الخاصة والعامة[٤] وذلك باعتبار أنه الابن الذى يلى الوالد مباشرة فى رئاسة الأسرة فكان الابن البكر يتمتع بمكانة ممتازة بين أفراد الأسرة حتى أبانه

---

(١) تكوين ٣٨ ى ١٣ ...
(٢) تكوين ٢١ ى ١٠ .
(٣) تثنية ٢١ ى ١٧ .
(٤) تكوين ٢٤ ى ٥٠ .

حياة والده[١] كما يرجح أنه كان المسئول عن أخوته بعد وفاة والده وبخاصة النساء منهم ولعل هذا التكريم للابن البكر يتصل بالعقيدة الدينية وطقوسها[٢] .

وضع الأطفال فى المجتمع الاسرائيلى كان يتطلب المولدات[٣] . أما الجارية فكانت تضع مولودها فى حجر سيدتها حتى ينسب الطفل إليها[٤]. وبمجرد أن يرى الوليد النور يوضع فى ماء به ملح ويدلك بالماء ويغسل جسده شأن الاسرائيليين فى هذه العادة شأن البدو حتى يومنا هذا ثم بعد ذلك يلف الوليد فى القماش[٥] أما تربيته فكانت تتولاها عادة الأم[٦] وفى حالات نادرة تستعين الأم بمربية وأن اعتاد الأغنياء الاسرائيليون الاستعانة بالمربيات[٧] . أما الفطام فكان يحتفل به احتفالا مناسبا[٨] .

أما تسمية الوليد فكانت تتم عقب ولادته مباشرة وكانت الأم غالبا ماتختار الاسم[٩] كذلك كان الوالد أحيانا هو الذى يختار الاسم[١٠] وفى عصور متأخرة كان الوليد بعد تسميته بأسبوع يختن وهذه الظاهرة كانت شائعة حتى فى العهد المسيحى[١١] .

---

(١) تكوين ٣٧ ى ٢٢ .
(٢) خروج ٢٢ ى ٢٨ — ٢٩ .
(٣) تكوين ٣٥ ى ١٧ وص ٣٨ ى ٢٨ .
(٤) تكوين ٣٠ ى ٣ .
(٥) حزقيال ١٦ ى ٤ .
(٦) تكوين ٢١ ى ٧ وصموئيل الأول ١ ى ٢١ .
(٧) صموئيل الثانى ٤ ى ٤ وللملوك الثانى ١١ ى ٢ .
(٨) صموئيل الأول ١ ى ٢٤ وتكوين ٢١ ى ٨ .
(٩) تكوين ٤ ى ١ وص ١٩ ى ٣٧ .
(١٠) تكوين ١٦ ى ١٥ .
(١١) لوقا ١ ى ٥٧ .

والأسماء العبرية هي أسماء أشخاص وليست أسماء بطون أو قبائل وأن اشترك أكثر من واحد في اسم فرق بين المشتركين بذكر اسم الوالد[١] أما دلالة الاسم فقد لا نفهمها الآن كما لا يفهمها كثيرون ومن هنا نشأت حولها القصص والأساطير لتعليلها مثلا أبناء يعقوب[٢] كذلك أسماء الآباء الأولين[٣] وأحيانا يسمى الطفل باسم عاهة بجسمه مثل (فاسيح) أى الإعرج[٤] و (قاريح) أى الأقرع وهلما جرا كما أننا نجد كثيرين يسمون بأسماء حيوانات مثل (ليا : بقرة برية) و (راحيل : شاة) و (يونا : حمامة) و (دبورا نحلة) و . . . ثم نجد الأسماء الدينية أعنى المشتملة على اسم معبود من المعبودات أو نبي من الأنبياء مثل ميكائيل ، جبرائيل ، حزقئيل ، يزرعئيل ، وإبيملك وأحيانا مختصرة مثل «يوسف» من «يوسفئل» .

وسلطان الأب على أولاده كان مطلقا فله أن يقتله إذا ما ارتكب أثما أو أهان والديه[٥] وفي العصور المتأخرة نجد تنفيذ حكم الإعدام ينتقل إلى الهيئة القضائية[٦] ولو أن المحكمة كانت تنفذ فقط ما كان الوالد يقوم به . والوالد له مطلق السلطان على ابنته أيضا فهو الذى يزوجها لمن يشاء أو يبيعها بيع الرقيق لكن ليس لأجنبي[٧] .

أما تعليم الأطفال فلا نجد في العهد القديم ما يشير إلى وجود مدارس ولو أننا نرجح أن المعابد كانت تستخدم لتعليم الأطفال التعاليم الدينية تنفيذاً لتعاليم التثنية التي تحض على العلم واكتسابه وفي العهد المسيحي

---

(١) صموئيل الأول ٢٢ ى ٩ وص ٢٣ ى ٦ .
(٢) تكوين ٢٩ ى ٣٢ وص ٣٠ ى ٣٤ .
(٣) تكوين ١٧ ى ٢١ و ٢٥ .
(٤) نحميا ٣ ى ٦ .
(٥) خروج ٢١ ى ١٥ و١٧ .
(٦) لاويون ٢٠ ى ٩ والأمثال ٢٠ ى ٢٠ وتث ١٥ ى ٤ .
(٧) خروج ٢١ ى ٧ — ٨ .

نجد المدارس (بيت همدراش) وفى أورشليم كان التعليم فى المعابد أيضا[١] .

الرقيق

ويتبع الأسرة الإسرائيلية الرقيق أيضا والتقاليد الإسرائيلية تحمى الرقيق من استبداد رب الأسرة فمكانة الرقيق كمكانة الأطفال تماما إذ كانوا أيضا يخضعون لسلطان والدهم خضوعا تاما . والرقيق كانوا غالبا من الأجانب وهم عادة أسرى حرب[٢] إلا أن الإسرائيليين كانوا عادة يشترون عبيدهم وكان السيد يتزوج أحيانا جارية أو أكثر من جواريه[٣] وكان القانون يحمى الرقيق من استبداد سادتهم فكان يحرم قتلهم بخلاف الأولاد فقد كان لوالدهم حق قتلهم . لكن إذا مضى يوم على الأقل بين ضرب السيد لعبده وبين وفاته فليس على السيد ذنب وكفاه عقوبة فقدانه العبد[٤] لكن إذا أصيب العبد من جراء ذلك بعاهة مستديمة وجب على سيده عتقه[٥] إما قتل أو إصابة عبد شخص آخر فيعتبر وكأنه إلحاق ضرر بملكية آخر وعليه فالمعتدى يجب عليه دفع تعويض للسيد الآخر[٦] ومنعا من استغلال العبد فى العمل حماه القانون عن طريق تقديس (السبت)[٧] وبالرغم من أن بعض العبيد كانوا يفرون من سادتهم[٨] إلا أن إعادة العبد إلى سيده تتوقف على رضاء المدينة التى لجأ إليها العبد والقانون لا يجبر أحدا على إعادته[٩] .

---

(١) لوقا ٢ ى ٤٦ .
(٢) صموئيل الأول ٣٠ ى ٣ والملوك الأول ٢٠ ى ٣٩ — ٤٠ .
(٣) تكوين ١٧ ى ١٣ .
(٤) خروج ٢١ ى ٢٠ .
(٥) خروج ٢١ ى ٢٦ .
(٦) خروج ٢١ ى ٢٠ .
(٧) خروج ٢٠ ى ١٠ وص ٢٣ ى ١٢ وتثنية ٥ ى ١٢ .
(٨) تكوين ١٦ ى ٦ وصموئيل الأول ٢٥ ى ١٠ .
(٩) تثنية ٢٣ ى ١٦ والملوك الأول ٢ ى ٣٩ — ٤٠ .

وأكثر من هذا فالعبيد كانوا وكأنهم أعضاء فى الأسرة الإسرائيلية التابعين لها فقد كانوا يحضرون ولائمها ويسألون رأيهم[١] وكان العبد يقترن بابنة سيده[٢] وإذا لم ينجب سيده ولدا كان العبد يرثه[٣] وكان كأحد أفراد الأسرة يخضع لطقوسها الدينية فيختتن[٤] كما أن حسن معاملة العبد وعدم ظلمه عبادة وتدين[٥] . والرق فى اسرائيل كان شائعا حتى أن من حق الوالد بيع أولاده[٦] وكان الإسرائيلى الفقير يفضل أن يعيش وأسرته عبيدا فى كنف ثرى[٧] . كما أن المجتمع الإسرائيلى كان ينظر إلى الاسرائيلى العاجز عن سداد دينه نظرته إلى اللص الذى لايستطيع تعويض المسروقات التى سرقها . .

أما مدة استرقاق الاسرائيلى فلا تتجاوز ست سنوات وفى السابعة تفك رقبته[٨] وإن كانت زوجته معه فتحرر أيضا معه[٩] وهناك حالات نتبين منها كيف أن الرقيق الاسرائيلى كان يفضل البقاء فى الرق عند سيده على العتق[١٠] وهذه الحالات تحدث أحيانا إذا ما زوج السيد عبده وأنجبت له امرأته أطفالا ففى هذه الحالة يجب على المرأة والأطفال أن يبقوا فى منزل السيد لذلك يفضل العبد البقاء فى أسرته فاضطربت المدة المحددة لبقاء العبد فى بيت سيده[١١] .

---

(١) صموئيل الأول ٩ ى ٦ وص ٢٥ ى ١٤ .
(٢) أخبار الأيام الأول ٢ ى ٣٤ – ٣٥ .
(٣) تكوين ١٥ ى ٢ .
(٤) تكوين ١٧ ى ١٢ .
(٥) أيوب ٣٠ ى ١٣ وأمثال ٣٠ ى ١٠ .
(٦) خروج ٣١ ى ٧ .
(٧) لاويون ٢٥ ى ٣٩ و٤٧ .
(٨) خروج ٢١ ى ٢ .
(٩) خروج ٢١ ى ٣ .
(١٠) خروج ٢١ ى ٥ – ٦ وتثنية ١٥ ى ٦ – ٧ .
(١١) أرميا ٣٤ ى ٨ – ١٧ .

هذا فيما يتصل بالعبد الذكر أما الأنثى فكانت غالبا سرية السيد لأن جسدها أيضا ملك له والجارية لا تجد عيبا فى هذا فابنة السيد تباع لزوجها أو لغير زوجها[١] . لكن إذا كانت الجارية ملكا للزوجة فإن السيد لا يستطيع الاقتراب منها إلا بموافقتها . وإذا تسرى الرجل جارية اسرائيلية أو غير اسرائيلية يجب عليه أن يعاشرها عشرة الأزواج ويتكفل بكل حاجاتها كما أن الجارية لا حق لها فى التحرر منه بعد سبع سنوات . وإذا رفض السيد تسرى الجارية الإسرائيلية أو تمكينها من انجاب أطفال فله حق بيعها إلى آخر يتسراها[٢] وما يطبق على الاسرائيلية يطبق أيضا على الجارية أو سبية الحرب فان السيد متى تسراها لا يجوز له بيعها[٣] .

الوفاة والعزاء

أن حرارة الجو تحتم المبادرة إلى دفن الجثة[٤] ويحدثنا العهد الجديد أن الجثة يجب أن تغسل[٥] ثم تدهن بالزيت[٦] ثم تكفن بالكتان[٧] وقديما كان الميت يعرف من كفنه الملك من تاجه والمحارب من سيفه والنبى من عباءته[٨] إذ كان الميت يدفن كما كان فى الحياة الدنيا أعنى بردائه . أما التحنيط فمصرى الأصل ولم يعرفه الاسرائيليون[٩] كذلك لم يعرف الاسرائيليون النعش بل كان الميت يحمل على محفة وخلف الجثة

(١) خروج ٢١ ى ٧ — ١١ .

(٢) خروج ٢١ ى ٨ .

(٣) تثنية ٢١ ى ١٠ .

(٤) تثنية ٢١ ى ٢٣ .

(٥) أعمال الرسل ٩ ى ٢٣ .

(٦) مرقس ١٦ ى ١ .

(٧) متى ٢٧ ى ٥٩ .

(٨) صموئيل الأول ٢٨ ى ١٤ وحزقيال ٣٢ ى ٢٧ .

(٩) تكوين ٥٠ ى ٢ — ٣ و٢٦ .

المشيعون[١] أما الدفن فكان الميت يوضع فى لحد[٢] ومواراة الجثة التراب واجب لا مفر منه وعدم الدفن أشنع شيء يبتلى به الميت[٣] ومن الحسنات الكبرى التى يؤديها الحى أن يوارى جثة ميت[٤] وحتى المجرم يجب أن يدفن[٥] .

أما المقابر فكانت قديما جداً عبارة عن الكهوف الموجودة فى التلال وفى العصر الملكى وتحت تأثير الفينيقيين أخذ الاسرائيليون ينحتون المقابر فى الصخر كما جرت العادة منذ العصر الكنعانى أن تدفن مع الميت جرار ومعها مصابيح وأطباق وما إليها من ضروريات الحياة الدنيا . وكان القوم يقيمون المقابر بجوار مساكنهم[٦] أما فى المدن فكان هذا الوضع عسيراً ولو أن ملوك مملكة يهوذا اتخذوا من أبراجهم مدافن[٧] لهم . أما فقراء الاسرائيليين الذين لم تكن لهم مقابر خاصة فقد شيدت لهم مقابر جماعية[٨] . وكان القوم حريصين على أن يدفنوا بجوار آبائهم وإلا فالشقاء يلاحقهم[٩] .

وفى عصر متأخر اعتبرت المقابر نجسة لذلك كان القوم فى العصر المسيحى يطلونها بالجير فى فصل الربيع[١٠] .

---

(١) صموئيل الثانى ٣ ى ٣١ولوقا ٧ ى ١٢ .
(٢) تكوين ٢٣ ى ١٩وص ٢٥ ى ٩ .
(٣) عاموس ٢ ى ١ والملوك الأول ١٤ ى ١١ وص ١٦ ى ٤ .
(٤) حزقيال ٣٩ ى ١٤ وصموئيل الثانى ٢١ ى ١٠ .
(٥) تثنية ٢١ ى ٢٣ :
(٦) تكوين ٢٣ وصموئيل الأول ٢٥ ى ١ والملوك الأول ٢ ى ٣٤ .
(٧) حزقيال ٤٣ ى ٧ .
(٨) أرميا ٢٦ ى ٢٣ وأشعيا ٥٣ ى ٩ ومتى ٢٧ ى ٧ .
(٩) الملوك الأول ١٣ ى ٢٢ .
(١٠) متى ٢٣ ى ٢٧ ولوقا ١١ ى ٤٤ .

أما شعار إعلان الحداد فيعلنه إلى جانب نساء الأسرة ندابون وندابات حيث كانوا يصيحون «هوى احى = آه ياخى ، هوى آدون = آه ياسيدى » أو «هوى أحوت [١] آه ياختى » ومن ثم تنشد المراثى[٢] مع تبادل المنشدات[٣] وبمرافقة الناى[٤] .

ومن علامات الحداد أيضا تمزيق الثياب العليا[٥] وارتداء ثوب الحزن (ساق)[٦] ويجلس الحزين فى التراب والرمضاء [٧] وكان المكلوم يضرب صدره وحقويه[٨] كما يسير عارى الرأس حافى القدمين[٩] . ويحلق شعر رأسه[١٠] ويقص لحيته أو يشذبها[١١] وقد يفصد جسده بالمدية [١٢] كذلك جرت العادة أن يصوم الأحياء حدادا على الميت[١٣] وكان هذه الصيام يستمر حتى الغروب أو لعدة أيام[١٤] .

وتعلل جميع هذه الطقوس وتلك العادات بالقرابين التى كانت تقدم للموتى أحيانا[١٥] كما أن معظمها يرجع إلى طقوس كنعانية أو شرقية أخرى .

---

(١) الملوك الاول ١٣ ى ٣٠ وأرميا ٢٢ ى ١٨ وعاموس ٥ ى ١٦م .
(٢) أخبار الأيام الثانى ٣٥ ى ٢٥ :
(٣) زكريا ١٢ ى ١١ . وقارن متى ١١ ى ١٧ .
(٤) أرميا ٤٨ ى ٣٦ .
(٥) صموئيل الثانى ٣ ى ٣١ .
(٦) أشيا ١٥ ى ٣ ص و ٢٢ ى ١٢ .
(٧) يشوع ٧ ى ٦ وصموئيل الثانى ١ ى ٢ وأشعيا ٣ ى ٢٦ وأيوب ٢ ى ٨ .
(٨) أرميا ٣١ ى ١٩ .
(٩) حزقيال ٢٤ ى ١٧ وصموئيل الثانى ١٥ ى ٣٠ .
(١٠) أرميا ١٦ ى ٦ وص ٤٧ ى ٤ وأشعيا ٢٢ ى ١٢ .
(١١) أرميا ٤١ ى ٥ وص ٤٨ ى ٣٧ .
(٢٢) أرميا ١٦ ى ٦ وص ٤١ ى ٥ .
(١٣) صموئيل الأول ٣١ ى ١٣ وصموئيل الثانى ٣ ى ٣٥ .
(١٤) هوشيه ٩ ى ٤ وأرميا ١٦ ى ٧ — ٨ .
(١٥) تثنية ٢٦ ى ١٤ .

المجتمع وعاداته

الترفيه

الشرقى فرح مرح منذ أن ظهر فى الوجود وذلك بحكم طبيعة بلده وصفاء سمائه وخصب تربته وموقعه الدولى الهام ، كما أن كرم أهله مضرب الأمثال ، وتعاونهم فى السراء والضراء حفظ للشرق عاداته وتقاليده وشخصيته .

وإذا تتبعنا المصادر التى وصلتنا والتى تحدثنا عن ماضى الشرق وتقاليده وجدناها غفلا عن ذكر أماكن اللهو والتسلية كما أنها لا تتحدث كثيرا عن وسائلها . لكن الشرقى سعى منذ القدم إلى مشاركة أهله وعشيرته الرأى فى كل ما يهم قبيلته ومجتمعه سواء فى الأفراح أو الأتراح . فالعهد القديم يحدثنا أن الاسرائيليين اتخذوا من مدخل القرية منتدى يجتمع فيه شيوخها يتداولون ويتسامرون[1] . وعند غير المدخل اعتاد القوم أن يلتقوا أيضا عند النبع[2] وأحاديث المحدثين عند مدخل القرية لم تذهب سدى بل وجدت من يعنى بها ويتخذها وسيلة من وسائل التسلية ومادة غنية لعرض تاريخ بعض الشخصيات التى اعتقد القوم أنها لعبت دورا خطيرا فى تاريخ القبيلة أو القبائل فخرج الرواة وظهرت الرواية ومن ثم أضيفت إلى مادتها بعض الأغانى التى استتبعت الآلات الموسيقية ، وهكذا أصبحنا نجد أنفسنا أمام قصاص وشعراء ومغنيين وموسيقيين لا يقيمون فى قرية بعينها بل يتجولون ويضعون

(١) تكوين ١٩ ى ١ وس ٣٤ ى ٢٠ ومزمور ٦٩ ى ١٣ وأيوب ١٩ ى ٧ .
(٢) القضاة ٥ ى ١١ .

القصص والمغامرات التى تناسب المجتمع الذى ينزلون فيه[١] .

ومن وسائل التسلية والتكريم أيضا إقامة حفلات الاستقبال للأبطال فنجد النساء يخرجن تتقدمهن منشدة وجميعهن يغنين على دقات الطبول[٢] كما احتفل القوم بيوم تتويج الملك[٣] وأحيوا ذكرى ابنة « يفتلس » المنكودة[٤] كذلك احتفلوا بكثير من الأعياد القومية كعيد الزراعة والحصاد وقطف العنب وجز الاغنام(٥) وكثيرا ما قضى الأطفال غلمانا وفتيات ساعات طويلة فى الرقص واللعب والعزف على الآلات الوترية(٦) .

كما اجتمع القوم لإحياء ذكرى ولى من الأولياء(٧) . وكثيرا ما اجتمعت الأسر لإحياء وليمة خاصة(٧) .

ولم تكن الولائم والأعياد قاصرة على المجتمع كمجتمع بل كانت أحيانا عائلية فالأسرة تحتفل بميلاد طفل أو ختانه أو فطامه(٩) وأهم مناسبة للاحتفال كانت ولا شك مناسبة الزواج أو زيارة ضيف عزيز(١٠) . ومن تكريم الضيف أيضا غير الطعام والشراب القصص والأغانى

---

(١) خروج ١٣ ى ٨ .
(٢) خروج ١٥ ى ٢٠ والقضاة ١١ ى ٣١ .
(٣) عاموس ٧ ى ٥ .
(٤) القضاة ١١ ى ٤٠ .
(٥) صموئيل الأول ٢٥ ى ٢ — ٣ وصموئيل الثانى ٢٣ ى ٢٣ .
(٦) المرأى ٥ ى ١٤ والقضاة ٩ ى ٢٧ .
(٧) القضاة ٢١ ى ١٩ .
(٨) صموئيل الأول ٢٠ ى ٦ .
(٩) تكوين ٢١ى ٨ .
(١٠) تكوين ٤٣ ى ٣٤ صموئيل الأول ١ ى ٥ .

والألغاز وما إليها(١) وكانت العادة أن يغسل المضيف أو خادمه قدمي الضيف وذلك عن طريق صب الماء(٢) كما يدهن شعر رأسه ولحيته وملابسه بالزيت المعطر كانت (٣) كذلك كان القوم يتزينون بالورود والزهور(٤) . وفي العصر اليوناني الروماني ظهرت الراقصة أيضا(٥) وإن كان المجتمع الإسرائيلي يتفق مع المجتمع العربي في كثير من هذه الصفات إلا أن حق الضيف في المجتمع الإسرائيلي لم يكن محترما فبينما نجد العدو في المجتمع العربي قد يلجأ إلى خيمة عدوه فلا يقربه بأذى ، إذ بسفر القضاة يروى لنا قصة تبين الغدر والخيانة ولا تشرف المجتمع الاسرائيلي فقد جاءت في الاصحاح الرابع من سفر القضاة آية ١٧ وما بعدها قصة تشير إلى (ياعيل) امرأة حابر القيني وفعلتها الدنيئة مع ضيفها « وأما سيسرا فهرب على رجليه إلى خيمة ياعيل امرأة حابر القيني لأنه كان صلح بين (يابين) ملك حاصور وبيت حابر القيني . فخرجت ياعيل لاستقبال سيسرا وقالت له مل ياسيدي مل إلي . لا تخف . فمال إليها إلى الخيمة وغطته باللحاف . فقال لها اسقيني قليل ماء لأني قد عطشت . ففتحت وطب اللبن وسقته ثم غطته . فقال لها قفي بباب الخيمة وإذا جاء أحد وسألك عن رجل قولي له لا . فأخذت ياعيل امرأة حابر وتد الخيمة وجعلت الميتده في يدها وضربت الوتد في صدغه فنفذ إلى الأرض وهو يغط في نومه متعبا ومات » .

ومن عجب أن المجتمع الاسرائيلي لا يستنكر هذا الغدر وتلك الخيانة بل يمتدحها ويعتبر « ياعيل » بطلة من أبطاله ·

---

(١) القضاة ١٤ ى ١٢ وأيوب ٢١ ى ١٢ .
(٢) لوقا٧ ى ٤٤ .
(٣) عاموس ٦ ى ٦ ولوقا ٧ ى ٣٨ .
(٤) أشعيا ٢٨ ى ١ .
(٥) متى ١٦ ى ٦ .

وجرت العادة أن الفرد يحي الآخر بعبارة « السلام عليك[1] » ، و « الله يباركك » و « الله معك » .

وبعد الرد على التحية يتساءل الاثنان عن حال الأسرة والوضع العام[2] . كما نجد أيضا تحريما للتحية[3] وإذا كان اللقاء بعد غيبة طويلة نجد العناق والقبلات وقد تسيل الدموع فرحا[4] .

هذا فيما يتصل بالتحية اما طريقة استقبال الضيف فتختلف باختلاف مكانته من المضيف فنحن نرى سيد البيت يسارع إلى القادم ويستقبله[5] ثم بعد ذلك ينحنى أمامه انحناءة تتفق ومنزلة الضيف من المضيف فقد يقبل الأرض أمامه وتتكرر هذه الانحناءات عدة مرات[6] ويقبل قدميه[7] . وإن كان المضيف أقل من الضيف وراكبا يجب عليه أن يترجل وينحنى أمامه ويحييه[8] . ومن علامات الاحترام والتحية أيضا تقديم هدية للزائر عند مقدمه وعند سفره وهذه الهدية تسمى « بركة »[9] .

أما استقبال الشيوخ المسنين من جانب الشباب فقد كان عظيما جدا هكذا تقضى الشرائع والعادات[10] وهذا يذكرنا بمصر القديمة حيث تقضى التعاليم « لا تجلس والشيخ قائم » .

---

(١) قضاة ١٩ ى ٢٠ وتكوين ٤٣ ى ٢٩ وقضاة ٦ ى ١٢ .
(٢) الخروج ١٨ ى ٧ وصموئيل الثانى ٢٠ ى ٩ .
(٣) الملوك الثانى ٤ ى ٢٩ ولوقا ١٠ ى ٤ .
(٤) تكوين ٢٩ ى ١١ و١٣ وس ٣٣ ى٤ .
(٥) تكوين ١٨ ى ٢ وس ١٩ ى ١ .
(٦) صموئيل الأول ٢٠ ى ٤١ ،
(٧) الملوك الثانى ٤ ى ٢٧ ومتى ٢٨ ى ١٠ .
(٨) تكوين ٢٤ ى ٦٤ وصموئيل الأول ٢٥ ى ٢٣ .
(٩) تكوين ٣٣ ى ١٠ — ١١ وس ٤٣ ى ١١ .
(١٠) لاويون ١٩ ى ٣٢ وأيوب ٢٩ ى ٨ .

هذا ويخاطب الأكبر بلفظ (ادونى = سيدى)[١] أما النبى والمعلم فيخاطب بلفظ (أبى)[٢] .

كذلك جرت العادة فى المجتمع الاسرائيلى أن أحد العامة إذا خاطب سيدا عبر العامى عن نفسه بالشخص الغائب لا المتكلم فهو الخادم المطيع والكلب الميت وما إلى ذلك[٣] .

العلاقات الاجتماعية

إن حياة البداوة لا تعرف فوارق اجتماعية فالثروة لا تعنى جاها أو قوة اللهم إلا أنها تمكن الغنى من أن يكون أكثر كرما من الآخرين فشيخ القبيلة لا يعيش أحسن من فقيرها فكل منهما يأكل نفس الطعام ويلبس نفس اللباس ويقوم بنفس العمل ويمتطى صهوة الجواد .

ونزح الاسرائيليون إلى بلد ذى حضارة رفيعة وثقافة عالية ومفارقات اجتماعية وسواء نزلوا فاتحين أو مأجورين لأمير من أمراء البلاد أو متلصصين فالنتيجة واحدة وهى أن الحضارة الكنعانية ظلت هى المنتصرة واستعمرت العقلية الاسرائيلية استعمارا لم تتحرر منه .

وكان المجتمع الاسرائيلى فى ذلك الوقت عبارة عن عدد قليل من الأعيان يسيطرون على السواد الأعظم من السكان بينما الكهنة يتولون شئون دور العبادة والحفاظ على نشر العقيدة والعناية بها ، وإلى جانبه

---

(١) تكوين ٢٤ ى ١٨ .

(٢) الملوك الثانى ٢ ى ١٢ وص ٦ ى ٢١ .

(٣) تكوين ١٨ ى ٣ وص ٣٣ ى ٥ ص ٤٢ ى ١١ .

الأغنياء نجد الفقراء وكان الطابع العام للمجتمع الفقر والتقشف كما تسلطت العادات والتقاليد فوحدت بين الغنى والفقير، الرفيع والوضيع.

لكن هذا الحال تغير وتبدل فى عصر سليمان وذلك بسبب رغبته الملحة فى مجاراة ملوك الشرق فأخذ يهتم بالتجارة كما استدعت أبهة الملك خلق طبقة من الموظفين لم تكن موجودة من قبل وهى تختلف عن الطبقات الأخرى ثقافة فتميزت عن العامة فى كل مظهر من مظاهر الحياة فمزقت حجاب البساطة والتقشف الذى كان سائدا فى المجتمع الاسرائيلى من قبل، وازداد نفوذ هذه الطبقة الجديدة حتى تحدت القانون، كما أخذ سلطان المال يقوى بفضل ازدهار التجارة ووصلت النقود إلى أيد لم تكن تعرف الثراء من قبل[١]. وقد نقل الوضع الجديد حكومة سليمان من الفقر والشقاء إلى الثراء والغناء والبذخ مما دفع بعض الأنبياء إلى مهاجمة ذلك الوضع الذى قلب المجتمع الإسرائيلى رأسا على عقب[٢] ومن أثر هذا الثراء أن الطبقات الدنيا من الشعب أعنى الفلاحين والعمال أخذوا يحاولون الاثراء بمختلف الطرق فكثرت السرقات والغش والربا كما كثر الطغيان والسلب والنهب والرشوة واختلت الموازين وسادت الفوضى الاجتماعية وأصبح المجتمع الاسرائيلى ينذر بكارثة عارمة، وحاول المشرعون تفاديها فصدرت القوانين تحرم الربا[٣] كما خففت من وقع الرهن[٤] وحررت رقيق الدين بعد سبع سنوات[٥] وقررت اعطاء الأرض التى لا تستغل مدة أقصاها سبع سنوات للفقراء الصالحين فصدور مثل هذه التشريعات

(١) هوشع ١٢ ى ٨ — ٩ وأشعيا ٢ ى ٧ ...
(٢) عاموس ٦ ى ٤ ... وأشعيا ٢ ى ١٦—٢٥ .
(٣) خروج ٢٢ ى ٢٤ .
(٤) خروج ٢١ ى ٢ ...
(٥) خروج ٢٢ ى ١٢ .

يشير إلى الحال الذى بلغه المجتمع فى ذلك العصر فهنا نرى الفوارق الكبيرة بين الطبقات والمصير المحتوم للكثرة المطلقة من أبناء المجتمع بالرغم من الاصلاحات العقائدية والاجتماعية حتى صدر تشريع يقرر سقوط الدين بعد سبع سنوات(١) لكن هذا التطرف فى التشريع ومحاولة كسب مغانم لطبقة من الشعب على حسب طبقة أخرى لم يأت بالفائدة المرجوة للاصلاح الاجتماعى(٢).

وعاودت الشعب ذكريات الأعوام السالفة أيام الحياة الصحراوية البدوية غير المعقدة وأخذ يلعن الحضارة المزيفة والثراء الفاحش على حساب العدالة والمساواة وتبلورت هذه الفكرة فى جماعة «الركابيين» هذه الجماعة الدينية التى حرمت على أفرادها الإقامة فى المدن وشرب الخمور وقد أسسها (يوناداب بن ركب) واتخذها النبى أرميا(٣) مثلا أعلى يقتدى به. وقد أصدر زعيم هذه الطائفة أيام حكم الملك (يهو)(٤) دستورا يحتم على الركابيين الإقامة فى الصحراء وفى خيام وأن تعتمد حياتهم على تربية الماشية فلا يبنون بيوتا أو يزرعون أرضا ولا يشربون خمرا(٥).

لكن جميع هذه الأوضاع التى تردى فيها المجتمع الاسرائيلى وانتهت إلى سبيه أصلحها هذا السبي ذاته وذلك لأن النبى حزقيال استغل هذا التغيير الجذرى الذى أحدثه السبي وأخذ ينظم المجتمع الإسرائيلى تنظيما

---

(١) تثنية ١٥ ى ٢ وص ٢٢ ى ٢٠.
(٢) أرميا ٣٤ ى ٨.
(٣) أرميا ٣٥.
(٤) الملوك الثانى ١٠ ى ١٥.
(٥) أرميا ٣٥.

جديدا قائما على توزيع الأراضى بين البطون والعائلات دون الحق فى امتلاكها نهائيا ، وهذا النظام يرجح أيضا أنه طبق على الاقطاعيين وهكذا أصبحت البلاد ملكا للدولة[١] وقد استثنى هذا التشريع ابن الأمير إذ قرر أن ما يرثه هذا الابن عن أبيه يظل فى حوزته[٢] .

واعتمد حزقيال فى إصلاحه هذا على أن الأرض وما عليها ملك لله وأن الإسرائيليين ليسوا مواطنين متمتعين بكافة الحقوق القومية بل هم مستأجرون فقط وكانت النتيجة المرجوة لهذا التشريع وقف عمليات البيع والشراء ورد الأرض التى بيعت بسبب أزمة إلى صاحبها ثانية فى سنة التحرير التى تحل كل نصف قرن ، إلا أن هذا القانون لم ينفذ .

والواقع أن فكرة خلق الأنظمة الاشتراكية ظلت بدون تنفيذ بسبب موقف الكهنة الذين جمعوا فى يدهم جميع السلطات السياسية كما أنهم كانوا الاقطاعيين الحقيقيين وقد اشتركوا مع آخرين لم يكونوا أقل ثراء منهم فى توجيه الشعب وتكييف المجتمع الإسرائيلى .

كذلك قام الخلاف بخصوص النظام الاشتراكى بين حزبى الصدوقيين والفريسيين وإلى الحزب الأول انضم كثيرون من رجال الدين كما انضم المثقفون إلى الحزب الثانى . وكان الصدوقيون الاغنياء الوجهاء .

ومع الخلاف الحزبى نجد الخلاف الدينى أيضا يسير معه جنبا إلى جنب فالصدوقيون كانوا يهتمون بالثقافة الهللينية فهم من الناحية الدينية

---

(١) حزقيال ٤٥ ى ١ ... وص ٤٦ ى ١٦ .

(٢) حزقيال ص ٤٥ ــ ٤٦ .

متهاونون بينما الفريسيون كانوا متعصبين فأصبحنا نجد المجتمع الإسرائيلي يتكون من أغنياء زنادقة ظالمين وفقراء متدينين، ويصور إنجيل لوقا(١) هذا الوضع بقوله « طوباكم أيها الجياع الآن لأنكم تشبعون. طوباكم أيها الباكون الآن لأنكم ستضحكون ... ولكن ويل لكم أيها الأغنياء لأنكم قد تلتم جزاءكم » . وظلت الفوارق قائمة ولم تتحقق الاشتراكية .

المهن والحرف

ومن أخبار العهد القديم نتبين إن الاسرائيليين الأقدمين لم يقبلوا على القنص والذين مارسوه وصفوا بالغلظة والشراسة مثل (نمرود(٢)) و (عيساو(٣)) إلا أن ذلك لم يمنع كثيرين من الإسرائيليين من محاكاة المصريين والأشوريين فى غرامهم بالصيد والقنص(٤) ، فمن بين أبطال داود الصياد الشهير (بنايا(٥)) . كما أغرم كثيرون بأكل لحم الصيد(٦) ولم تخل مائدة ملكية منه(٧) . أما أدواته فعبارة عن القوس(٨) والسيف والرمح والمزراق(٩) . كما استخدم الصياد الفخ والشبكة(١٠) .

---

(١) لوقا ٦ ى ٢١ و ٢٤ .
(٢) تكوين ١٠ ى ٨ .
(٣) تكوين ٢٥ ى ٢٧ .
(٤) صموئيل الأول ١٧ ى ٣٤ ـ ٣٥ وأشعيا ٥ ى ٢٩ والقضاة ١٤ ـ ١٥ .
(٥) صموئيل الثانى ٢٣ ى ٢٠ .
(٦) تكوين ٢٥ ى ٢٨ والأمثال ١٢ ى ٢٧ ،
(٧) الملوك الأول ٥ ى ٣ .
(٨) تكوين ٢٧ ى ٣ .
(٩) أيوب ٤١ .
(١٠) أشعيا ٥١ ى ٢٠ وحزقيال ١٩ ى ٨ .

أما صيد السمك فقد نستنتجه من العبارات الواردة فى العهد القديم والتى تشير إلى إعجاب الاسرائيليين بلحمه[١] وكثيرا ما ذكره الأنبياء[٢] . وفى العهد الجديد نقرأ خبرا مفاده أن من بين سكان طبريا كان الصيادون[٣] الذين استخدموا الشباك والشصوص[٤] . وكان الصيد يتم عادة ليلا[٥].

تربية الماشية

حيث المراعى والمياه تربى الماشية وتعاون على هذه التربية حياة البداوة فى سوريا وفلسطين حيث تتوفر هذه العوامل وفى الأخيرة توجد الأراضى الصالحة وبخاصة فى إقليمى يهوذا والنقب[٦] كذلك وادى شارون ويزرعئل حيث كمية الرطوبة تعوق الزراعة وتساعد على قيام المراعى لتربية الماشية ، وفى الهضبة الواقعة جنوب شرق الأردن أعنى (مواب) . وإلى جانب الفلاحين نجد أصحاب قطعان الماشية المقيمين والذين يستخدمون كثيرين من الرعاة للعناية بقطعانهم . وكان الملوك انفسهم يعنون بهذه المهنة ويباشرونها[٧] ولا أدل على أهمية تربية الماشية عند الاسرائيليين من عناية الشريعة والطقوس الدينية بها[٨] .

أما حياه الرعاة فكانت الحياة المثالية للمجتمع الإسرائيلى كما نتبينها من قصص الآباء الأولين وما جاءنا من شعر ، وحتى (يهوه) فقد وصفه

---

(١) العدد ١١ ى ٥ .
(٢) عاموس ٤ى ٢ وأرميا ١٦ ى ١٦ وحزقيال ٢٩ ى ٤ .
(٣) لوقا ٥ ى ١ ...
(٤) عاموس ٤ ى ٢ وأيوب ٤٠ .
(٥) لوقا ٥ ى ٥ ويوحنا ٢١ ى ٣ .
(٦) صموئيل الأول ٢٥ .
(٧) الملوك الأول ٢٢ ى ٢٩ ـ ٣٥ والملوك الثانى ٢٦ ى ١٠ .
(٨) تثنية ٨ ى ١٣ وأرميا ٣١ ى ٢٧ .

بأنه الراعى الأمين لشعبه ، لكن ليس معنى هذا أن حياة الرعاة كانت حياة ناعمة سهلة بل بالعكس كانت قاسية[١] فالراعى يجمع ماشيته ويهدى الضالة ويعالج المريضة ، والمتعبة يحملها ويستخرج لها الماء من النبع لسقايتها[٢] ويحميها من الحيوانات المفترسة[٣] وإذا ما أقبل المساء تساق الحيوانات إلى حظائر مسورة بحيطان من الحجر[٤] وإلى جوار الحظيرة بجدل للدفاع عنها[٥] وعند المبيت يحصى الراعى ماشيته فالضان يجعلها تمر تحت عصاه ويعدها[٦] والراعى مسئول عن كل حيوان وإذا فقد فهو مطالب بدفع التعويض اللهم إلا التى يفترسها الحيوان البرى[٧] .

وكل ما يحمله الراعى معه لا يتعدى حقيبة من الجلد فيها طعامه[٨] . وكذلك عصاه[٩] التى تنتهى بجزء مستدير وهى سلاحه الوحيد كما يحمل معه مقلاعا[١٠] أما الناى فلا يفارقه أبدا[١١] وكذلك كلبه[١٢] وأجر الراعى كان ضئيلا جداً وكان يدفع أحيانا نقدا[١٣] أو بعض الخراف التى يرعاها كما قد نفهم هذا من قصة يعقوب[١٤] .

---

(١) تكوين ٣١ ى ٤٠ .
(٢) تكوين ٢٤ ى ١٠ وص ٢٩ ى ٢ ...
(٣) صموئيل الأول ١٧ ى ٣٤ ... وأرميا ٤٩ ى ١٩ .
(٤) عدد ٣٢ ى ١٦ وصموئيل الأول ٢٤ ى ٤ .
(٥) تكوين ٣٥ والملوك الثانى ١٧ .
(٦) لاويون ٢٧ ى ٣٢ وأرميا ٣٣ ى ١٣ .
(٧) خروج ٢٢ ى ٩ — ١٢ .
(٨) صموئيل الأول ١٧ ى ٤٠ .
(٩) ميخا ٧ ى ١٤ .
(١٠) صموئيل الأول ١٧ ى ٤٠ .
(١١) قضاة ٥ ى ١٦ .
(١٢) أيوب ٣٠ ى ١ .
(١٣) زكريا ١١ ى ١٣ .
(١٤) تكوين ٣٠ ى ٢٨ ...

الزراعة

والزراعة عند الاسرائيليين توجيه من الله أيضا[١] . وقد أخذ الاسرائيليون الزراعة وغرس البساتين وزراعة أشجار الفاكهة المختلفة عن الكنعانيين[٢] وكان الاسرائيلي يستخدم الفدان لحرث الأرض[٣] ثم بعد ذلك يمهدها[٤] وكان يزرع أحيانا أكثر من صنف[٥] .

أما الحصاد فكان يتم بالمنجل ثم يحمل عادة إلى تل مرتفع ويدرس بالنورج[٦] (مورج) وكان عبارة عن قطعة من الخشب مثبتة على أحجار مدببة يجرها الثيران ، وأحيانا كان يؤتى بالثيران أو الحمير وتترك على الحصاد فتهرسه وتدرسه . وهناك نوع آخر من وسائل الدراس وهو العربة وتسمى العجلة[٧] . أما إذا كانت الكمية صغيرة فيكتفى لدرسها بدقها بالعصا[٨] ثم تذرى الحبوب بالمذرى[٩] وتحفظ بعد ذلك فى حفر تعرف باسم (مطمونيم) وكانت تحفر عادة فى الحقل[١٠] . أما الـ (تبن) فيقدم طعاما للماشية إلى جانب الشعير .

---

(١) أشعيا ٢٨ ى ٢٦ ...
(٢) تثنية ٦ ى ١١ .
(٣) أشعيا ٢٨ ى ٢٤ .
(٤) أشعيا ٢٨ ى ٢٤ وأيوب ٣٩ ى ١٠ .
(٥) تثنيه ٢٢ ى ٩ ولاويون ١٩ ى ١٩ .
(٦) أشعيا ٢٨ ى ٢٧ وص ٤١ ى ١٥ .
(٧) عاموس ١ ى ٣ .
(٨) قضاة ٦ ى ١١ وروث ٢ ى ١٧ .
(٩) أشعيا ٣٠ ى ٢٤ وأرميا ١٥ ى ٧
(١٠) أرميا ٤١ ى ٨ .

الحدائق

حيث الكروم والتين والزيتون فالثقافة رفيعة والحضارة عالية وذلك لأن الأسرة التى تملك حديقة أو أرضا غنية بها تعمر طويلا فى سعادة ويسر بالرغم من المتاعب والمجهودات التى تتطلبها زراعتها[١] .

ومن الجدير بالملاحظة أن الكروم والتين والزيتون من الثمار التى اشتهرت بها فلسطين منذ القدم[٢] . كما أن الجلوس فى ظلها باعث على الهدوء والسلام[٣] .

والكروم مثلها مثل الزيتون قد غرسها الكنعانيون منذ عصور بعيدة جدا قبل تسلل الاسرائليين إليها وحقول الكرم تحرث وتقلب مرتين أو ثلاث سنويا كذلك تعزق بالفأس[٤] وتقلم الأشجار بعناية[٥] وعناقيد العنب إما أرضية[٦] وإما تنمو على أعمدة وأشجار[٧] وقد نستنتج من تشبيه الدم بالنبيذ الفلسطينى أن هذا النبيذ كان مستخرجا من عصير عنب أسود أعنى من العنب المعروف فى العربية باسم «وين» وهى نفس الكلمة التى انتقلت إلى اللغات الأوربية[٨] وفى العبرية (يين). أما تحضير النبيذ فكان يتم كما تشير الآثار التى وصلتنا عن طريق جمع العنب فى حوضين عميقين نحتا فى الصخر ويبلغ

---

(١) أشعيا ٥ ى ١ ـ ٥ .
(٢) القضاة ى ٩٧... وهوشع ٢ ى ١٠ و ١٤ .
(٣) الملوك الأول ٥ ى ٥ .
(٤) أشعيا ٥ ى ٦ .
(٥) أشعيا ٢ ى ٤ ... وميخا ٤ ى ٣ .
(٦) أشعيا ١٦ ى ٨ وحزقيال ١٧ ى ٦ .
(٧) أشعيا ٧ ى ٢٣ ومزمور ٨٠ ى ١١ .
(٨) Vin, Wein, Wine, ...

طول قطر الحفرة نحو أربعة أمتار وفى قاع إحدى الحفرتين فتحة يسيل منها العصير إلى الحفرة الأخرى وقد توجد حفرة ثالثة يجرى إليها العصير من الثانية أكثر نقاء وصفاء . أما العنب فيعصر عن طريق استخدام القدمين[١] أو الأحجار . ثم بعد ذلك يختمر العصير ويجمع فى قوارير[٢] أو فى قرب[٣] ويترك زمنا حتى يتم تخميره ثم تعاد تعبئته[٤] وعن طريق هذه العملية يصير النبيذ مقبولا[٥] .

أما الزيتون فكان الاسرائيليون يستخرجون منه الزيت عن طريق جمع الثمار قبل أن يتم نضجها[٦] .

أما الزيت الممتاز فهو الذى يستخرج بدون عصر الزيتون عصرا نهائيا أعنى « نضوضا »[٧] وقد يطلقون عليه أيضا «زيتا رطبا»[٨] وعملية عصير الزيتون تتم غالبا فى حديقته[٩] .

أما معصرة الزيت فلم يرد ذكرها إلا فى التلمود ولو أنها قديمة جدا . وكان يصدر الزيت إلى كثير من البلاد المجاورة[١٠] وبخاصة إلى مصر .

التين من الفواكه الكثيرة الانتشار فى البلاد الواقعة على الشاطئ الجنوبى للبحر الأبيض المتوسط .

---

(١) أشعيا ٦٣ .
(٢) أرميا ١٣ ى ١٢ .
(٣) يشوع ٩ ى ٤ و ١٣ وأيوب ٣٢ ى ١٩ ومتى ٩ ى ١٧ .
(٤) أرميا ٤٨ ى ١١ وصفنيا ١ ى ١٢ وأشعيا ٢٥ ى ٦ .
(٥) لوقا ٥ ى ٣٩ :
(٦) أشعيا ١٧ ى ٦ وص ٢٤ ى ١٣ وتثنية ٢٤ ى ٢٠ .
(٧) خروج ٢٧ ى ٢٠ وص ٢٩ ى ٤٠ والملوك الأول ٥ ى ٢٥ .
(٨) مزمور ٩٢ ى ١٠ .
(٩) ميخا ٦ ى ١٥ وأيوب ٢٤ ى ١١ .
(١٠) حزقيال ٢٧ ى ١٧ وهوشع ١٢ ى ١

الحرف

غزل الكتان والصوف فى فلسطين كان من عمل المرأة[1] أما الرجل فكان يحول جلد الماعز أو الغنم إلى قرب أو إلى جلد مدبوغ لصناعة الخف وما إليه من مناطق وغيرها . ومنذ القدم نجد الحداد وصانع الفخار . ولما نشبت الحروب الفلسطينية الاسرائيلية تجمدت الصناعات اليدوية لذلك لم يجد سليمان بدا من الاستعانة بالصناع الفينيقيين وعنهم أخذ الاسرائيليون كثيرا من الحرف . وتدريجيا بعد اتصالهم بالكنعانيين أخذوا يتعلمون مختلف الحرف مثل البناء وصياغة الحلى إذ كان الصائغ ينتقل إلى البيت ويصنع ما يطلبه أصحابه . ثم ظهرت حرف أخرى ، وبخاصة بعد العودة من السبي ، جاء بها الاسرائيليون من بابل[2] . وكانت الحرف بعد السبي محترمة عند الاسرائيليين حتى أننا نجد من بين علماء التلمود كثيرين ممن يحترفون حرفا عديدة كصناعة الأحذية وحياكة الملابس ونجد أيضا الخبازين وصانعى السجاجيد والبنائين وهلما جرا لكن هناك بعض المهن التى تتطلب العمل فى القاذورات مثل الدباغة وهذه الحرفة كانت موضع احتقار القوم فلا يبلغ صاحبها مكانة رفيعة بين رجال الدين .

أما عمال المعادن أو كما يطلق عليهم فى العبرية (حرش) وهو لفظ يفيد فى الواقع (نقاش حفار . صاحب صنعة) فقد اشتهروا منذ القدم فى الشرق عامة ، وبخاصة لتوفر بعض أنواع المعادن فى الشرق العربى . ففى دمشق نجد النحاس[3] وفى لبنان وجدت مناجم نحاس وحديد[4]

---

(١) صموئيل الأول ٢ ى ١٩ .
(٢) أخبار الأيام الأول ٤ .
(٣) صموئيل الثانى ٨ ى ٨ .
(٤) تثنية ٨ ى ٩ وزكريا ٦ ى ١ .

وقد استفاد منها سليمان كثيرا(١) ولشهرة لبنان به أطلقت عليه رسائل تل العمارنة اسم « نحاشى = نحاس » وهى تسمية تنصرف إلى الجزء الشرقى منه . وتوفر هذا المعدن فى هذه البلاد جعل استخدامه فى فلسطين شائعا كما تثبت لنا ذلك الآثار التى عثر عليها هناك حيث نجد الحراب والمدى والمسامير والحلى وما إليها .

وما يقال عن النحاس والبرنز يقال أيضا عن الحديد حيث تشير بعض أسفار (العهد القديم)(٢) إلى المركبات الحربية الكنعانية المطوقة بالحديد . أما البرنز فقد كان أكثر انتشارا فى فلسطين أيام العصر الملكى حيث كانت تصنع منه الأسلحة(٣) .

ومن العجيب حقا أن يرد ذكر الحديد كثيرا فى صناعة الآلات أيام عصر داود ٤) كما استخدم فى صناعة الأبواب . وذكرت فى أيوب(٥) الدروع الحديدية ، والسلاسل(٦) والفئوس(٧) والمسامير والمقابض(٨) . أما الحديد الخام فكان يستورد من لبنان(٩) . وكان الاسرائيليون على علم بأفران صهره(١٠) .

ومن الحرف الأخرى التى انتشرت فى المجتمع الاسرائيلى حرفة

---

(١) الملوك الأول ٢ ى ٢٨ وص ٩ ى ١٠ .
(٢) قضاة ١ى ١٩ وص ٤ ى ٣ ويشوع ١٦ ى ١٨ .
(٣) صموئيل الأول ١٧ ى ٥ ... وصموئيل الثانى ٢٢ ى ٣٥ .
(٤) صموئيل الثانى ١٢ ى ٣١ وعاموس ١ ى ٣ وأشعيا ٤٥ ى ٢ .
(٥) إصحاح ٢٠ ى ٢٤ .
(٦) مزمور ١٤٩ .
(٧) الملوك الثانى ٦ ى ٥ وتثنية ١٩ ى ٥ .
(٨) أرميا ١٧ ى ١ وأيوب ١٩ ى ٢٤ .
(٩) أرميا ١٥ ى ١٢ .
(١٠) تثنية ٤ ى ١٠ وأرميا ١١ ى ٤ والملوك الأول ٨ ى ٥١ .

الصياغة أعنى صياغة الحلى من الذهب وتطلق العبرية على الصائغ لفظ « صوريف » وهى تقابل لفظ (صراف) فى العربية وكان الصائغ عادة يذيب الذهب والفضة ليجعل المعدن أكثر طواعية لصياغته وذلك بإضافة البورق إليه[١] .

وكان القوم يصنعون من الذهب الخواتم والأساور والحجول . كما كان الصائغ خبيرا أيضا باللحام(٢) واستخدم الاسرائيلى خيوط الذهب فى الأقمشة(٣) وقد استوردها فى عصر سليمان من أوفير وحويله(٤) وبواسطة السبائيين(٥) .

أما صناعة الفخار فقد تطورت تطورا بعيدا بتأثير الأجانب وذلك لأن الاسرائيليين لم يكن لهم بها عهد ولم يرد ذكرها إلا مرة واحدة فى العهد القديم[٦] وإن استخدم الأنبياء صناعة الفخار مثلا يضربونه[٧] وكان الاسرائيليون يصنعون من الطين الأباريق ويلونونها بأوكسيد الرصاص (كسف سيجيم)[٨] وغير الأباريق عثر رجال الآثار على لعب وأطباق ومصابيح وشخوص تمثل الحيوانات وبعض تماثيل الآلهة .

النجارون :

أو كما يعرفون فى العبرية باسم (حوصيي ابن) هم الذين

---

(١) أشعيا ١ ى ٢٥ .
(٢) أشعيا ٤١ ى ٧ ى.
(٣) خروج ٢٨ ى ٦ .
(٤) تكوين ٢ ى ١١ – ١٢ .
(٥) حزقيال ٢٧ ى ٢٢ :
(٦) صموئيل الثانى ١٧ ى ٢٨ .
(٧) أرميا ١٨ ى ٦ وأشعيا ٢٩ ى ١٦ .
(٨) أمثال ٢٦ ى ٢٣

كانوا يقومون ببناء المساكن فيقطعون الأحجار وينحتونها ثم يبنونها(١) وهم يستخدمون فى البناء ميزان الماء(٢) والخيط(٣)والزيج(٤)(الثقل الذى يتدلى بحبل على ارتفاع الحائط) أما بيوت الفقراء فكانت تشيد من طوب أو أحجار غير منحوته .

النجار : ويسمى فى العبرية (حرش, عص) كان يصنع الموائدوالكراسى وغيرها من الأدوات المنزلية أو الزراعية وغيرها وهناك نجارون آخرون يجيدون الصناعات الدقيقة (٥)وكان النجار يستخدم المنشار(٦) وكذلك البلطة(٧) والفأس(٨) والفارة والأزميل والمطرقة(٩) وكذلك الفرجار(١٠) .

النسيج : بالعبرية (ارج) كانت هذه المهنة قاصرة على صناعة الأقمشة الشعبية أما الأقمشة الرفيعة فكانت تستورد من الخارج من مصر(١١) وبابل(١٢) وسوريا(١٣) ثم بعد ذلك نجد هذه الصناعة تتطور إلى صناعات أخرى فنجد غزل الكتان والصوف من عمل النساء بينما انتقل النول المصرى ، كما تحدثنا المشنا ، إلى فلسطين . ومع توالى الزمن أخذ الاسرائليون ينسجون الأقمشة الملونة وقد يستخدمون خيوطا

---

(١) الملوك الثانى ١٢ ى ١٣ .
(٢) الملوك الثانى ٢١ ى ١٣ وأشعيا ٢٨ ى ١٧ .
(٣) أشعيا ٢٨ ى ١٧ .
(٤) عاموس ٧ ى ٧ .
(٥) أشعيا ٤٠ ى ٢٠ وأرميا ١٠ ى ٣ وتثنية ٢٩ ى ١٦ .
(٦) أشعيا ١٠ ى ١٥ .
(٧) ٤٤ ى ١٢ والقضاة ٩ ى ٤٨ .
(٨) تثنية ١٩ى ٥ .
(٩) أشعيا ٤٤ ى١٢ ـ ١٣ والملوك الأول ٦ ى ٧ .
(١٠) أشعيا ٤٤ ى ١٣ — ١٤ .
(١١) حزقيال ٢٧ ى ٧ .
(١٢) يشوع ٧ ى ١٢ .
(١٣) حزقيال ٢٧ ى ١٦ وصفنيا ١ ى ٨ .

ذهبية فى الأقمشة الفاخرة(١) وحرمت الشريعة الاسرائيلية خلط الكتان بالصوف(٢) وبعد عصر السبى وأبان حياة المسيح نجد الثياب المجردة من المخيط والتى عرفها الاسرائيليون من قبل وهى تشبه الآن كثيرا ما يعرف عند فلاحى مصر بالقميص أو القصارية إذ أن الثوب ينتهى عند الرقبة بفتحة يرتديه منها صاحبه(٣) ثم أخذت هذه المهنة تنحط حتى رمى أصحابها بالمباذل والانحطاط الخلقى (يوسيفوس التاريخ القديم لليهود الكتاب الثالث الفصل السابع) .

الغسالون : أو كما يعرفون بالعبرية (كواسيم)(٤) وكانوا يقومون بغسل المنسوجات الصوفية لجعلها غير قابلة لرشح الماء . ولما كانت هذه وما تستتبعه من روائح كريهة بغيضة إلى السكان اضطر الغسالون إلى غسلها خارج المدن(٥) فكانوا يضعون الأقمشة فى حفر مملوءة بالماء ويضيفون إليه بعض الكيماويات النباتية لتساعد على إذابة المادة الدهنية العالقة بالمنسوج(٦) وبعد الغسل يستخرج القماش ويدق بالعصى ويعاد غسله فى ماء نقى لذلك من السهل فهم سبب احتقار هذه المهنة .

كذلك من المهن المحتقرة حرفة الدباغين وهى حرفة لم يرد لها ذكر فى العهد القديم وكانوا يدبغون الجلود لصناعة جميع اللوازم التى يحتاج إليها الإنسان وكانت المدابغ عادة تقام خارج المدن(٧) .

---

(١) خروج ٢٨ ى ٥ وص ٣٩ ى ٢ .
(٢) تثنية ٢٢ ى ١١ ولاويون ١٩ ى ١٩ .
(٣) انجيل يوحنا ١٩ ى ٢٣ .
(٤) الملوك الثانى ١٨ ى ١٧ .
(٥) أشعيا ٧ ى ٣ وص ٣٦ ى ٢ .
(٦) أرميا ٢ ى ٢٢ وأيوب ٩ ى ٣٠ .
(٧) أعمال الرسل ١٠ ى ٦ .

الصباغون . لم يرد ذكرهم فى العهد القديم بالرغم من شغف الكنعانيين والاسرائليين بالأقمشة الملونة .

الخبازون : وفى العبرية (افيم)[١] وقد اشتهرت أورشليم قديما بحارة الخبازين[٢] .

العطارون : وفى العبرية يطلق على العطار (رقح)[٣] وكانوا يقومون بتركيب مختلف العطور .

أما **الحلاق** فهو فى العبرية (جلاب)[٤] .

التجارة

فلسطين كما تبينا مما سبق تقع فى مفترق الطرق التجارية سواء تلك القادمة من بلاد العرب السعيدة أو الممتدة بين مصر وبابل وآسيا الصغرى وكانت هذه القوافل تنقل غالبا الفضة من آسيا إلى مصر ، والذهب من بلاد النوبة وبونت ، والخشب من لبنان ، والبخور والبهار من جنوب بلاد العرب . وشريعة حمورابى تبين لنا فى وضوح المكانة العالية التى بلغتها التجارة وقتذاك حتى نشأ ما نسميه وبحق القانون التجارى .

وظلت هذه التجارة تتنقل فى طرقها القديمة واستفادت منها كنعان ثم جاء الاسرائيليون فانصرفوا أولا إلى هضم الثقافة الكنعانية وكانت كل أسرة اسرائيلية تقنع بصنع حاجياتها دون المساهمة

---

(١) هوشع ٧ ى ٤ .
(٢) أرميا ٣٧ ى ٢١ .
(٣) صموئيل الأول ٨ ى ١٣ وخروج ٣٠ ى ٣٥ .
(٤) حزقيال ٥ ى ١ .

فى التجارة داخليا أو خارجيا . ولم تكن فى حيازة الاسرائليين بضائع للاتجار إلا الملح المستخرج من البحر الميت والحلى والطلاسم وحتى هذه الموارد لم يستغلها الاسرائيليون تجاريا كما استغلها الكنعانيون .

لكن هذا الوضع تغير مع الزمن وتطلبت المكانة الثقافية والحضرية التى بلغتها اسرائيل المزيد من المواد الاستهلاكية فصور كانت تمد الاسرائيليين بأصحاب المهن والحرف مثل النجارين والنحاتين والحدادين لإنجاز مبانى سليمان[1] وأقبل الاسرائيليون على شراء المنسوجات الفينيقية واشترى الفينيقيون من الاسرائيليين الزيت والحبوب والعسل والبلسم وغيرها[2] واهتم الاسرائيليون أيضا بتجارة الرقيق اهتماما عظيما[3] .

أما سليمان فقد سلك اقليم (عربه) إلى البحر متحالفا مع (حيرام) ملك صور الذى امده برجال أسطوله التجارى وتوجهت سفن سليمان إلى أقصى بلاد العرب الجنوبية للاتجار معها بعد أن بنى سفنا كبيرة فى (عصيون جابر) الواقعة بالقرب من أيلة ، ومن أوفير عادت سفنه بالذهب والفضة والسن والقردة[4] .

أما زيارة ملكة سبأ لسليمان برا فتذكرنا بطرق القوافل القديمة التى كانت ممتدة من جنوب بلاد العرب إلى سيناء ففلسطين ، ومن ثم تتجه إلى ما يعرف اليوم باسم بلاد الهلال الخصيب[5] .

وفيما يتعلق بالاتجار مع مصر فقد كان هذا على سليمان حتما مقضيا

---

(١) صموئيل الثانى ٥ ى ١١ — ١٢ والملوك الاول ٥ ى ١٥ .

(٢) حزقيال ٢٧ ى ١٦ والملوك ٥ ى ٢٥ .

(٣) عاموس ١ ى ٩ وتثنية ٢٣ ى ١٨ .

(٤) الملوك الأول ٩ ى ٢٦ — ٢٨ وص ١٠ ى ٢٢ .

(٥) للملوك الأول ١٠ ى ١ — ١٣ :

بحكم تبعيته لمصر . كما حددت الاتفاقيات التجارية زيادة التبادل التجارى بين البلدين[١] . ومن مصر استورد سليمان الأقمشة القطنية البيضاء[٢] . واستورد عن طريق الأراميين الخيول من سوريا . فجميع هذه التجارة كانت ملكية ولم تكن تجارة خاصة يقوم بها الأفراد وذلك لأن حكومة سليمان احتكرت لنفسها الاتجار مع الخارج تصديرا واستيرادا . أما القوافل التجارية الخاصة أو الأجنبية فكانت تدفع إتاوة لخزائن سليمان[٣] . لكن هذه التجارة الخارجية لم تعمر طويلا وخرجت من يد اقليم يهوذا وانتقلت إلى المملكة الشمالية وسقطت جبال سعير واقليم (عصيون جابر) و (عربه) فى يد الأدوميين كما انتقلت إليهم تجارة البحر الأحمر[٤] وظلت فى يد الأدوميين حتى تمكن (أماسيا) من استردادها ثانية[٥] وجاء خلفه عزاريا وأعاد بناء ميناء ايلات على البحر الأحمر إلا أنه لم تصلنا أخبار تفيد أن تجارة البحر الأحمر عادت ثانية إلى الاسرائيليين وذلك لأن أدوم خرجت من يدهم إلى سوريا ولم يمض زمن طويل حتى وقعت اسرائيل فى منطقة نفوذ دمشق حيث قامت دولة أرامية . وفى دمشق نجد الاسرائيليين ينشئون حيا خاصا بهم وبتجارتهم كما أقام السوريون حيا تجاريا لهم فى سماريا[٦] .

وورث الأشوريون الأراميين وأصبحوا سادة تلك الأقاليم فازداد اقتناء الاسرائيليين لأدوات الزينة والترف بحكم التطور فى الحياة الاجتماعية

---

(١) تكوين ٣٧ ى ٢٥ و٢٨ وس ٤٣ ى ١١ .

(٢) حزقيال ٢٧ ى ٧ .

(٣) الملوك الأول ١٠ ى ١٥

(٤) الملوك الأول ٢٢ ى ٤٨ ...

(٥) الملوك الثانى ١٤ ى ٧ .

(٦) الملوك الثانى ٢٠ ى ٣٤ .

التى أخذت تجارى النمو الاقتصادى مما أثار حفيظة الأنبياء فأخذوا يهاجمون المجتمع الاسرائيلى لكثرة ما أصابه من انحلال خلق بسبب الثراء الناجم عن ازدهار التجارة[١] .

أن المجتمع الاسرائيلى بالرغم مما أصابه من تطور فى حياته العامة والخاصة ظل تجاريا دون الفينيقيين فاحتفظ بالزراعة ومارس التجارة فى حدود سد حاجاته الخاصة فقط لفقره فى الصناعات لذلك كانت التجارة العامة فى يد الفينيقيين وكانت اسرائيل السوق فقط[٢] .

كما أن لفظ كنعانى كان حتى بعد العصر الملكى كناية عن التاجر[٣] لذلك خلت التثنية من العناية بالتجارة وتنظيمها بخلاف الحال فى شريعة حمورابى .

وظل المجتمع الاسرائيلى فى هذا الوضع حتى جاء السبى فانتزعه من الزراعة إلى التجارة بفضل انتقال الاسرائيليين إلى مملكة بابل حيث كانت الحياة التجارية قد استكملت كل مقوماتها فهناك البيوت المالية والمقاصة والحوالات والأوراق المالية والسندات وكانت حياة هذه المصارف لا تقل اتقانا عن حياة المصارف فى عصرنا هذا ولم يبق أمام الاسرائيليين المسبيين إلا دخول السوق والاتجار فمن الوثائق التى جاءتنا والخاصة بالبيت التجارى الشهير (موراشو) وأولاده الذى تأسس حوالى عام ٤٦٤ ق . م . نعلم أن عددا كبيرا من عملائه كانوا إسرائيليين . وفى سفر طوبيت نقرأ أن طوبيت نفسه كان من كبار التجار . ولما ظهرت

---

(١) أشعيا ٢ وهوشع ١٢ ى ٨ وعاموس ٨ ى ٥ :

(٢) الملوك الأول ٢٠ ى ٣٤ والتكوين ٣٧ ى ٢٥ ...

(٣) هوشع ١٢ ى ٨ وصفنيا ١ ى ١١ وأشعيا ٢٣ ى ٨ :

فارس على مسرح الشرق الأدنى وآلت فلسطين إليها ظلت التجارة بعد العودة من السبى مدة طويلة بعيدة عن اليهود وبقيت محتكرة فى يد الفينيقيين والأدوميين والعرب[١] وكان هذا من أهم الأسباب التى أدت إلى هذا الفقر المحيط باليهود وقد ظل حالهم كذلك حتى العصر اليونانى إذ بدأ اليهود يدخلون السوق العالمى فنجدهم فى أنطاكية والاسكندرية يباشرون تجارة واسعة . ولم يلبث اليهودى إلا أن أخذ يتجول فانتقل إلى آسيا الصغرى واليونان وإيطاليا وهكذا أخذ يتبع القوافل التجارية أنى اتجهت وفى فلسطين ذاتها نجد شمعون المكابى يعنى بالتجارة[٢] كما شيد هيرودوس الأكبر ميناء كبيرا فى قيصرية[٣] .

أما وسائل النقل فى المجتمع الاسرائيلى فكانت الحمير والبغال والجمال . اما الخيل فكانت للحرب فقط .

---

(١) قارن نحميا ١٠ ى ٣٢ وس ١٣ ى ١٦ — ٢٢ .

(٢) المكابيون الأول ١٤ ى ٥ .

(٣) يوسيفوس : الحروب اليهودية الكتاب الأول الفصل ٢١ .

العلوم والمعارف

الكون

العلم والدين فى الشرق القديم شىء واحد فالدين لاهوت وناسوت أعنى يهتم بالعالمين السماء والأرض . الدين يعنى إلى جانب السماء وما يجرى فيها الأرض وما يعتورها أو يجرى عليها . فكل حركة فى الاجرام السماوية لها دلالتها فى الأحداث الأرضية والكواكب ليست إلهة إلا أنها مظهر من مظاهر الإلهة التى تتجلى لنا أيضا فى الكون إلا أن خير مظهر لها هى الأحداث السماوية وذلك لأن جميع أنواع المعارف مصدرها الله لذلك جاء فى الأمثال « رأس الحكمة مخافة الله » وكل ما أوتى الإنسان من معرفة فمن الله حتى حكمة سليمان[1] .

ويعتقد الاسرائيليون أن الله تجلى فى فجر الإنسانية كثيرا جدا لذلك ظهر عدد كبير جدا من الحكماء[2] ومخترعى العلوم والفنون[3] وظهرت الزراعة[4] والمدن[5] والمهن والحرف[6] فجميع هذه الأشياء أوجدها الحكماء السبعة الذين ظهروا فى فجر الإنسانية والذين أوحى إليهم بها ، وحتى الملابس فإن الله هو أول من صنعها للانسان[7] .

---

(١) الملوك الأول ٣ ى ١٢ وص ٥ ى ٩ — ١٤ .
(٢) الملوك الأول ٥ ى ١١ .
(٣) تكوين ٤ ى ١٧ — ٢٣ .
(٤) أشعيا ٢٨ ى ٢٣ — ٢٩ .
(٥) تكوين ٤ ى ١٧ .
(٦) تكوين ٤ ى ٢١ — ٢٢ .
(٧) تكوين ٣ ى ٢١ .

والارض تشبه السماء تماما والصورة التى كونها الاسرائيلى الأول لنفسه هى بعينها الصورة البابلية حيث ينقسم الكون إلى السماء والأرض والمياه وتنقسم المياه إلى منطقة القطب الشمالى السماوى حيث عرش الاله الوالد (انو) ثم سماء فلك كل من القمر وعطارد والزهرة والشمس والمريخ والمشترى وزحل .

ثم منطقة السماء الجنوبية حيث يوجد المحيط السماوى الأعظم (ابو) وهو مملكة اله البحار (أيا) وهو اله الحكمة والمعرفة .

وإذا تركنا العالم السماوى ونزلنا إلى العالم الأرضى وجدنا : الجو والأرض اليابسة ثم المحيط الأرضى الذى يحيط بالكرة الأرضية .

فإذا تركنا هذه الصورة البابلية وانتقلنا إلى الاسرائيليين وجدنا نفس الصورة ففى السفر الأول من التوراة أعنى التكوين نقرأ فى الاصحاح الأول التفرقة بين السماء والأرض فمقابل السماء نجد الأرض وكما نجد ماء فى السماء كذلك الحال على الأرض(١) وخلق الله الجلد = السماء والاجرام السماوية(٢) أعنى الأفلاك المختلفة إلا أن القاص الاسرائيلى لا يعرف تماما الفرق بين السماء العليا وما تحتها . ويعتقد حزقيال أن عرش الله فوق السماء(٣) .

كما أن السماء العليا هى مقر الله(٤) . وعند حديث التوراة عن الطوفان يرد ذكر الماء العلوى الذى يتدفق من نوافذ السماء(٥)

---

(١) تكوين ١ ى ٦ — ١٠ .
(٢) تكوين ١ ى ٧ — ٨ و ١٤ — ١٨ .
(٣) حزقيال ١ ى ٢٢ و ٢٦ وس ١٠ ى ١ .
(٤) الملوك الأول ٨ ى ٢٧ قارن التثنية ١٠ ى ١٤ .
(٥) تكوين ٧ ى ١١ وس ٨ ى ٢ .

وتعبر التوراة عن ماء السماء بلفظ « شحقيم » أى « الغمر » وعن ماء الأرض المتجمع فى المحيطات بكلمة (تهوم) أى لجة[١] وتأثر الاسرائيلى بالبابلى أيضا فى تقسيمه للأرض إلى الجهات الأربع شمال غرب جنوب شرق فهذا التقسيم مأخوذ عن التقسيم البابلى أعنى حسب جريان الشمس وعبورها لخط الاستواء السماوى سواء فى الاعتدالين أو الانقلابين أعنى شرق غرب شمال جنوب . ومنذ سيادة الإله مردوك فى بابل أصبح الشرق هو طلوع الشمس . وكما أن البابليين الأشوريين طمعوا فى توحيد العالم تحت سلطة ملك واحد اسوة بسيطرة كبير الآلهة على الكون حاول كثيرون تقليدهم فى هذا الرأى فجاء الاسكندر الأكبر واراد جمع شمل العالم تحت سيادته وكذلك أخذ الاسرائيليون هذه الفكرة وهم ينتظرون المسيح من بيت داود ليوحد العالم ويحكمه من عاصمته أورشليم . ولم يكتف الاسرائيليون بهذا الاقتباس عن البابليين بل قسموا أنفسهم إلى اثنى عشر سبطا حسب البروج الاثنى عشر .

التقويم

يعتمد الاسرائيليون على الأفلاك لتحديد الزمن وتقسيمه(٢) وهكذا الأمر عند العرب أيضا كما جاء فى القرآن الكريم « يسئلونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج . . . »(٣) .

وهذا أمر طبيعى فالدورة الصغرى للشمس تبين لنا الليل والنهار والكبرى العام ، وهكذا كان المصريون والبابليون ، فالدورة الكبرى تتم

---

(١) أيوب ٣٧ ى ١٨ ومز ور ٦٨ ى ٣٥ .
(٢) تكوين ١ ى ١٤ .
(٣) البقرة ى ١٨٩ .

فى ثلثمائة وخمس وستين يوما وربع اليوم وهى أيام السنة . ولما كانت الشمس فى دورتها تمر فى اثنى عشر برجا فقد قسم العام إلى اثنى عشر قسما (شهرا) وعدة كل شهر ثلاثون يوما ومن ثم قسم أيضا إلى اثنى عشر قسما كل قسم يقابل ساعتين فاليوم أربع وعشرون ساعة . وتقسيم اليوم إلى نهار وليل استتبع تقسيم العام إلى صيف وشتاء(١) .

وقدس الناس من اسرائيليين وغيرهم هذه الأفلاك وتلك الاجرام السماوية وجعلوا لكل يوما وهكذا أصبح لدينا الأسبوع سبعة أيام وكل يوم فى كثير من لغات العالم وعند معظم سكان المعمورة يحمل اسم كوكب من هذه الكواكب السبعة حسب الأسماء التى أطلقوها عليها فنحن نجد القمر = Moon الانجليزى والألمانية Mond وإليه ينسب يوم الاثنين فيقال فى الانجليزية Monday والألمانية Montag والمريخ Mars يقابله فى الفرنسية Mardi أعنى الثلاثاء . وعطارد يطلقون عليه Mercur فى الفرنسية Mercredi أى الأربعاء وكوكب المشترى يسمى Jupiter وفى الفرنسية Jeudi والزهرة Venus فى الفرنسية Vendredi الجمعة . وزحل هو Saturn السبت فى الانجليزية Saturday ثم الشمس حيث تسمى Sun فى الانجليزية Sonne فى الألمانية أى Sunday فى الانجليزية و Sonntag فى الألمانية أى الأحد .

فالتقويم قديما وحديثا يعين أول العام حسب الفلك الشمسى أعنى إما حسب الاعتدالين أو الانقلابين ونحن نجد العام البابلى يبدأ بالاعتدال الربيعى أعنى (مارس) وفى مصر صيفا (يونيه) والجزيرة العربية بما فيها

---

(١) تكوين ٨ ى ٢٢ .

فلسطين خريفا أعنى (سبتمبر) وينفرد التقويم الرومانى بالشتاء أعنى (ديسمبر — يناير) .

ولما انتقل الاسرائيليون إلى كنعان أخذوا التقويم الذى كان سائدا هناك أعنى تقويما خريفيا والعام ٣٦٥ يوما وعيد الخريف هو عيد قطف العنب وهو يأتى فى رأس السنة أعنى فى أول الخريف (سبتمبر)[١] ومن ثم نجد الاسرائيليين يهجرون هذا إلى التقويم الربيعى ولعل السر فى هذا التحول يرجع إلى الأحداث السياسية واستبدال تبعية دولة بأخرى . ولما وقع اليهود فى السبى وانتهت دولتهم ذهب معها أيضا تقويمهم وأخذوا التقويم البابلى وهو تقويم ربيعى ولما خضع الاسرائيليون للسيادة السلجوقية أخذوا تقويمهم حيث يبدأ العام فى ربيع عام ٣١١ وهو تقويم اقتبسه السلاجقة عن الكلدانيين وذلك لأن العام السلجوقى كان عادة خريفيا . ثم فى عهد المكابى شمعون قامت دولة يهودية مستقلة اتخذت لها تقويما خاصا[٢] .

وقد ظل هذا التقويم مستعملا مدة قصيرة جدا إذ انتهى بموت شمعون عام ١٣٦ ق . م . وعادت ديانة يهوه إلى قوتها ثانية وفرضت العام الخريفى مرة أخرى ادعاء بأنه التقويم الموسوى[٣] فنجد عيد رأس السنة الاسرائيلى يقع فى أول الشهر السابع[٤] . وتذكر المشنا أن السنة الجديدة الشعبية أو كما تطلق عليها سنة الملوك تقع فى أول نيسان (ابريل) بينما حسب تعداد السنوات تبدأ السنة فى أول تشرى (اكتوبر) .

---

(١) خروج ٢٣ ى ١٦ وس ٣٤ ى ٢٢ :
(٢) المكابيون الأول ١٣ ى ٤٢ .
(٣) خروج ١٢ ى ٢ .
(٤) لاويون ٢٣ ى ٢٤ وعدد ٢٩ ى ١ .

أما الشهور عند الاسرائيليين فهى منذ أقدم عصورهم قمرية وعدة أيام الشهر ٢٩ — ٣٠ . وفى السنة الخريفية يبدأ الشهر عادة لما يصير الهلال بدرا بخلاف الحال فى السنة الربيعية إذ يبدأ الشهر بظهور الهلال ويطلق على الشهر عادة فى السنة الربيعية لفظ (حودش) أى (حديث) أعنى الهلال وقت ظهوره . أما فى السنة الخريفية فيطلق على الشهر لفظ (يرح) أى قمر أو شهر[١] ومن نصوص العهد القديم يتبين لنا أن لفظ (يرح) أقدم فى دلالته على معنى (شهر) من لفظ (حودش)[٢] .

وفى هذا المعنى نجده فى الكنعانية والفينيقية . والاسرائيلى يستقبل ظهور الهلال بالهتاف « هلال » إذ أن هذه المادة تفيد فى اللغة العبرية « أضاء أشرق احتفل عظم حمد مدح » ولفظ « هللويا » يفيد التسبيح لله كما أن لفظ « هلوليم » يفيد الاحتفال بالعيد ثم عيد الخريف[٣] .

أما أسماء الشهور الاسرائيلية القديمة فلم تصلنا إلا أسماء أربعة منها وهى : (ابيب) وهو الشهر الأول ثم « ذو » الشهر الثانى وشهر « أثانيم » وهو الشهر السابع و « بول » وهو الشهر الثامن[٤] .

وفى السبى كان الاسرائيليون يعدون الشهور عدا أى الأول والثانى .. الخ . كما هو مشاهد فى مثل سفر الملوك الأول[٥] إذ جىء باسم الشهر الجديد إلى جانب عدده والعدد هو فى الواقع الأقدم بينما الاسم اقحمه المتأخرون على السفر[٦] لكن فى زكريا أيضا وفى عزرا ونحميا تظهر الأسماء الجديدة البابليه الأشورية فى العهد القديم[٧] .

---

(١) تكوين ٣٧ ى ٩ مزمور ٧٢ ى ٥ وأشعيا ٦٠ ى ٢٠ .
(٢) الملوك الأول ٦ ى ٣٧ ... وس ٨ ى ٢ ...
(٣) القضاة ٩ ى ٢٧ :
(٤) خروج ١٣ ى ٤ والملوك الأول ٦ ى ١ وى ٣٨ وس ٨ ى ٢ .
(٥) الاصحاح ٦ ى ٣٨ .
(٦) الملوك الأول ٨ ى ٢ وحزقيال ١ ى ١ وحجاى ١ ى ١ وس ٢ ى١ وزكريا ١ ى ١ وى ٧ وس ٧ ى ١ .
(٧) زكريا ١ ى ٧ وس ٧ ى ١ ونحميا ١ ى ١ وس ٢ ى ١ وعزرا ٦ ى ١٥ .

أما أسماء هذه الشهور فكما يلي : —

١ — نيسان (تقريبا ابريل) ٢ . — أيار (مايو) ٣ . — سيوان (يونيه) ٤ — تاموز (يوليه) . ٥ — آب (أغسطس) . ٦ — أيلول (سبتمبر) ٧ . — تشرى (أكتوبر) ٨ . — حشوان أو مرحشوان (نوفمبر) ٩ — كسلو (ف) (ديسمبر) ١٠ — طبيت (يناير) ١١ — شباط (فبراير) ١٢ — آذار (مارس) .

الأسبوع

الأسبوع عند الاسرائيليين سبعة أيام وقد اعتمدوا فى تحديد أيام الأسبوع على تقسيم الشهر القمرى قسمة غير علمية حسب مواقع القمر أو أنهم راعوا فى الأيام السبعة فكرة الكواكب السبعة ومن ثم حمل هذا العدد على أوجه القمر بالنسبة للشهر القمرى . أما أسماء أيام الأسبوع فهى إذا استثنينا يوم « السبت » عبارة عن أعداد . ثم بعد ذلك نجد الأسبوع يتحلل من علاقته بالشهر القمرى وأصبح أيضا أسبوعا شمسيا . أما متى تم هذا التحول فهذا ما لا نستطيع الاجابة عليه .

أما اليوم فبينما يبدأ عند البابليين صباحا إذ به عند الاسرائيليين مساءا أعنى يبدأ مع ظهور الهلال من أول الشهر القمرى لكن منذ أن انتقل الاسرائيليون إلى السبى أخذوا عن البابليين نظامهم الخاص أعنى أول اليوم يبدأ صباحا . وفى قصة الخلق[١] ينتهى اليوم بطلوع النهار لكن بعد السبى عاد الاسرائيليون إلى تقويمهم القديم ثانية . أما تقسيم اليوم إلى صبح وظهر ومساء فيتصل بالنظام اليومى للاسرائيلى وعلاقته بالطقوس

---

(١) تكوين ١ ى ٥ وى ٨ ..

الدينية إذ نجده يقدم قربان الصباح وقربان المساء[1] . وينقسم اليوم ، من شروق الشمس حتى غروبها إلى اثنتى عشرة ساعة ومن الجدير بالملاحظة أن هذا اللفظ ورد فى رسائل تل العمارنة « شتى » وفى العبرية « شاعه » وطول اليوم يتراوح بين اثنتى عشرة وأربع عشرة ساعة حسب طول النهار وقصره صيفا وشتاء .

الأبجدية

قليل منا من يفكر فى الجهود التى بذلتها البشرية منذ أقدم العصور لتستنبط أبجدية يتراوح عدد حروفها بين اثنين وعشرين وثمانية وعشرين حرفا لتدون فيها أفكارها وتخلد تراث أبنائها وتورثه الأجيال وتحفظه سائر العصور .

وقليل منا أيضاً من يفكر فى الجهد الذى بذل عندما تقع عينه على كتاب فى تاريخ هذه الإشارات المرصوصة إلى جوار بعضها والتى اصطلح على تسميتها « حروف » والتى تؤلف غالبا فيما بينها كلمات ومن الكلمات تخلق الجمل التى هى وسيلة التعارف وسر الحضارات وروح العمران .

والآن نسأل انفسنا أين نشأت هذه الأبجدية ومن اخترعها ؟ لا شك فى أن أقدم صورة من صور الأبجدية التى تستخدمها الكثرة المطلقة من سكان الأرض هى تلك التى نجدها فى النقوش السامية القديمة للشعب العربى العريق المعروف بالشعب الفينيق وقد اختلف العلماء منذ القدم فى الشعب الذى اخترعها فمنهم أمثال (لو كان

---

(١) الملوك الأول ١٨ ى ٢٩ و٣٦ والخروج ٩ ى ٤ ... ودانيال ٩ ى ٢١ ...

Lucan) و بلينيوس(Plinius) من يرى أن هذه الأبجدية من وضع الفينيقيين بينما يقول (بلوترك Plutarch) و (تاسيتوس Tacitus) وغيرهما أنها مصرية ، استعارها الفينيقيون قديما وأعاروها اقدماء الفرس واليونان ، وقد لقيت هذه الفكرة الأخيرة تعضيدا كبيرا فى القرن التاسع عشر الميلادى عندما حل(شمبوليون)عام ١٨٢٣ رموزالهيروغليفية فظهر أمثال (هـ . بروجش H.Brugsch) و (روجه Rougé) و (هاليفى Halévy) الذين كانو يرون فى الهيروغليفية أو الهيراطيقية الأصل الذى استمدت منه الفينيقية وجودها . لكن هذا الرأى ، لم يأخذ به نفر كبير من علماء المصريات أنفسهم مثل (كورت زيته K. Sethe) الذى كان يعتقد أن الفينيقية لم تؤخذ عن الهيروغليفية بل وضعها الفينيقيون أنفسهم وإن كانوا قد استعانوا بالمصرية القديمة بدليل الاعتماد على الحروف الصامتة فى كل من اللغتين للتعبير عن المعانى المختلفة وقد سرد (زيته) أمثلة أخرى كثيرة لتأييد رأيه ، لكن انبرى لمعارضته جماعة من رجال الأشوريات وعلى رأسهم (ف . دليتش F. Delitzsch) الذى نادى برأى وسط فقال أن الأبجدية الفينيقية نشأت تحت التأثيرين المصرى والبابلى ففيها من المصرية الأصوات ومن البابلية الخطوط والأشكال كما أنها تشتمل على عنصر فينيقى ، لكن رأى (دليتش) هذا اصطدم بمعارضة قوية واستمر الحال كذلك حتى ظهر عام ١٩١٦ بحث لعالم المصريات (جردينرGardiner) اعتمد فيه على مجموعة من النقوش عثر عليها العالم الأثرى (فليندرز بيترى Flinders Petrie) فى عامى ١٩٠٤ — ١٩٠٥) فى مناجم النحاس بسيناء فى المكان المعروف باسم (سرابيط الخادم) حيث بقايا معبد الالهة المصرية (هاتور) وقد أرجع (بترى) هذه النقوش إلى ما يقرب من عام ١٥٠٠ ق . م . واعتقد العلماء أنها مكتوبة بخط هيروغليفى وأنها مكونة من حروف بينها

وبين الفينيقية شبه عظيم مما جعل (جردنير) يعتقد أنه عثر على الأبجدية السابقة للفينيقية أو بمعنى آخر على حلقة الاتصال بين المصرية القديمة والفينيقية .

رحب (زيته) بهذا الرأى وقوى رأيه القائل أن جماعة من الهكسوس أو الساميين كانوا يعملون مع المصريين فى تلك المناجم هم الواسطة بين الخطين المصرى والفينيقى وأصبحت النظرية تعرف منذ ذلك الوقت بنظرية (جردينر — زيته) . لكن تصدى لهذا الرأى بعض العلماء وناقشوه . والواقع أننا للفصل بين هذه الأراء المختلفة يجب علينا أن نلحظ ظاهرة هامة فى الأبجدية الفينيقية إلا وهى ظاهرة استعمال الحروف الصامتة واهمال الحركات فى الكتابة للدلالة على المعانى وقصر الحركات على التفرقة بين تلك المعانى فالكتابة التى هذا شأنها تدلنا دلالة صريحة على أنها فى الأصل كتابة صور قصد بها قبل كل شىء التعبير عن الفكرة لا عن النطق وإذا راجعنا تاريخ الكتابة المصرية القديمة وجدناها هى التى يمكن أن تكون المثل الأعلى الذى استعان به العربى الفينيقى عندما فكر فى اختراع ابجديته .

فمبدأ استخدام الصورة للتعبير عن الفكرة مأخوذ ولا شك عن الهيروغليفية ، أما الأشكال التى استخدمها الفينيقى للدلالة على هذه الصور فمن اختراعه بدليل عدم وجود أى شبه بينها وبين الكتابة المصرية أو غير المصرية من الكتابات التى كانت معروفة فى ذلك الزمن وللقرابة القوية بين تلك الأشكال وبين المعانى الفينيقية الدالة عليها . وقد توصلنا إلى معرفة ترتيبها عن طريق الشعر التعليمى الوارد فى بعض أسفار العهد القديم العبرى حيث جاءت بعض القصائد التى يبتدىء كل شطر من أبياتها

بحرف من حروف الأبجدية الواردة مرتبة ترتيب « أبجد هوز حطى كلمن سعفص قرشت » . أما أسماؤها فقد عرفناها من كتابات أحبار اليهود ومن الترجمة السبعينية التى استخدمت الحروف اليونانية عوضاً عن العبرية فى نشرها للعهد القديم وقد تمكن العلماء أخيرا من الوصول إلى معرفة معانى تلك الحروف وهى كالآتى : —

(ألف) عجل . (بيث) = بيت . (جيمل) = جمل . (دالث) = باب . (واو) = وتد (زايين) = سيف . (يود) = يد . (كف) = كف . (ميم) = ماء . (نون) سمك « من نحش أو حنش » . (عين) = عين (ب) = فم . (ريش) = رأس . (شين) = سن « ش = س فى العربية » (تاو) إشارة للدلالة إلى النهاية .

أما الإشارات السبع الباقية فغامضة الدلالة .

وهذه الأبجدية الفينيقية التى استعارها قديما الفرس واليونان وعن الأخيرين انتقلت إلى سائر أمم العالم المتمدين وأضافت إليها الشعوب الهندية الاوربية التى استخدمتها وبعض الشعوب السامية الحركات هى آخر ما توصلت إليه الإنسانية وأن كان الاتجاه اليوم يميل إلى خلق إشارات أخرى صوتية لسد النقص الملاحظ خاصة فى الانجليزية إذ نجد الحرف الواحد يستعمل أحيانا فى نطق أكثر من صوت حسب موقع هذا الحرف من الكلمة وحسب نوع الحروف التى تليه أو تسبقه .

والآن نتساءل متى وصلت هذه الأبجدية إلى الاسرائيليين ؟ وماهى

الأبجدية التي استخدمها الاسرائيليون الأقدمون ؟ اختلف العلماء حول الإجابة على هذا السؤال فالعلامة هوجو فنكلر يعتقد أن الاسرائيليين الأقدمين استخدموا أولا الكتابة المسمارية وظلت مستخدمة حتى عصر الملوك (حزقياهو = الله قوه) (حوالى عام ٧٠٠ ق . م) وقد أيدت رأى فنكلر حفائر (جيزر) .

ومما يؤيد هذا الرأى أيضا أن الكتابة الكنعانية أبان عصر رسائل تل العمارنة كانت المسمارية ولم يأت الاسرائيليون معهم بكتابة ما من الصحراء بل استخدموا الكتابة التى كانت متداولة فى كنعان ولا شك فى أن الكتابة الرسمية التى استخدمها الكنعانيون فى تحرير الوثائق والمعاهدات كانت المسمارية ولو أن هذه لم تمنع الاحتمال بوجود أبجدية أخرى شعبية كانت مستعملة . وأقدم نص جاءنا مكتوبا بحروف الأبجدية هو نقش ميشع وهو مكتوب بالأبجدية السامية الشمالية التى كانت مستخدمة عند الكنعانيين ويرجع هذا النص إلى النصف الأول من القرن التاسع ق . م . وكذلك نقش زنجيرلى وقد كتب فيما بين القرنين التاسع والثامن ق م . . وفى حفائر (جيزر) عثر على نصين فى المسمارية أحدهما يرجع إلى عام ٦٤٩ والثانى إلى عام ٦٤٧ ق . م . وهذان النصان شرعيان أعنى من النصوص القضائية مما يشير إلى أن هذه الكتابة كانت حتى ذلك الوقت مستخدمة فى تحرير مثل هذه الوثائق .

ومن العبارة الواردة فى سفر أشعيا ص ٨ ى ١ والتى تطلب إلى اشعيا أن يكتب فى لغة إنسان يعنى اللغة الدارجة التى دون فيها يوشيا اصلاحه الدينى لا فى المسمارية (٦٢٢ ق . م .) فالقرن السابع قد يكون نهاية استخدام الكتابة المسمارية والاستعاضة عنها بالأبجدية

السامية الكنعانية . والنقش الكبير الوحيد الذى وصلنا فى الكتابة العبرية القديمة هو ذلك الذى عثر عليه عند نبع سلواح عام ١٨٨٠م بالقرب من القدس ويرجح أن هذا النص يرجع إلى عصر الملك حزقيا أعنى فى نهاية القرن الثامن ق . م .

وغير الكتابة الكنعانية نجد كتابة أخرى سامية شمالية وهى المعروفة باسم الأرامية وقد انتشرت مع اللغة الأرامية حتى أنه وصلتنا فيها كتابات ترجع إلى القرنين التاسع والثامن ق . م من أسيا الصغرى وأشور . وفى القرنين السادس والخامس ق . م . وصلتنا كتابات أرامية من بلاد العرب ومصر . ومن ثم أخذت تتطور الكتابة الأرامية حتى بلغت هذا النوع الذى يطلق عليه الربانيون اسم الكتابة المربعة . وتذكر المصادر الاسرائيلية أن عزرا هو الذى جاء بهذه الكتابة من السبي وهذا الخبر لا يحتمل الشك وذلك لأن اللغة الآرامية كانت لغة وكتابة هى اللغة الرسمية بعد السبى كما تغلغلت أيضا فى الشعب وأصبحت الكتابة المتداولة . أما العبرية القديمة فلم يبق أمامها بعد هذه الهزيمة إلا أن اقتنعت بأن تكون الكتابة المقدسة والتى دونت فيها حوالى عام ٤٠٠ ق . م . التوراة السامرية .

أما أقدم نص عبرى تتجلى فيه الخواص الآرامية فهو النص المعروف باسم نص عرق الأمير (فى شرق الأردن) وهو يرجع إلى عام ١٧٦ ق . م . أما النص المعروف باسم نص قبر يعقوب والذى عثر عليه فى وادى قدرون الذى يجرى شرق القدس ويصب فى البحر الميت فيرجع إلى القرن الاول ق . م . وهو فى الكتابة الآرامية .

وتدلنا النصوص الواردة فى العهد القديم على أن الاسرائيلى ، بالرغم

من ندرة الذين يجيدون القراءة والكتابة ، كان فى المسائل الرسمية يستعين بالوثائق المكتوبة وبخاصة فى حالات البيع والشراء والطلاق[١] .

وفى سفر أيوب نقرأ خبرا متعلقا بدعوى اتهام[٢] . كذلك من مستلزمات الطبقة الراقية الالمام بالقراءة والكتابة[٣] . أما السواد الأعظم من الاسرائيليين فقد كانوا أميين[٤] .

أما وسائل الكتابة فكانت أولا « اللوح »[٥] وذلك فى عصر استخدام المسمارية كما ظل مستعملا مع الأبجدية[٦] أما اللوح المكتوب فيطلق عليه الاسرائيلى « سفر » ، وكان الكاتب يكتب على اللوح بقلم من المعدن يحفر به فيه[٧] . أما التوقيع فكان بالخاتم .

ومع تطور الزمن استخدم الاسرائيلى البردى المستورد من مصر[٨] كما استخدم الرق أيضا وكان يدون عليه بالمداد[٩] بواسطة قلم من البوص يعده الكاتب بمديته الخاصة[١٠] . أما أدوات الكتابة فقد كان يحتفظ بها الكاتب فى منطقته[١١] .

---

(١) أرميا ٣٢ ى ١٠ والتثنية ٢٤ ى ١ .
(٢) أيوب ١٣ ى ٢٦ وص ٣١ ى ٣٥ .
(٣) صموئيل الثانى ١١ ى ١٤ والملوك الأول ٢١ ى ٨ والملوك الثانى ٥ ى ٥ وص ١٠ ى ١ وأرميا ٢٩ ى ١ .
(٤) أشعيا ١٠ ى ١ وص ٢٩ ى ١٢ .
(٥) أرميا ١٧ ى ١ وأشعيا ٨ ى ١ .
(٦) أشعيا ٨ ى ١ وأرميا ٣٢ ى ١٠ ...
(٧) أرميا ١٧ ى ١ وأيوب ١٩ ى ٢٤ وأشعيا ٨ ى ١ والخروج ٣٢ ى ٤ ..
(٨) أرميا ٣٦ ى ٢ ...
(٩) أرميا ٣٦ ى ١٨ .
(١٠) أرميا ٣٦ ى ٢٣ .
(١١) حزقيال ٩ ى ٢ .

الطب

يتفق عند الاسرائيليين مع ما خلفته لنا شعوب الشرق الأدنى واليونان والرومان على أن هذا الفن متأثر جدا بالطب البابلى · فسكان الرافدين يعتقدون أن الإنسان صورة مصغرة للوجود فجسده يتكون من نفس العناصر التى يتكون منها الكون أعنى اليابس والسائل والهوائى لذلك فالانسان عرضة لتأثر المؤثرات الفلكية الناجمة عن مواقع النجوم وحركاتها وهذه المؤثرات هى التى تلعب دورا خطيرا فى الأمراض التى تعترى الجسد وطريقة شفائه منها . وقد اثبتت التجارب حقا أن بعض الظواهر الطبيعية من رعد وبرق ومطر وتوالى الفصول من أكبر عوامل انتشار الأمراض . والرأى السائد أن الأمراض تختلف وقعا على المريض حسب ساعات النهار أو أيام الأسبوع فيقوى أثرها مثلا فى الأيام ٧ و ١٤ و ٢١ و ٢٨ ٠٠ من الشهر القمرى وهذا يؤكد أهمية العدد سبعة فى حالة المريض الصحية .

كذلك الأثر الفعال لبعض النباتات أو المعادن والأحجار فى شفاء المرض وإرجاع هذا الأثر إلى القوة الإلـهية الكامنة فيها يؤيد ولا شك العلاقة القوية بين الإنسان والوجود .

جمنا إلى وإذا أضفيع هذه المظاهر العقيدة القائلة بأن أمراضا كثيرة تصيب الإنسان بفعل الآلهة أو الجن وأن الشفاء منها أو اتقاءها لا يتم إلا عن طريق الطلاسم والتعاويذ أدركنا كيف أن الطبيب يتعاون مع الساحر عند شفاء الأمراض · فالطبيب يصف الدواء أو يجرى عمليته الجراحية بعد تشخيص المرض وقد حددت له شريعة حمورابى الأجر

والجزاء كما حذرته من الإهمال وعاقبته عليه . أما الساحر فيطرد الروح أو الأرواح الشريرة التى انزلت بالفرد هذه الأمراض وقد يحصنه ضدها ببعض الطلاسم ، والساحر فى جميع هذه الإجراءات إنما يستمد قوته من الآلهة .

وهذه الظواهر نجدها أيضا فى المجتمع الاسرائيلى فالأمراض العصبية أو العقلية من عمل الأرواح الشريرة فشاؤل وقع فريسة لهذه الأرواح الشريرة[١] . ونفس هذه الأمراض العقلية أو العصبية ظلت من عمل هذه الأرواح زمنا طويلا فنجدها فى المسيحية[٢] . وغير الصرع والجنون نجد أمراضا أخرى كالبرص أو الجرب وهى من عمل الشيطان أيضا[٣] . كذلك جميع الأمراض الجنسية وغيرها تنسب إلى (يهوه)[٤] .

أما السحر فقد أقبل عليه الشعب الاسرائيلى اقبالا عظيما وأصبحت الطلاسم من أكثر الوسائل رواجا للتغلب على الأمراض أو اتقاء شرورها وقد بالغ الاسرائيليون فى التعلق بالسحر والسحرة حتى اضطرت الشريعة إلى النهى عنه وأمرت بقتل الساحرة[٥] . وقد تفنن السحرة فى استخدام مختلف الوسائل التى يعتقدون فيها القوة للشفاء أو تحقيق الأغراض المختلفة ومن بين هذه الوسائل « البصاق »[٦] ومن هنا نفهم

---

(١) صموئيل الأول ١٦ ى ١٤ .
(٢) متى ٤ ى ٢٤ .
(٣) أيوب ٢ ى ٧ .
(٤) صموئيل الثانى ٢٤ ى ١٦ وص ٦ ى ٧ .
(٥) خروج ٢٢ ى ١٨ وتثنية ١٨ ى ١٠ — ١١ .
(٦) انجيل مرقس ٧ ى ٣٢ يوحنا ٩ ى ٦ ...

كيف أن الاسرائيلي يطلب من الكاهن أن يكون طبيبا[1] إلى جانب وظيفته الدينية . ولهذا السبب نفهم كيف أن اشعيا أباح لنفسه تقديم المشورة الطبية[2] .

المقاييس والمكاييل والموازين

شأن الاسرائيليين فى مقاييسهم ومكاييلهم شأن المصريين والبابليين فكما اقتبسوا عن الشعبين الكثير من العادات والعلوم والفنون كذلك الحال هنا فالمقاييس مأخوذة من أعضاء جسم الإنسان فنحن نجد الإصبع واليد والشبر والذراع والقدم وهذه الوحدات استخدمها قدماء المصريين كما أضافوا إليها القصبة . ويلاحظ أن الاسرائيليين كانوا يفرقون بين « ذراعين » ذراع ملكية وأخرى عادية وهى أصغر من الأولى كما أن هذه المقاييس عند الاسرائيليين لا تعنى أنها تتفق تماما ومقابلتها فى البابلية أو عند قدماء المصريين . إما المسافات البعيدة فاستخدم الإسرائيلي (لفظ)(كبره)وهو يقابل إما الفرسخ الفارسى أعنى٥٫٦٧ كم . أوال(شوينوس) المصرى القديم أى ٦٫٣ كم . ولقياس المساحات الواسعة استخدم لفظ (صمد)[3] . ومعنى هذا اللفظ فى العبرية « نير » أعنى المساحة التى يحرثها الثور أو الثوران فى يوم .

المكاييل

منها ما يستخدم للسوائل ومنها ما يختص باليابس ، فمن مكاييل السوائل

---

(١) لاويون ١٣ .

(٢) الملوك الثانى ٢٠ ى ٧ .

(٣) أشعيا ٥ ى ١٠ والملوك الثانى ٥ ى ٧ .

ما يعرف باسم « لوج » ويليه ال « قب » وهو يستخدم للسائل واليابس[١]، كما نجد ال « عومر » للحنطة وسائر الحبوب[٢] وفى الموضع الأخير يذكر على أنه عشر المكيال المعروف باسم (ايفه) لذلك يطلق عليه أيضا لفظ « عسرون »[٣] وقد تحددت قيمته العشرية[٤] .

وأكثر المكاييل تداولا للسوائل ال (هين)[٥] كما أن الأيفة لليابس ويقسم الهين إلى النصف والثلث والربع والسدس[٦] .

واختص الاسرائيليون الدقيق وما إليه[٧] بالمكيال المعروف باسم (سيا) .

هذه هى أشهر المكاييل الاسرائيلية وإن جاء ذكر أخرى فهى موضع شك واختلاف فى الرأى .

الموازين

تشير الآثار التى عثرت عليها البعثات العلمية الأثرية فى الشرق الأدنى أن الموازين البابلية انتقلت إلى سوريا فى القرن السادس

---

(١) الملوك الثانى ٦ ى ٢٥ .

(٢) خروج ١٦ ى ١٦ و ٣٦ .

(٣) لاويون ١٤ ى ١٠ وس ٢٣ ى ١٣ و ١٧ .

(٤) العدد ١٥ ى ٤ وس ٢٨ ى ٥ .

(٥) لاويون ١٩ ى ٣٦ .

(٦) خروج ٢٩ى ٤٠ ولاويون ٢٣ ى١٣ .

(٧) تكوين ١٨ ى ٦ وصموئيل الأول ٢٥ ى ١٨ .

عشر ق . م . وكانت الأثقال عادة تعبر عن شخوص حيوانات منها المفترس كالأسد أو المستأنس كالبط وقد انتقلت هذه الأثقال إلى الاسرائيليين فنجد الـ «شيقل» والـ «ماناه» ثم أثقلها الـ «ككار» . أما الشيقل فيزن تقريبا ٣٧ و ١٦ جراما بينما الككار نحو ٦٠ كيلو جراما . أما نصف المثقال فيعبر عنه فى العبرية بلفظ « بيقع » .

النقــود

والنقد يتبع العقيدة أيضا فى الشرق الأدنى فكما أن البابليين ربطوا بين العالمين السماوى والأرضى كذلك الحال فى مختلف شئونهم اليومية ، فالنقد كوسيلة هامة من وسائل البيع والشراء تطلب قبل كل شيء أستغلال المعادن الثمينة لقيمتها الذاتية مع صغر حجمها وخفة وزنها نسبيا وربط البابلى بين هذه المعادن والإجرام السماوية فجعل الفضة خاصة بالقمر ، والذهب بالشمس ، والنحاس خاصا بعشترت (الزهرة) والقمر والشمس والزهرة هى التى تسيطر على الكون وتتجلى فيها قوى كبار الآلهة ومن هنا نفهم السر فى اتخاذ البابليين للفضة قاعدة للنقد .

وماجرى فى بابل استخدمه أيضا الاسرائيليون منذ أن عرفوا النقد . فالفضة (كسف) هى القاعدة النقدية كما أن لفظ (كسف) يعبر عن النقد ذاته[١] .

أما القاعدة النقدية فالمثقال (شيقل) فاستخدم الاسرائيليون اللفظ الدال على الوزن للتعبير عن النقد كما هو الحال اليوم مثلا فى « درهم »

(١) خروج ٢١ ى ١١ والملوك الأول ٢١ ى ٦ .



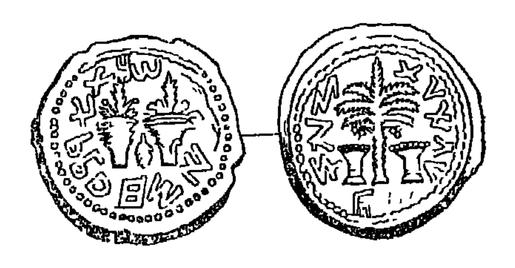
هذه نماذج من مجموعة النقود المحفوظة بمتحف الاسماعيلية وقد درسها ونشرها الدكتور عبد المحسن الخشاب وكثرتها ترجع الى الثورة الأولى التى ولدت فى القرن الأول الميلادى راجع :

Abd El - Mohsen El - Khashab. La Collection Numismatique du Musée D'Ismailia Le Caire 1960.





نقود من عصر هدريان لمستعمرة اليا كابيتولينا



نقود نحاسية نصف شيقل من عصر شمعون





تترادرخما من عصر اسكندر الأكبر

« للنقد والوزن » أو (بوند Pound) فى الإنجليزية وغيرها من بعض اللغات الأخرى للتعبير عن الوزن والنقد أيضا .

وكما نقسم اليوم القرش مثلا إلى نصف قرش وربع قرش الخ والجنيه إلى وحدات أخرى تنتهى بجزء من الألف أعنى (مليم) وهو اللفظ الفرنسى (مليم Millième) أى جزء من الألف كذلك عند الاسرائيليين حيث نجد الشيقل يقسم إلى وحدات مختلفة[١] .

وكان الاسرائيلى يضطر أحيانا إلى حمل ميزان للتأكد من قيمة قطعة العملة التى يحملها وكان يحمل هذا الميزان معه ويضعه فى كيس مع النقود ويضع الكيس فى منطقته[٢] .

واختص الاسرائيليون أيام عزرا ونحميا العملة الفضية بقطعة النقود المعروفة باسم (من)[٣] .

وكانت الفضة أكثر تداولا كعملة بين الاسرائيليين أكثر من الذهب كما ضربوا أيضا عملة أخرى فضية وهى الوزنة (ككار) وهى أعلى قيمة من ال (من)[٤] .

لكن عند دفع الجزية كان الاسرائيليون يدفعونها ذهبا[٥] والذهب هنا لم يدفع كعملة بل فى هيئة آنية ولو أن وزنها كان يقدر بالشيقل .

وغير الفضة والذهب استخدم الشرق الأدنى النحاس أيضا وإن كان

---

(١) صموئيل الأول ٩ ى ٨ وأرميا ٣٢ ى ٩ .
(٢) تثنية ٢٥ ى ١٣ ... وأشعيا ٤٦ ى ٦ والأمثال ى ١٦ ى ١١ .
(٣) عزرا ٢ ى ٦٩ ونحميا ٧ ى ٧١ .
(٤) الملوك الأول ٢٠ ى٣٩ والملوك الثانى ٥ ص ٢٢ .
(٥) الملوك الثانى ١٨ ى ١٤ وص ٢٣ ى ٣٣ .

العهد القديم لا يذكر شيئا عن استخدام الاسرائيليين له فى صك نقودهم وتذكر رسائل تل العمارنة هذا المعدن وأهميته فى صك بعض قطع العملة الكنعانية . كذلك تحدثنا الآثار المصرية عن عناية قدماء المصريين به لتحقيق نفس الهدف أيضا وكانوا يطلقون على قطعة العملة النحاسية (اوتن) .

وإذا أردنا تقويم العملة الاسرائيلية الفضية بالجرام وجدناها كالآتى :ـ

١ ــ شيقل (مثقال) = ١٤ر٥٥ جرام .

١ من = ٥٠ شيقل = ٠ر٧٢٧ جرام .

١ ككار = ٦٠ من = ٣٠٠٠ شيقل = ٤٣ر٦٥٩ كج .

أما العملات الحقيقية التى أخذت تنتشر بين الاسرائيليين مع تطور الظروف السياسية فكثيرة منها (الدركمون أو الأدركمون) الفارسى الأصل وهو الذى نجده فى اليونانية باسم (درخما)[١] . وهذه قطعة ذهبية ضربها

(داريوس هيستسبيس) لتستخدم كعملة فارسية وهى تزن ٨ر٤٠ جرام وتحمل صورة الملك راكعا أو واقفا وبيده اليسرى قوس وفى اليد اليمنى حربة أو صولجان وفى الوجه الآخر من العملة لا نجد شيئا إلا هبوطا فى سطح القطعة .

أما صك النقود الذهبية فكان من اختصاص الملك بينما النحاسية مباحة لكل فرد بخلاف الفضية التى هى من حق مجالس المدن والأقاليم .

---

(١) أخبار الأيام الأول ٢٩ ى ٧ وعزرا ٩ ى ٢٧ .

ولما آل الملك إلى الاسكندر الأكبر ظهرت العملة الذهبية المعروفة باسم (الكسندريوس Alexandreios) والفضية (درخما) و (تترادرخما) واستعملت بين الاسرائيليين فى فلسطين .

ورث البطالمة والسلاجقة الاسكندر وضربت نقود جديدة ، على وجه القطعة نرى رأس الحاكم أما الوجه الآخر فنجد ، فى العملة البطلمية الذهبية غالبا رمزا يمثل ثراء الدولة وعظمتها . أما فى العملة النحاسية أو الفضية فنجد النسر . لكن العملة السلجوقية تمتاز بأن الجهة الخلفية لقطعة العملة عليها عادة (ابولو) او (جوبيتر) جالسا على العرش أو (مينرفا) وأحيانا صورا أخرى .

أما الاسرائيليون فقد استعملوا الفرص القليلة التى أتيحت لهم ليتحرروا من الحكم الأجنبي تحررا جزئيا وعبروا عن هذا التحرر بضرب نقود خاصة بهم وذلك عندما نجح شمعون عام ١٤٠ ق . م . فى اعلان نفسه أميرا لليهود وكبيرا للكهنة فنحهم أنطيوخوس السابع سيديتيس حق ضرب النقود والنقود الفضية فقط وذلك لأن السيادة العليا ظلت قائمة فى سوريا [1] وجاء فى نفس المرجع أنه فى الفترة الممتدة بين عامى ١ — ٥ من هذا العصر أعنى « عصر اورشليم » ضربنا قطعا من الشيقل ونصف الشيقل الفضية . وعلى هذه العملة نقرأ عبارة « يروشليم هقدوشه » أى أورشليم المقدسة وإلى جوارها صورة زهرة الزنبق وعلى الوجه الآخر نشاهد كأسا كتب حولها « شيقل يسرائل » أو « حصى هشيقل » « أى » نصف شيقل (مثقال) . كذلك وصلتنا قطع اسرائيلية أخرى عليها الحرف (ش) وهو مختصر من كلمة « شنه » أى « سنه » فنجد

---

(١) المكابيون الأول ١٥ ى ٦ .

مثلا الحرفين « ش د » أى السنة الرابعة . وهناك نقود أخرى ترجع إلى عصر شمعون ذات قيم مختلفة فنجد ربع شيقل وقد كتب عليها « لجالت صيون » أى « محرر صهيون » من جهة وعلى الوجه الآخر « شنت أربع » أو « شنت أربع حصى » أى أربعة أعوام ونصف ، وكذلك « شنت أربع ربيع » أى أربعة أعوام وربع . كما نشاهد على القطعة الشعار الذى هو عبارة عن باقتين من الأغصان وبينهما ثمرة الأترنج وقد نجد شعاراً آخر وهو عبارة عن نخلة بين سلتين مملوءتين بالثمار .

وقد وصلتنا بعض القطع النقدية التى ترجع إلى العصر المتأخر للهسمونيين (المكابيين) وهى قطع نحاسية ونحن نجد شمعون خليفة (يوحنن هيركان) يستن أول سنة بين الاسرائيليين ويأمر بكتابة اسمه على العملة وتتميز هذه العملة بالنقوش التى على أحد وجهيها حيث نجد ثمرة أرجح أنها أترنجة بين شعارين يمثلان عظمة الدولة وعلى الوجه الآخر نقرأ « يوحنن هكوهن هجدول وحبر هيهوديم » « أى يوحنا الحاخام الأكبر ورئيس اليهود » أو نجد « يهوحنن هكوهن هجدول روش حبر هيهوديم » أى يوحنن الكاهن الأكبر رئيس المجتمع اليهودى » . وفى عصر متأخر نجد بعض الأمراء اليهود يسكون نقودا شبيهة بها . ثم جاء « الكسندريانيوس » وجدد فى سك النقود فسجل عليها لغتين فنجد مثلا على احدى القطع العبارة العبرية « يهوحنان هملك » وفى اليونانية بازيليوس ألكسندروس .

كذلك سك الهيروديون نقودا من النحاس وتمتاز نقود هيرودوس الأول بأنها تشتمل على كتابة يونانية فقط ولا أثر للعبرية فيها فنجد مثلا على قطعة عبارة « بازيليك هرودوس » . أى الملك هيرودوس . وعلى أحد وجهى القطعة النقدية نرى خوذة

فوق قاعدة . وعلى الوجه الآخر نجد شكلا يقوم على ثلاث قوائم وحوله كتابة . وهناك قطع نقود أخرى مرسوم عليها الهلب، كما تختلف الشعارات حسب الأمراء فالنقود التى ضربت فى عهد (اجريبا) مثلا تمتاز بالمظلة وثلاث سنابل وفى عهد المحتسبين الرومان نجد العملة النحاسية التى كانت تضرب فى فلسطين خالية من صورة القيصر مراعاة لشعور الاسرائيليين واستعيض عن الصورة بذكر اسم القيصر وإلى جواره غصن . أما العملة الفضية والذهبية فقد سببت صورة القيصر عليها استياء عظيما عند الاسرائيليين[١] .

وإلى الثورة الأولى (٦٦ — ٧٣) ميلادية ترجع فيما يرجح النقود النحاسية التى عليها الشعار الاسرائيلى والعبارة « حيروت صيون » « حرية صهيون » .

وفى الثورة الثانية (١٣٢ — ١٣٥م) اعتقدالقوم أنها وقت قيام الدولة المسيحية لذلك سارع الزعيمان اليعازر وشمعون إلى ضرب نقود فضية فصدرت قطع فضية ونحاسية ترجع إلى العام الأول وعليها الشعار المكتوب « لجلت يسرائيل » أى تحرير اسرائيل ومكتوب عليها « اليعازر هكوهين » أى اليعازر الكاهن أو « شمعون نسى يسرائيل » أى شمعون أمير اسرائيل .

وصدرت مجموعة أخرى من النقود فضية ونحاسية وعلى وجه القطعة اسم « شمعون وعلى الخلف » لحيروت يسرائيل « أى لتحرير اسرائيل » بدون تاريخ .

مجموعة أخرى فضية ونحاسية عليها اسم « شمعون » أو (أورشليم) وعلى الخلف العام الثانى لتحرير اسرائيل .

---

(١) المكابيون ١٢ ى ١٦ .

الدستور والإدارة

القبيلة

لا أمة بلا وطن بالرغم من أن الخلية الأولى للأمة أعنى القبيلة لا ترتبط بوطن خاص وهكذا كان الاسرائيليون قبل أن ينزحوا إلى أرض كنعان فالمجتمع الاسرائيلى لم يتبلور إلا فى أرض كنعان

وإبان حياة البداوة نجد القبيلة عبارة عن مجموعة من الأسر ترتبط فيما بينها بصلات القربى والنسب لا المصلحة العامة . وصلة الدم عادة تعتمد على انحدار الأفراد من أب للأسرة فالعلاقة بين الأفراد لا تتعدى الإخوة ومن هنا كانت الأسرة هى التى تعنى بحل مشاكلها حتى الثأر لم يكن يتعدى الأسرة قط وهو أمر لا يعنى القبيلة . ومن ثم نجد الأسر التى تربط بينها بعض صلات القربى أو النسب تتجمع وتتكاثر ثم ينضم إليها بعض العبيد أو بعض الأسر المستضعفة وهكذا نجد القبيلة تنشأ تدريجيا وتعاون على تقوية الروابط بين أفرادها وحدة المكان والمصلحة العامة . هذه هى العوامل التى لعبت دورا هاما عند تكوين المجتمع الاسرائيلى فى أرض كنعان . فهو مجتمع فنيت فيه قبائل كما دخلته قبائل أخرى حديثة.مجتمع دائم الحركة والتطور شأنه شأن المجتمعات الأخرى .

فالعهد القديم يحدثنا كيف أن قبيلة ما من تلك التى تكون المجتمع الاسرائيلى كقبيلة (دان) بلغت يوما ما مكانة عزيزة فى المجتمع فلقبت بلقب قبيلة أعنى (شبط) ثم فقدت مكانتها فأصبحت (بطنا) أو كما تسمى فى العبرية (مشباحاه)[١] .

---

(١) يشوع ١٩ ى ٤٠ والقضاة ١٨ ى ١١ .

وكما أن المجتمع البدوى العربى يوجهه شيوخ القبائل متعاونين مع شيوخ الأسر كذلك الحال فى المجتمع الاسرائيلى حيث نجد مجلس الشيوخ والذى يعرف باسم (ذقنى يسرائيل)

ويتمتع الفرد فى المجتمع الاسرائيلى مثله مثل البدوى فى القبيلة العربية بالحرية الكاملة فالفرد فى زمن السلم يرتبط بقبيلته لا برباط المكان بل برباط كفالة الحرية الفردية حرية الفكر وحرية الكلمة وحرية التنقل . ليست الرابطة بين أفراد المجتمع البدوى عربيا كان أو اسرائيليا رابطة المكان أو الطقس وجمال الطبيعة وماتدره الأرض على الفرد من زاد لطعامه أو كلأ لدوابه بل رابطة كفالة الحرية وإذا ما تعرضت حرية الفرد الشخصية لأى انتقاص قطع مابينه وبين أهله من صلة ورحل إلى حيث الحرية مكفولة والكرامة موفورة ولعل خير شاهد على هذه المكانة المرموقة التى بلغها البدوى لأمية الشنفرى حيث يقول :

أقيموا بنى أمى صدور مطيكم فإنى إلى قوم سواكم لأميل

ويعنى الشاعر هنا بنى أمه القبيلة الأزدية المعروفة ببنى سلامان ابن مفرج وهم الذين عناهم بقوله :

جزينا سلامان بن مفرج قرضها بما قدمت أيديهم وازلت

أما القوم الذين انتقل إليهم فهم بنو الحرث بن ربيعة بن الأوس وفيهم يقول :

وهنىء بى قوم وما أن هنأتهم وأصبحت فى قوم وليسوا بمنبتى

وقد ردد تعبير الشنفرى فى هذا البيت كثيرون أمثال عروة بن الورد فى قوله :

أقيموا بنى لبنى صدور ركابكم .

ويستطرد الشاعر العربى الحر فى لاميته فيقول :

وفى الأرض منأى للكريم عن الأذى
وفيها لمن خاف القلى متعــزل

ويردد هذا المعنى غيره كثيرون مثل معن بن أوس فى قوله :

وفى الناس إن رثت حبالك واصل وفى الأرض عن دار القلى متحول

وقال المتلمس :

وفى البلاد إذا ما خفت فائدة مشهورة عن ولاة السوء مبتعد

وهذه ظاهرة بعينها نجدها أيضا فى أفراد القبائل البدوية التى تكون منها المجتمع الاسرائيلى كما يحدثنا العهد القديم . ففى الحجاز نجد مثلا الكعبة تحج إليها القبائل العربية المختلفة كذلك الحال مع الاسرائيليين فقد كانوا يقدسون مقدسات سيناء والتابوت المقدس مما يؤيد أن حياة البداوة كانت تجمع بينها مقدسات بعينها تؤلف بين القبائل فى حلها وترحالها . وكما نجد قريشا فى الجاهلية تتولى سدانة البيت كذلك الحال مع اللاويين عند الاسرائيليين .

وأسباط المجتمع الاسرائيلى اثنا عشر سبطا ينتسبون إلى أبناء يعقوب الإثنى عشر والذين رزق بهم من زوجتيه « ليا » و « راحيل » ومن جارية « ليا » واسمها (زلفه) وقد كانت محظية يعقوب وكذلك (بلها) جارية (راحيل) وكانت المحظية الثانية . ويضاف إلى أولاده من هؤلاء الأربعة حفيداه (افرايم) و (منشى) ابنا يوسف فالبطون الاسرائيلية حسب أمهاتهم كالآتى :

ليا : روبين — شمعون — لاوى (ليفى) — يهوذا — يساكر — زبولون .

وولدت ليا ليعقوب ابنة دعت اسمها « دينا »

زلفة (جارية ليا) جاد — أشير .

راحيل — يوسف — بنيامين .

بلهة (جارية راحيل) : دان — نفتالى .

يوسف : افرايم . منشى .

أما ترتيب هؤلاء الأبناء حسب ميلادهم فكالآتى : روبين شمعون ليفى . يهوذا . دان . نفتالى . جاد . اشير . يساكر . زبولون . يوسف . بنيامين ثم نجد الحفيدين منشى وافرايم[1] .

أما العدد اثنا عشر فليس حقيقة بل نظريا فقط بدليل هذا المجهود الذى بذل لاتمام العدد فمثلا إما يذكر « ليفى » وفى هذه الحالة يذكر « يوسف » كسبط واحد فقط[2] وإذا لم يذكر ليفى يقسم « يوسف » إلى « افرايم » و « منشى » فيتضاعف العدد[3] .

ونلاحظ أن العدد هنا أعنى اثنى عشر يتكرر فى مواضع كثيرة بالعهد القديم فاسماعيل ولد له اثنا عشر ولدا[4] كذلك « عيسو »[5] و (ناحور) ولد له اثنا عشر ولدا[6] .

---

(١) تكوين ٢٩ ى ٣٢ وس ٣٠ ى ٢٤ وس ٣٥ ى ١٦ — ١٨ وس ٤٨ ى٨ — ١٤ .

(٢) تكوين ٤٦ ى ١٩ — ٢٠ وس ٤٩ ى ٢٢ والتثنية ٣٣ ى ١٣ .

(٣) العدد ١ ى ٢٠ ...

(٤) تكوين ١٧ ى ٢٠ وس ٢٥ ى ١٣ :

(٥) تكوين ٣٦ .

(٦) تكوين ٢١ ى ٢٠ — ٢٤ .

ويرجح العلماء أن هذا العدد يتصل بعدد الأبراج . والواقع أن هذه القبائل أو الأسباط لا تفيد نقاوة جنسية أو عقائدية فما لا شك فيه أن كل قبيلة كانت خليطا من اسرائيليين وكنعانيين وغيرهم وخير مثال يضرب على قيام هذا الخليط قبيلة يهوذا وذلك لأننا نستطيع فى سهولة ويسر تتبع نشأتها وقيامها . فهى مزيج من عدد كبير من القبائل كانت تنزل فى جنوب البلاد . وهذا الاتحاد لم يتم تلقائيا فيما بينها لمصلحة عامة بل أرادها رجل قرر بسط سلطانه عليها فاتحدها معا وهذا الرجل هو داود .

وإذا أضفنا إلى هذا أن تسلل الاسرائيليين إلى كنعان وقع وهم فى طور البداوة بينما تخطى الكنعانيون هذا الطور من الحياة أعنى طور الحياة القبلية وبلغوا المرحلة التى كونوا فيها ملكيات صغيرة، فرسائل تل العمارنة تحدثنا أن كنعان كانت محكومة بعدد من الملوك الذين نجحوا فى ضم صفوف كثير من القبائل تحت تاج واحد أو أكثر . وكثيرا ما نشبت حروب بين هؤلاء الملوك لأن كلا كان يطمع فى مد حدود مملكته . وفى المدن والأقاليم نجد فى كنعان حكومات محلية على رأسها أفراد من كبار العائلات ، فلما جاء الاسرائيليون وأدركوا البون الشاسع بين الحضارة والبداوة وبين الاستقرار والترحال وحاولوا جاهدين التحلى بقبس من الحضارة الكنعانيه ففشلوا ، وذلك لأن الحضارة لا تنحط إلى مستوى طالبيها وبخاصة إذا كانوا فقراء إلى الثقافه فقر المجتمع الاسرائيلى وقتذاك . والذى حدث أن زعيم القبيلة الاسرائيلية فى الحرب والمعروف باسم « قاصين » فرض نفسه على القبيلة فى زمن السلم وأطلق على نفسه لقب (رئيس)[1] وأخيرا توج نفسه ملكا واستخدم القوة فى سبيل

---

(١) قضاة ١١ ى ٨ .

إخضاع القبائل الأخرى إلى سلطانه هكذا فعل (يفتاح) فى منشى[١] و (جدعون) وابنه (ابيملك) الذى توج نفسه ملكا فى شكيم[٢] و (شاؤل)و (داود) .

الملكية الاسرائيلية

لا نعنى هنا بعرض الملكية وقيامها فى المجتمع الاسرائيلى فهذا من شأن المؤرخ وعمله والذى يهمنا وبصفة خاصة ما يقال عن الملكية كنظام حكم فى المجتمع الاسرائيلى وهنا يجب أن نستعرض الآراء قديمها وحديثها ونسلط الأضواء على النقط الأساسية التى تتخاصم فيها النظريات وتتعارض .

وبينما نجد الآراء القديمة تعرض للملكية على أنها منحة من الله وخير وبركة للشعب إذ بنا فى العصور المتأخرة نرى فيها لعنة حلت بالمجتمع الاسرائيلى فباعدت بينه وبين الله وتقاسمته المصائب والنكبات وينادى بهذه النظرية رجال الدين الاسرائيلى الذين يعرضون لنظام الحكم فى اسرائيل ويحاولون توجيهه الوجهة التى تروق لهم . فتدعى هذه النظرية اللاهوتية أن كل شيء احتاجته الأمة الاسرائيلية لاقرار النظام وسلامة الحكم كان متوفرا لديها قبل قيام الملكية فعلى رأس المجتمع كان يقوم (يهوه) فهو الذى يحكم بواسطة خدمه أعنى رجال الكهنوت أو بتعبير أدق كبير الكهنة . وفيما يتعلق بالمسائل الدنيوية مثل الحروب فقد كان يقوم عليها القاضى (شوفط) والذى كان يشغل هذا المنصب طيلة حياته كما أن وظيفته هذه لم تكن وراثية . ويرى

---

(١) قضاة ١١ ى ٦ .

(٢) قضاة ٨ — ٩ .

الكهنة ان اختيار المجتمع الاسرائيلى للنظام الملكى رفض لسلطان (يهوه) ، واختيار الملك إنما هو تقليد للشعوب الوثنية التى تفضل الملك على الكاهن والقاضى[١] .

ويجب ألا يتبادر إلى أذهاننا أن لفظ (قاضى) هنا يشير إلى المعنى المتداول بيننا لغويا أعنى ذلك الموظف أو الشخص الذى يفصل فى مشاكل القوم، فلفظ (شوفط) فى الواقع يستخدم فى سفر « روث » بمعنى والى أو حاكم لكن أحيانا يرد فى أسفار أخرى مثل عاموس[٢] بمعنى « ملك » . ومن مقدمة سفر القضاة[٣] يفهم أن القاضى كان يتمتع بحق مقدس يمنحه اياه (يهوه) لكى يحرر الشعب من معصية ارتكبها فعاقبه (يهوه) لهذه الخطيئة وأسلمه إلى طاغية مستبد ومن ثم تاب الشعب فغفر الله له .

وقد تكرر هذا الصنيع أربع عشرة مرة منذ موت « يشوع » حتى مجىء شاؤل وتوليه الملك . فحكام المجتمع الاسرائيلى فى تلك الأعوام كانوا يسمون القضاة لأن كلا منهم كان يصدر حكما على الحاكم المستبد المذل للمجتمع وذلك بتحرير المجتمع من ظلم الظالمين . لكن كل ماجاءنا فى سفر القضاة يجب ألا نؤمن به دون بحث وتفكير فقد وصلتنا للقضاة قصص بعضها تاريخى هام مثل قصيدة « دبوره » أو قصة ابيملك كما جاءتنا قصص أخرى خرافية . أما قصة « شمشون » فمن القصص الشعبي، وقد تكون أسطورية الأصل .

---

(١) صموئيل الأول ٨ ى ١ ــ ٩ .
(٢) الاصحاح ٢ ى ٣ وثنية ١٧ ى ٩ وى ١٢ .
(٣) الاصحاح ١ و ٢ ى ١١ ــ ٢١ .

كذلك لا يخلو سفر القضاة من متناقضات حول القصة الواحدة فبينما مثلا نجد (باراق) هو الذى هزم (سيسرا) إذ بنا فى رواية أخرى يذكر (سيسرا) كقائد لجيش الملك (يابين) ملك (حاصور)[١] وهناك رواية أخرى تنسب هذا النصر إلى قبيلة (نفتالى) التى هى قبيلة باراق[٢] .

وإذا تركنا نظرية رجال الدين الخاصة بالملكية ورفضها وتتبعنا نفس الفكرة عند مفكرى المجتمع الاسرائيلى وموقفهم من الملكية وجدناها تؤيد رأى أولئك الذين يؤمنون بالملكية وضرورة قيامها شأن المجتمع الاسرائيلى فى هذا الرأى شأن المجتمعات الشرقية القديمة . والرأى المناصر للملكية يعتقد أن الله هو الذى يختار الملك والله هو الذى يمده بالسلطان والعدالة وهو يحكم بفضل الله،والملك أكثر من هذا يمثل الله على الأرض وهو صورته فالمجتمع كان يعتقد أن الله ماهو إلا ملك الملك . ويحدثنا العهد القديم مقررا هذا الحق السماوى وهذه العلاقة بين الله والملك فيذكر فى (المزمور)[٣] مانصه « أما أنا فقد مسحت ملكى على صهيون » و « ويأمن بيتك ومملكتك إلى الأبد أمامك . كرسيك يكون ثابتا إلى الأبد » وفى موضع آخر[٤] نقرأ « قطعت عهدا مع مختارى حلفت لداود عبدى إلى الدهر اثبت نسلك . . . »

والنتيجة المنتظرة لهذه العقيدة هى تقديس الملك وهذه الظاهرة نجدها عند الاسرائيليين وفى بابل ومصر .

فالملك كمبعوث شخصى لله هو كبير الكهنة لذلك نجد شاؤل وداود

---

(١) قضاة ٤ .
(٢) قضاة ٤ ى ٦ .
(٣) ٢ ى ٦ وصموئيل الثانى ٧ ى ١٦ .
(٤) مزمور ٨٩ ى ٣ — ٤ .

يقدمان القرابين[١] متبعين الطقوس الكهنوتية التى كانت من اختصاص كبير الكهنة ، وذلك لأن تقديم القرابين العادية كان من حق كل فرد لكن هنا نجد داود يرتدى الثوب الكهنوتى الخاص (افود) بالطقوس . كما نجد كلا من داود وسليمان يبارك الشعب ككاهن[٢] .

كذلك كان الملوك عند جلوسهم على العرش يمسحون أعنى يكتسبون صفة الكهنوتية . ونتيجة المكانة الكهنوتية للملك والتى بلغت ذروتها أيام سليمان أن تضاءلت سائر الطقوس الأخرى وبخاصة عندما اكتسبت الكهنوتية الصفة الملكية فأصبحت عملا رسميا له إدارته وموظفوه ولهذا التطور أثره البالغ فى الديانة الاسرائيلية وما طرأ عليها مع مرور الزمن .

والملك كان كذلك قائد الجيش إبان الحرب ومعنى هذا القضاء تدريجيا على الأسر والقبائل الاسرائيلية التى كانت من قبل هى التى تتولى الدفاع فتحظى بشرف النصر . واستتبع قيام الملكية وتولى الملك قيادة الجيش إبان الحروب إنشاء جيش عامل تولى قيادته وتدريبه رجال من قبل الملك ويدينون بالولاء له ولعرشه كما أصبحت مهنة الجيش مهنة ثابتة للجندى والضابط والقائد وقد حرص الملك على إسناد المناصب الرئيسية فى الجيش إلى أقاربه والمخلصين له ولبيته . ولم يقف الأمر عند هذا بل نجد شيوخ القبائل أو البطون لا يبلغون مكانتهم عن طريق منزلتهم من أهل القبيلة أو السبط بل عن طريق النفوذ الملكى ودرجة اخلاصهم للعرش .

ومن آثار قيام الملكية فى المجتمع الاسرائيلى إيجاد حكومة مستقرة

---

(١) صموئيل الأول ١٤ ى ٣٣ ... وصموئيل الثانى ٦ ى ١٣ ...
(٢) الملوك الأول ٨ ى ١٤ وصموئيل الثانى ٦ ى ١٨ .

تسهر على مصالح الشعب واستقرار الأمن فى ربوع البلاد ومن أهم دعائم الاستقرار العدالة ، والشخص الذى يستطيع رعايتها وخدمتها هو القوى ومن أقوى من الملك ؟ وهكذا نجد الملك فى المجتمع الاسرائيلى يصير قاضيا وباسمه تصدر الأحكام حتى أصبح لفظ قاضى (شوفط) مرادفا للفظ « ملك »[١] .

وأيلولة القضاء إلى الملك جردت أولئك الذين كانوا يباشرونها من رؤساء الأسباط والكهنة منها . وعلى حساب جميع هذه الحقوق التى اكتسبها الملك تكاثرت طبقة الموظفين الملكيين واكتسب هؤلاء الموظفون الحق فى اصدار الأحكام باسم الملك .

ولم يقف أثر ظهور الملكية فى المجتمع الاسرائيلى عند استيلائه على وظيفة كبير الكهنة وقائد الجيش وقاضى القضاة الذى تصدر باسمه الأحكام بل نجح فى جعل الملك وراثة فى نسله ولو أن العهد القديم حفظ لنا من الأمثلة ما يشير إلى مبدأ الاختيار فالشعب هو الذى اختار شاؤل ملكا[٢] كذلك داود اختاره الأعيان ملكا[٣] . ثم عند وفاة شاؤل لم ينجح حفيده فى وراثة العرش وذلك لأن الله أراد أن يحرم بيت شاؤل منها ويمنحها لبيت داود .

كذلك عند موت سليمان نجد الله يتوج (يروبعام) ملكا على البطون العشرة[٤] .

---

(١) أشعيا ١٦ ى ٥ وتثنية ١٧ ى ٩ و ١٢ والملوك الثانى ١٥ ى ٥ .
(٢) صوئيل الأول ١٠ ى ٢٤ .
(٣) صموئيل الثانى ٥ ى ٣ .
(٤) الملوك الأول ١١ ى ٣١

ومن هنا نتبين أن شرعية اختيار الملك تتم عن طريق الله لا عن طريق اختيار الشعب فاختيار الملك فى المجتمع الاسرائيلى لن يكون شرعيا إلا إذا تم عن طريق الله .

والآن نتساءل ماهى وظيفة الملك فى المجتمع الاسرائيلى ؟ الحكم وجمع الضرائب وعدا هاتين المهمتين لم يصلنا شيء عن النشاط الحكومى فنحن نجد مثلا الملك داود يقرر عمل إحصاء للمجتمع الاسرائيلى (صموئيل الثانى ٢٤) وهو يهدف من وراء هذا توزيع أعمال الدولة والجندية وجمع الضرائب . وهذا الهدف بعينه هو الذى حدا بسليمان إلى تقسيم المجتمع إلى اثنى عشرة محافظة[١] مع استثناء اقليم يهوذا السبط الذى ينتمى إليه الملك ، فقد استثناه حتى لا يعين له محافظا ولا يجبى منه أموالا وكانت نتيجة هذا التقسيم الجديد أن قضى سليمان على مواطن الأسباط ومنازلهم . وتشير المصادر التى وصلتنا إلى أن سليمان بالغ فى فرض الضرائب وتحصيلها فأثقل كاهل الشعب ومن ثم فقد أنفق هذه الأموال فيما لا ينفع الشعب بل على بذخه وبذخ بيته وهذه الضرائب الفادحة التى لم يكن للمجتمع الاسرائيلى بها عهد أيام شاؤل أو داود اضطرت النبى حزقيال أن يشرع فيما بعد تشريعا خاصا بميزانية التاج وهو اقطاعه أرضا خاصة يعيش وبيته من دخلها[٢] وهذا التشريع لم يكن بدعة بل عرفها المجتمع الاسرائيلى قديما[٣] . وبعد عصر السبى نجد العشور تخصص للملك[٤] .

---

(١) الملوك الأول ٤ ى ٧ ...

(٢) حزقيال ٤٨ ى ٢١ .

(٣) صموئيل الأول ٨ ى ١٢ .

(٤) صموئيل الأول ٨ ى ١٤ ... وص ١٧ ى ٢٥ .

كذلك نجد أيضا فى (عاموس)[١] تقديم أول حصاد العلف لماشية الملك[٢] .

أما موظفو الدولة فكانوا يلقبون جميعهم بلقب (سريم) وقائد الجيش يعرف باسم (سر عل كل هصباه) وهو يصدر الأوامر إلى الجيش فى الحرب فى حالة عدم حضور الملوك[٣] وغير هذا القائد نجد قائد الحرس الملكى (جبوريم)[٤] . وأعلى وظيفة فى الدولة كانت وظيفة كاتم السر (مذكير)[٥] .

وإلى جوار كاتم أسرار الدولة هذا نجد « كاتب الدولة »[٦] وكان يتولى جميع المراسلات بين الملك وموظفيه ومع الأمراء الأجانب . ومن الموظفين المرموقين أيضا رئيس السخرة ورئيس الجلادين وصاحب الملك وعبد الملك[٧] وغير هؤلاء الموظفين العظام نجد أيضا مدير البيت[٨] . أما حاكم المحافظة فكان ضابطا ويطلق عليه فى العبرية (نصاب) . أما موظفو الحاشية فكانوا كثيرين فمنهم الساقى والموكل بالملابس[٩] كما تحدثنا أخبار الأيام الأول[١٠] عن اثنى عشر موظفا كانوا يتولون الأمور المالية . كذلك نجد رجال التشريفة[١١] .

---

(١) الاصحاح السابع .

(٢) الملوك الأول ١٨ ى ٥ .

(٣) صموئيل الثانى ٨ ى ١٦ وص ١٢ ى ٢٧ وص ٢٠ ى ٢٣ والملوك الأول ٤ ى ٤ ...

(٤) صموئيل الثانى ٨ ى ١٨ وص ٢٠ ى ٢٣ .

(٥) صموئيل الثانى ٨ ١٦ وص ٢٠ ى ٢٤ والملوك الأول ٤ ى ٣ .

(٦) صموئيل الثانى ٨ ى ١٧ وص ٢٠ ى ٢٤ والملوك الأول ٤ ى ٣ .

(٧) صموئيل الثانى ٨ ى ١٨ والملوك الأول ٤ ى ٥ — ٦ .

(٨) أشعيا ٣٦ ى ٣ .

(٩) الملوك الأول ١٠ ى ٥ والملوك الثانى ١٠ ى ٢٢ .

(١٠) الإصحاب ٢٧ .

(١١) الملوك الأول ٢٢ ى ٩ والملوك الثانى ٨ ى ٦ وص ٩ ى ٣٢ ...

كذلك كان هناك موظف خاص للحريم . ولا يفرق الجهاز الحكومى بين التشريع والإدارة أو بين المدنيين والعسكريين فموظف الملك كان يمثل جميع السلطات عسكرية أو إدارية، جمع الضرائب أو القضاء ومن هنا نجد كيف تجمعت السلطات فى يد فرد . لذلك لا عجب إذا وجدنا الأنبياء يوجهون مر النقد إلى الموظفين فالموظف كان آلة فى يد الملك أو رجاله ينفذ كل ما يأمره به دون ابداء أى اعتراض[١] فكان الموظف يرتشى وتمتد يده إلى كل ما تصل إليه فهدف الموظفين جمع الثروات، وفى سبيل ذلك يقترفون مختلف أنواع الجرائم فالرشوة والتحيز من الصفات المميزة للموظفين كبارا كانوا أو صغارا لذلك لا عجب إذا تحطمت الوحدة الاجتماعية فى اسرائيل إبان قيام النظام الملكى .

أما فيما يتصل بالتشريع والعدالة والقانون العام الذى يحمى الشعب من طغيان الطغاة المستبدين فلم يعرفه المجتمع الاسرائيلى لذلك نجد سفر التثنية[٢] يعالج طغيان الملوك وانزلاقهم كما يعين مالهم وما عليهم من حقوق وواجبات تجاه المجتمع ، فهو يشرع لبيت داود احترام الشريعة وبخاصة ما يتعلق منها بواجبات الملك وحقوقه . فالملك مطالب عند توليه العرش بالتزام نصوص هذا التشريع الملكى[٣] . كذلك يحرم على الملك امتلاك الكثير من الذهب والفضة واقتناء الكثيرات من الزوجات والسرارى وحيازة كثير من الخيل . والدافع إلى وضع مثل هذا التشريع أن الملك يتولى الملك نيابة عن الله فسلطانه يجب ألا تحده شرائع إنسانية لذلك نجد المجتمع اليهودى يضفى روح القداسة على هذه التشريعات المتعلقة بنظام

---

(١) الملوك الأول ١٢ ى ١٠ ... وصموئيل الثانى ١١ ى ١٤ .
(٢) الإصحاح ١٧ ى ١٤ ــ ٢٠ ؛
(٣) تثنية ١٧ ى ١٨ ــ١٩ .

الملك صفة دينية فالملك نائب الله على الأرض وتنظيم هذه النيابة من عمل الله أيضا . فلم تبح الشريعة للملك ما حرمته على الإنسان فالملك وهو حامى القانون وراعيه يجب أن يخضع للقانون ، شأنه شأن غيره من أفراد المجتمع ، وحرم على الملك أن يغير ويبدل فى الشريعة وهنا نجد التشريع الاسرائيلى صورة صادقة لموقف الشريعة البابلية من الملك وسلطاته كما نتبينها من شريعة حمورابى . وأى تغيير فى الشريعة الاسرائيلية يجب أن يتم بروح الشريعة ذاتها ولا يتعارض معها والملك لا يملك حق تغيير القانون أو إصداره فالملك ليس هو المشرع والمشرع هو الله فقط وهذا التشريع يصدر إذا كانت الحاجة التى تمس الصالح العام ضرورية وفى هذه الحالة يتعاون الملك مع الشعب لإدخال التعديلات المطلوبة وذلك لأن الملك عند جلوسه على العرش يبرم هو والشعب معا عهدا مع الله وينص هذا العهد على احترام القانون[1] .

وهكذا نجد نظرية الملك وحقوقه تقع تحت طائلة القانون ولو أن الملك لم يتردد إذا ما وجد الفرصة سانحة فى الخروج على التشريعة وتعاليمها ولا يعدم الملك مبررا شرعيا يبرر عدوانه والعهد القديم يمدنا بكثير من الأمثلة الناطقة باستبداد الملك وطغيانه مثال ذلك « شاؤل » وكهنة (نوب) وداود واوريا ، وسليمان وأدونيا ، وأخاب ونابوت ويهو وبيت أخاب والملكة عثليا والأسرة المالكة[2] .

أما موقف المجتمع الاسرائيلى من هؤلاء الملوك الذين كانوا أحيانا يستبدون به فمختلف إذ بينما نجده متسامحا مع ملك مثل داود إذ به يثور لأتفه الأشياء ضد غيره .

---

(١) الملوك الثانى ٢٣ ى ٣ ونحميا ١٠ .
(٢) صموئيل الأول ٢٢ وصموئيل الثانى ١١ والملوك الأول ٢ و ٢١ و٢٢ ...

ويمتاز العصر الملكى عامة بأنه لم يتدخل فى شئون المجتمع طالما يسدد الممولون ما عليهم من ضرائب وإلا فالحكومة تتدخل لتحصيل مالها من أموال . وأهم التغييرات التى طرأت على المجتمع إبان الحكم الملكى رئاسة الجماعة إذ انتقلت من شيوخ القبيلة إلى شيوخ المدينة الذين كانوا أحيانا يباشرون الفصل فى بعض القضايا[1] .

قضى السبى الأشورى (القرن الثامن ق : م .) على المملكة الاسرائيلية وشرد عشرة أسباط اختفوا منذ ذلك الحين حتى يومنا هذا ثم جاء السبى البابلى (٥٨٦ — ٥٣٨ وعام ٤٥٠ ق . م .) فساق إلى السبى قبيلة يهوذا وهكذا شرد الاسرائيليون وجــلوا عن فلسطين إلا هذا النفر القليل جدا الذى كان يعنى بخدمة الأرض وتولت الهيئة الكهنونية تصريف أموره فحلت بذلك محل النظام الملكى ونجح الكهنة فى تطبيق تعاليم الشريعة فاكتسبوا ثقة القوم وحبهم وكان رئيس المجتمع الاسرائيلى الفلسطينى يلقب منذ ذلك الحين بلقب « ناسيا » أى أمير ومن هؤلاء الأمراء الذين حفظ لنا العهد القديم أسماءهم «شيشبصر»[2] وقد تولوا تدبير أمور الفلسطينيين بعد العودة من السبى . وذلك لأن يهوذا اصبحت ولاية يحكمها والى تعاونه حكومة تحت اشراف موظفين من فارس . أما مدى الحرية التى تتمتع بها تلك الولاية فكانت محدودة جدا كما نتبينها من سفر عزرا . وحتى هذا الكم الضئيل من الحرية كاد يتلاشى بعد «شيشبصر» إذ استغنى عن الأمير وألغيت وظيفته كما اختفى أيضا حاكم الولاية . وحتى إبان إمارة الأمير لم يتمتع الاسرائيليون بما يحفظ لهم بعض كيانهم الذاتى . كما أن حاكم الإقليم كانت سلطته

(١) اثنية ٢١ — ٢٢ .
(٢) عزرا ١ ى ٨ .

هى سلطة كبير الكهنة أيضا أعنى أنه جمع بين الوظيفتين هكذا روى زكريا فقال عنهما الممسوحين[1] وهذا فيما يتعلق بالحكم الداخلى للاسرائيليين لكن الحكومة الفارسية لم تعترف بقيام سلطة أخرى إلى جانب سلطانها والذى يمثله الوالى الذى تعينه .

أما مكانة كبير الكهنة فلم تعد إلى المجتمع ثانية إلا عن طريق القانون الذى عاد به عزرا من بابل والذى أصبح الدستور الجديد للمجتمع الاسرائيلى كما أنه ينص على الاعتراف بالسيادة الفارسية على البلاد وهذا القانون الذى جاء به عزرا هو ذلك الذى يعرف باسم شريعة الكهنة والواردة فى التوراة . وهذه الشريعة تضع كبير الكهنة على رأس المجتمع الاسرائيلى وحوله مجلس من الكهنة ولا يقوم إلى جانب كبير الكهنة حاكم مدنى وذلك لأن الأمل فى استرجاع الكيان الحكومى الإدارى للمجتمع الاسرائيلى كان قد تلاشى فعلا قبل عصر نحميا (القرن الخامس ق . م .) ومع هذا ضاع الأمل أيضا فى قيام الملكية .

لكن الشىء الجدير بالذكر أن حياة الاسرائيليين فى السبى أعنى فى بابل قامت فى رعاية تعاليم الشريعة الاسرائيلية فالاسرائيليون الذين انتقلوا إلى السبى انتقلوا قبائل وعشائر لذلك نجد كل سبط اسرائيلى يعيش فى كنف رئيسه القبلى والذى كان يتولى زعامته ويفصل فى قضايا أفراد سبطه . فكان هؤلاء الرؤساء القوامين على مصالح أسباطهم فنجدهم مثلا يطلبون من حزقيال رأى الله فى مسألة من المسائل التى تهم المجتمع الاسرائيلى فى بابل[2] .

وكذلك عند العودة إلى فلسطين نجد هذه العودة تتم حسب الأسر

---

(١) زكريا ٤ ى ١١ - ١٤ .

(٢) حزقيال ٨ ى ١ وص ٢٠ ى ١ .

والجماعات فنجد الأسباط تساهم فى تنظيمها كما أن الاثنى عشر زعيما ما هم فى الواقع إلا رؤساء أكبر الأسر الاسرائيلية[١] . ونظر الفرس إلى هؤلاء الرؤساء على أنهم يمثلون الاسرائيليين العائدين لذلك كانوا يخاطبون بهذه الصفة[٢] وهؤلاء الرؤساء ساهموا مع حاكم الاسرائيليين[٣] فى التخطيط لبناء المعبد . لكن سلطة هذا المجمع من الشيوخ كانت محدودة بجميع ما يهم المجتمع الاسرائيلى يجب أن يقرره الاسرائيليون أنفسهم[٤] .

وفى العصر اليونانى نجد نظام الحكم قد تطور تطورا لا بأس به وظل نافذ المفعول حتى تلاشت اسرائيل . فى هذا النظام : —

١ — رئيس المجتمع الاسرائيلى هو كبير الكهنة وإن كانت سلطته حددتها الدولة الأجنبية الحاكمة وصاحبة السيادة الحقيقية من ناحية ، والمجلس المكون الذى كان يشاركه السلطة من ناحية أخرى . وكان السلاجقة والهيروديون والرومان يعينون كبير الكهنة ويعزلونه متى شاءوا وكان كبير الكهنة يحتفظ بعد عزله بلقبه وجاهه[٥] .

٢ — وكانت كل جماعة اسرائيلية تحتفظ بمجلس شيوخها[٦] . وكان هذا المجلس غالبا من اللاويين كما أنه كان يباشر أعمال القضاء[٧] .

---

(١) عزرا ٢ ى ٢ ونحميا ٧ ى ٧ .
(٢) عزرا ٥ — ٦ :
(٣) عزرا ١ — ٦ .
(٤) عزرا ١٠ ى ٧ ونحميا ١٠ .
(٥) يوحنا ١٨ ى ١٣ .
(٦) لوقا ٧ ى ٣ .
(٧) أخبار الأيام الأول ٢٦ ى ٢٩ .

أصل وتطور التشريع الاسرائيلى

إن الباحث فى نشأة وتطور التشريع الاسرائيلى مضطر إلى دراسة أقدم وثيقة تشريعية جاءتنا من أرض الرافدين وهى أولى الوثائق التشريعية التى وصلتنا عن الشرق القديم وتعرف باسم « شريعة حمورابى » وحمورابى من أقدم الشخصيات العربية التى اقترن اسمها بالتشريع والتقنين فشريعة حمورابى تصور لنا المدى الذى بلغه مجتمعنا العربى فى الألف الثانى ق . م . فحمورابى هو الذى يفخر بقوله : أنا الذى أحمى الضعيف من بطش القوى وأزود عن الأرامل واليتامى وأمرت بحفر شريعتى على حجر لتبقى وأمام صورتى كملك يحمى العدالة ، وعلى المظلوم أن يأتى ويقرأ على نصبى « الحق » الذى يتعطش إليه والعدالة التى يرجوها . حمورابى كالأب لرعيته وقد وضعت لها ميثاقها لأضمن لها سعادتها ورفاهيتها :

ويذكر العهد القديم (التكوين ١٤) حمورابى تحت اسم (امرفل) ومعاصرا لإبرهيم . وشريعة حمورابى هذه جامعة شاملة وهى تنقسم إلى اثنى عشر بابا :

الأول من مادة ١ — ٥ اهتمت باقامة الدعوى والشهود والقضاة .

الثانى من مادة ٦ — ٢٥ السرقة والخيانة .

الثالث من مادة ٢٦ — ٤١ الأمور العسكرية .

الرابع من مادة ٤٢ — ٩٩ الحقل والحديقة والمنزل (الاستثمار والرى والرعى) .

الخامس من مادة ١٠٠ — ١٠٧ المعاملات التجارية .

السادس من مادة ١٠٨ — ١١١ المواخير .

السابع من مادة ١١٢ — ١٢٦ الأمانات .

الثامن من مادة ١٢٧ — ١٩٥ الأسرة .

التاسع من مادة ١٩٦ — ٢٢٧ العاهات والعقوبات .

العاشر من مادة ٢٢٨ — ٢٤٠ الأسعار وتحديدها وأمور أخرى تتعلق ببناء المنزل والسفن .

الحادى عشر من مادة ٢٤١ — ٢٧٧ استخدام العمال والحيوان .

الثانى عشر من مادة ٢٧٨ — ٢٨٢ الرق .

ولما استولى سرجون على فلسطين فى الربع الأول من القرن الثامن ق . م . انتقلت شريعة حمورابى إليها ومن ثم أخذت هذه الشريعة تفرض نفسها على المجتمع الاسرائيلى فنجد القصص الخاصة بالآباء الأولين تشير إلى أهمية شريعة حمورابى كما نجد المجتمع يقر حرق « تامار » لاقترافها الزنا وعقوبة الحرق هذه مستمدة من شريعة حمورابى وليست من الأحكام الاسرائيلية[1] .

كذلك زواج الأختين فى آن واحد قد وقع فى اسرائيل عندما خدع « لابان » يعقوب وأعطاه ابنته « ليئه » مخالفا الاتفاق الذى تم بينه وبين يعقوب ، زوجه باختها راحيل التى كان يحبها ومن أجلها خدم « لابان » سبع سنين[2] وزواج الأختين حرمته الشريعة الاسرائيلية فيما بعد

---

(١) تـكوين ٣٨ ى ٢٤ .

(٢) تـكوين ٢٩ ى ١٥ .

مما يشير إلى أن الجمع بين الأختين كان يتم قديما عملا بشريعة حمورابى التى تبيح هذا النوع من الزواج . ثم نجد زوجتى يعقوب أعنى ليئة وراحيل تعلنان أنهما وأطفالهما ترثان والدهما لابان وتوريث البنت فى الشريعة الاسرائيلية ممنوع وإباحته قديما اعتمادا على شريعة حمورابى[١] . كذلك التبنى كما اتخذه يعقوب[٢] لم يرد له ذكر فى الشريعة الاسرائيلية بينما تهتم به شريعة حمورابى كثيرا . وأوضح قصة جاءتنا فى التوراة تلك المتعلقة بساره وهاجر وهنا نجد المصادر الاسرائيلية القديمة تقف من هاجر وابنها وحقه فى الميراث موقفين مختلفين . فالقصة كما جاءتنا فى التكوين[٣] تصور هاجر على أنها الزوجة الثانية لابراهيم وأنها حرة ولابنها اسماعيل الحق فى الميراث[٤] وأن سارة لا تملك حق الاستبداد بها وإبراهيم فقط هو الذى يستطيع طردها والتخلص منها وهنا تتفق هذه الوجهة مع موقف شريعة حمورابى تماما . وهناك فى التوراة قصة أخرى تتعلق بهاجر وابنها وموقف ساره منهما فتعرض هاجر على أنها أمة[٥] وأن هذه الأمة تطاولت على ساره سيدتها فحق لها تجريدها من مكانتها التى بلغتها عن طريق النكاح وإعادتها إلى مرتبة الجوارى وقد نفذ إبراهيم اساره رغبتها واضطهدت ساره هاجر مما اضطرها إلى الرحيل .

وتأثر المجتمع الاسرائيلى بشريعة حمورابى أبعد مما سقت من أمثلة إذ أن هذا الأثر وجد طريقه إلى هذا المجتمع قبل أن ينزل الاسرائيليون فلسطين أعنى عندما كانوا يذرعون سيناء طولا وعرضا فالتوراة تحدثنا

---

(١) تكوين ٣٠ ى ١٦ .
(٢) تكوين ٤٨ ى ٥ .
(٣) اصحاح ٢ ى ٨ ...
(٤) تكوين ١٦ ى ١٠ .
(٥) تكوين ١٦ ى ٤ .

إن موسى عندما كان مهتما بوضع التشريع لقومه لجأ إلى « يثرو » كاهن مدين يستشيره فيما هو مقدم عليه وبخاصة بعد أن اقترن من ابنة « يثرو » وهى « صفوره »[١] ومعنى هذه الاستشارة أنه اقتبس شريعة عربية جنوبية إذ أن مدين وكل هذا الإقليم كان خاضعا للثقافة المعينية السبائية التى انتقلت من الجنوب إلى الشمال فى صحبة القوافل التجارية والتى نجحت وأسست كثيرا من المستعمرات على امتداد الطرق التى قطعتها . وإذا أضفنا إلى هذا أن البابليين الآشوريين أصحاب شريعة حمورابى وفدوا على أرض الرافدين من جنوب الجزيرة أدركنا الصلة القوية بين المعينيين السبائيين من ناحية وبين البابليين الآشوريين من ناحية أخرى وهذه العلاقات التشريعية والثقافية نشرت أضواءها فى مختلف أصقاع الجزيرة العربية وبخاصة حيث كانت تنزل قبائل عربية معينية سبائية كتلك المستعمرة التى استوطنت « مدين » .

فالصلة بين تشريع موسى وبين التشريعات العربية سواء كانت مدينية أو حمورابية قديمة جدا عرفها المجتمع الاسرائيلى قبل نزوله فلسطين . لذلك لا عجب إذا رأينا الاسرائيليين يألفون التقاليد والعادات والعرف وقوانين الأحوال الشخصية وغيرها التى كانت سائدة فى كنعان أو خارجها لكن الشىء الجدير بالذكر أن ارتباط التشريعين الحورابى والاسرائيلى أن تم مدنيا إلا أنه اختلف لاهوتيا وبخاصة فإن المكانة الثقافية التى تبوأها الشعب العربى البابلى كانت أعلى كثيرا من المنزلة التى بلغها المجتمع الاسرائيلى . فى هذا المجتمع نجد سلطان الدولة غير محكم بسبب النزعة القبلية ومن هنا نعلل قيام الثأر والرابطة القوية بين أفراد الأسرة فضلا عن التزاوج من الأقارب كذا تعدد الزوجات والذى كان قويا حتى أن

---

(١) تكوين ١٣ ى ١٣ .

العهد القديم لم ينجح فى استئصاله . وتعليل هذه الظاهرة أيضا أن أمة عظيمة كالأمة البابلية بلغت شأوا بعيدا من الحضارة والثقافة كان يجب على مشرعيها ألا يفرقوا بين جنس وجنس وطائفة وأخرى لذلك نجد فى تشريعها طابع الإنسانية العالمية بخلاف الحال فى المجتمع الاسرائيلى الصغير الفقير والذى لم ينهض برسالة عالمية كتلك التى نهض بها العربى البابلى ومن هنا نفهم سر تمسك وحرص الشريعة البابلية على المحافظة على الملكية وأخذ المعتدى أو السارق بأقسى العقوبات بخلاف الحال فى المجتمع الاسرائيلى فالتشريع الاسرائيلى تشريع مجتمع فى طور النمو لم يبلغ بعد المكانة التى تتطلب منه أن يعيش فى كنف قانون عالمى يفرق بين العقيدة والمجتمع ، فالاسرائيلى يعتقد أن كل مخالفة لتعاليم الدين مخالفة للقانون العام .

وأقدم وثيقة جمع فيها القانون الاسرائيلى وجاءتنا هى تلك الواردة فى سفر الخروج[١] وهذه الوثيقة تعرف باسم « كتاب العهد » ويكاد يكون نسخة أخرى من شريعة حمورابى . وينقسم هذا الكتاب إلى إلى قسمين يختلف كل عن الآخر شكلا وموضوعا فالقسم الأول يتناول المواد القانونية[٢] أما القسم الثانى فيعنى بالمسائل العقائديه[٣] هذا من ناحية الموضوع أما الأسلوب فلغة القسم الأول شرطية بينما جمل القسم الثانى أمرية . وإذا وجدنا بعض الاستثناءات فرجع ذلك بعض الاضطراب الذى وقع فى الكتاب من إضافة أو حذف وتكرار . وكتاب العهد حتى فى خصائصه صورة مطابقة لشريعة حمورابى فالجملة

(١) إصحاح ١٣ و ٢١ ى ١ — ٢٣ .
(٢) خروج ٢١ ى ١ إلى ص ٢٢ ى ١٦ .
(٣) خروج ٢٢ ى ١٧ إلى ص ٢٣ ى ١٣ .

الشرطية البابلية شرطية أيضا فى العبرية والمواد البابلية التى لم ترد فى كتاب العهد فعلة الاستغناء عنها عدم الحاجة إليها فى المجتمع الاسرائيلى كما نقرر أيضا أن اللغة العبريه لم تكن قادرة على التعبير على هذه المعانى القانونية التعبير الصادق لذلك لم يكتب كتاب العهد ليكون مرجعا قضائيا .

وفى العهد القديم نجد غير كتاب العهد سفر التثنية وهو يعتمد اعتماداً كليا على كتاب العهد وعلى شريعة حمورابى .

وهناك مصدر تشريعى اسرائيلى آخر إلا وهو شريعة الكهنة وهو عبارة عن مجموعة الشرائع الواردة فى العهد القديم وخاصة بالكهنة فهو مجموعة نصوص مع شرح تاريخى . وفى ثنايا شريعة الكهنة نجد قانون القداسة[1] وهو يختص بالطقوس والكهنة والقرابين والأعياد وطهارة اللاويين كما أنه يذكر الحرق كوسيلة من وسائل الاعدام وبخاصة اعدام الذى يضطجع مع أمرأة وأمها[2] كذلك الحال مع ابنة الكاهن إذ تدنست بالزنا تحرق[3] .

وإذا تركنا العهد القديم إلى التلمود وجدنا شريعة المجتمع الاسرائيلى تتطور تطورا بعيدا وتخضع لأهواء الربانيين وتجافى تعاليم التوراة أحيانا وهذا مما عاون على قيام الثورة الدينية الخطيرة التى أنكرت قدسية التلمود ورفضته أعنى المذهب القرائى وذلك لأن الاسرائيلى لم يكد يندمج فى المجتمع الإسلامى وينضوى تحت راية الإسلام حتى تبين

---

(١) لاويون ١٧ — ٢٦ .

(٢) لاويون ٢٠ ى ١٤ .

(٣) لاويون ٢١ ى ٩ .

الفروق الشاسعة بين الشريعتين وبخاصة فيما يتصل بمكانة المرأة وحقوقها في الشريعتين الاسرائيلية والاسلامية وذلك لأن اليهود العرب ما كادوا يستقرون في أوطانهم الجديدة بعد أن أجلاهم المسلمون عن قلب الجزيرة صيانة للاسلام الناشيء من دسائسهم حتى اضطروا أن يحيوا في العراق والشام وفلسطين حياة قاسية حقا فهم الآن يخضعون دينيا لنظام تلمودي شديد يقيد من حريتهم الدينية وتقاليدهم القبلية فهم الآن بين أمرين إما أن يغيروا من أنفسهم وعاداتهم وطبائعهم وإما أن تتغير أحكام التلمود وبخاصة ما يتعارض منها والحياة الاجتماعية للمجتمع الاسلامي العربي .

· قديما كانت العقيدة اسرائيلية ووثنية واليوم اسرائيلية واسلام وإذا ذكرنا الإسلام فانما نعني دينا فتيا لم يتأثر بعد بفقه الفقهاء وتأويلات المتأولين . الاسلام دين التسامح ويقدس حرية العقيدة « لا اكراه في الدين »[١] « وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر »[٢] و « إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا »[٣] و « إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها »[٤] و « قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها »[٥]

— وإذا تركنا العقيدة إلى الأحوال الشخصية وجدنا القرآن الكريم يعنى بهذه الناحية الانسانية عناية كبرى فينظمها المجتمع الاسلامي تنظيما

---

(١) سورة البقرة ى ٢٥٦.
(٢) سورة الكهف ى ٢٩ .
(٣) سورة الإنسان ى ٣ .
(٤) سورة الإسراء ى ٧ .
(٥) سورة الإنعام ى ١٠٤ .

لم تأت الشريعة الحديثة بخير منه فالمرأة تتبوأ مكانا رفيعا فيوحى إليها كما يوحى إلى الرجل « وإذ قالت الملائكة يامريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين[١] و « إذ أوحينا إلى أمك مايوحى »[٢] .

« وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فاذا خفت عليه فألقيه فى اليم ، ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين »[٣]

وفى آيات أخر يقرر الإسلام المساواة بين الرجل والمرأة « فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكرا وأنثى بعضكم من بعض »[٤] و « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون »[٥] .

فمن هذه الآيات وغيرها يتضح لنا أن المرأة والرجل سيان أمام الله ، وسيان فى الحياة الدنيا فلها الحق فى الميراث والملكية وتتصرف فيما تملك تصرف الرجل « وآتوا النساء صدقاتهن نحلة فان طبن لكم عن شىء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا »[٦] و « للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا »[٧] و « وللرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن »[٨] .

---

(١) آل عمران ى ٤٢ .
(٢) طه ى ٣٨ .
(٣) القصص ى ٧ .
(٤) آل عمران ى ١٩٥ .
(٥) النحل ى ٩٧ .
(٦) النساء ى ٤
(٧) النساء ى ٧ .
(٨) النساء ى ٣٢ .

فمن هذه الآيات وغيرها نرى المكانة التى تتبوأها المرأة المسلمة ».
فإذا ما قابلنا بينها وبين اليهودية وجدنا الأخيرة تخضع لتعاليم وشرائع
ليست من التوراة فى شيء وإنما هى من وضع ربانى اليهود وقد ضمنوها
التلمود . وهذه التعاليم التلمودية وضعت المرأة الاسرائيلية فى منزلة
دون تلك التى فرضتها عليها التوراة والأخيرة أقل بكثير من حقوق
المراة المسلمة سواء فى الزواج أو عند وفاة الزوج أو فى حالة الطلاق
والميراث والتصرف فى الملكية وغيرها ويكفى القارىء أن يراجع التلمود
البابلى « سيفر نشيم » الفصول « كتوبوت » و « حطين » و « سوطاه
قدوشين » ويقابل بين هذه التعاليم وتلك التى نجدها فى الشريعة الاسلامية .
ومن هنا ندرك السبب الذى من أجله لجأت المرأة الاسرائيلية إلى المحاكم
الشرعية الإسلامية للفصل فى القضايا التى تتصل بالأحوال الشخصية
فخشى رجال الدين الاسرائيلى سوء المصير الذى ينتظرهم فاجتمعوا
عام ٧٠٩ م ووفقوا بين كثير من أحكامهم الشرعية وتعاليم الإسلام .
وكانت النتيجة المحتومة لهذه القلقلة الدينية أن كفر جماعة من الاسرائيليين
بالشريعة التلمودية وأسسوا الفرقة المعروفة حتى يومنا هذا بطائفة القرائين .

القضاء

لا تتطلب الحياة القبلية حكومة منتظمة أو قضاء منظما وسلطة شيخ
القبيلة سلطة أدبية أكثر منها سلطة فعلية تنفيذية فهو يحاول الفصل
بطريق ودى فى الخلاف الذى قد يقوم بين فردين من أفراد قبيلته
وللمتخاصمين أن يقبلا حكمه أو يرفضانه ولا سلطان له لفرضه على الطرفين
المتنازعين . وأقوى شيخ فى القبيلة لا يستطيع تنفيذ حكمه على أضعف
فرد فيها ولو حاول ذلك تعرض لانتقام المدعى عليه . واليوم نجد

بعض القبائل تختار من بين أفرادها أناسا اشتهروا بحصافة الرأى وحب العدالة وتوليهم مناصب القضاء فيها وحتى هذا القاضى ليست لديه القوة لتنفيذ أحكامه وإذا حدث وعرضت قضية على القاضى وعجز عن الفصل فيها تركت هذه القضية لله وأحكامه .

وغير قضاء شيوخ القبائل وقضاتها نجد أيضا قضاء رجال الدين أعنى الكهنة ويحدثنا العهد القديم أن « يثرو » كبير كهنة مدين كان قاضيا أيضا(١) .

وفى المجتمع الاسرائيلى نجد النوعين من التقاضى معا أعنى النظام الكهنوتى والنظام القبلى . فالكاهن أو النبى إذا ما عرضت عليه مشكلة من المشاكل استشار الله فيوحى إليه بما يوحى هكذا فعل موسى(٢) ووظيفة الكاهن ارشاد الشعب إلى اتباع التعاليم الدينية والأحكام الشرعية(٣) . أما القضايا الصغيرة فكان يكتفى المتخاصمان بعرضها على شيوخ الأسرة أو القبيلة الذين يباشرون عادة نظر مثل هذه الدعاوى .

وتنص التوراة أن هذا النظام التشريعى أوجده موسى فى المجتمع الاسرائيلى استجابة لرأى « يثرو » كاهن مدين(٤) .

فى هذه الآيات نجد نوعا من التنظيم القضائى والإدارى يفرض على المجتمع الاسرائيلى وهذا التنظيم ينص على أن لكل ألف أو خمسين

---

(١) خروج ١٨ ى ١٢ .

(٢) خروج ١٨ ى ١٠ و ى ١٩ .

(٣) خروج ١٨ ى ٢٠ وتثنية ٣٣ ى ١٠ .

(٤) تثنية ١ ى ١٥ وخروج ١٨ ى ١٩ ... وس ٢٤ ى ١ والعدد ١١ ى ١٦ .

أو سبعين رجلا يجب أن يعين شيخ وهو الرئيس ومن مجموع هؤلاء الشيوخ تكون مجلس الشيوخ الذى تولى قيادة الجماعة الاسرائيلية عندما نزحت إلى فلسطين وكان القوم ينظرون إلى أعضاء هذا المجلس على أن (يهوه) هو الذى اختارهم قضاة وحكاما لاسرائيل لذلك حرص المجتمع الاسرائيلى على تنفيذ أحكامهم وأوامرهم وكل من يخالف هذه الأحكام يطرد من المجتمع .

أما القضاء الكهنوتى فكان قد بلغ فى ذلك العصر مكانة أرفع وبخاصة فإن هذا المجلس القضائى كان يوجد فى كل قرية . وهكذا نجد المجتمع الاسرائيلى يخضع لنظامين قضائيين ثابتين ، ويمتاز القضاء الكهنوتى بالفصل فى القضايا الصعبة لأن الكاهن يقوم باستشارة الله للفصل فيها[١] .

أما العصر الملكى فقد منح الملك وظيفة قاضى القضاة وهو المرجع الأخير كما نتبين هذا من قصة المرأة التقوعية[٢] ومن القضايا الأخرى التى كان يتقدم بها أصحابها مباشرة إليه للفصل فيها[٣] .

أما إقامة الدعوى فكانت بسيطة جدا فى المجتمع الاسرائيلى فعند مدخل المدينة حيث يجتمع القوم للبيع والشراء أعنى فى السوق يجلس القضاة[٤] . بخلاف أورشليم حيث شيد سليمان قاعة خاصة للفصل فى القضايا التى تعرض عليه . وجرت العادة أن يحضر كل من المدعى والمدعى عليه موضوعه ويتولى عرضه .

---

(١) خرج ٢٢ ى ٨ .
(٢) صموئيل الثانى ١٤ .
(٣) تثنية ١٧ ى ٩ وللملوك الأول ٣ ى ١٦ وصموئيل الثانى ١٥ ى ٢ .
(٤) تثنية ٢١ ى ١٩ .
(٥) تثنية ١٧ ى ٥ وس ٢١ ى ٢٠ وس ٢٥ ى ١ .

وجميع هذه الاجراءات تتم شفوية مع شهادة الشهود ويستثنى من احضار الشهود الوالد الذى يطلب اصدار حكم باعدام ابنه العاق[١] وينص القانون صراحة على أن كل دعوى يجب أن تؤخذ فيها شهادة شاهدين على الأقل[٢] .

وأقوال الشاهد الواحد لا تكفى لإدانة المتهم واستصدار الحكم باعدامه[٣] . ويذكر المؤرخ اليهودى (يوسيفوس) فى تاريخه أنه لا تجوز شهادة النساء والعبيد . والقاضى مطالب بمناقشة الشاهد والتأكد من صدق شهادته[٤] كما يجوز للقاضى ايقاع عقوبة على شاهد الزور والعقوبة هى تلك التى توقع على الذى سيشهد له[٥] . وفى حالة عدم توفر الشهود يؤدى المدعى عليه القسم[٦] وفى حالة خيانة المرأة لبعلها يصدر حكم الله كما هو وارد فى شريعة الكهنة[٧] كما أن الحكم ينفذ فورا أمام القاضى[٨] عقب صدوره .

قانون العقوبات

المبدأ السائد فى قانون العقوبات فى المجتمع الاسرائيلى هو القائل « العين بالعين والسن بالسن . . . » .

---

(١) ثنية ٢١ ى ١٨ .
(٢) تثنية ١٧ ى ٦ وانجيل متى ١٨ ى ٦ .
(٣) تثنية ١٧ ى ٦ وص ١٩ ى ٥ والعدد ٣٥ ى ٣٠ .
(٤) تثنية ١٩ ى ١٨ .
(٥) تثنية ١٩ ى ١٨ .
(٦) الخروج ٢٢ ى ٦ .
(٧) عدد ٥ ى ١١ — ٣٠ .
(٨) تثنية ٢٥ ى ٢ .

أو كما يعرف فى التشريع الحديث باسم (Jus talionis)[١] وكذلك شريعة الكهنة[٢] . وهذا التشريع لا يقصد منه الثأر والانتقام بل العقوبة القانونية .

وقد يستبدل هذا الحكم بالدية إذا ما اتفق الطرفان المتخاصمان . كذلك فى حالة احداث إصابة بالجسم فلا حق للمجتمع فى رفع الدعوى ما لم يتقدم بها المصاب وذلك عملا بالمبدأ القائل حيث لا يوجد شاكى لا يوجد قاضى . لكن فى حالة الضرب المفضى إلى الموت أو القتل لا تقبل الدية[٣] .

وشريعة السن بالسن لا تطبق على العبيد ففى حالة قتل عبد يجب على القاتل أن يدفع لسيده ثمنه وإذا تسبب السيد فى اتلاف عين العبد أو سن من أسنانه وجب عليه عتقه[٤] .

ثم نجد شريعة السن بالسن والعين بالعين تطبق تطبيقا معنويا أعنى إذا اقترف عضو من أعضاء الجسم خطيئة يبتر هذا العضو كأن تقطع يد الابن التى تمتد إلى الوالد وتصفعه أو يد المرأة التى تمتد إلى عورة رجل لإيذائه[٥] .

وتطبيق شريعة السن بالسن قد ينصرف إلى أى فرد من أفراد أسرة الجانى

---

(١) الخروج ٢١ ى ٢٤ والتثنية ١٩ ى ٢١ .

(٢) لاويون ٢٤ ى ٢٠ .

(٣) عدد ٣٥ ى ٣١ .

(٤) خروج ٢١ ى ٢٦وس ٣١ ى٣٢.

(٥) تثنية ٢٥ ى ١٢ .

أو إلى كل أسرته وبخاصة فى حالة الثأر[١] . وفكرة نقل العقوبة إلى أفراد أسرة الجانى قوية جدا فى شريعة المجتمع الاسرائيلى وذلك لأن دم القتيل ينجس الأرض ولا يطهرها إلا إراقة دم القاتل[٢] .

وهذا يفسر لنا اشتراك المجتمع فى رجم الجانى حتى يتطهر سائر أفراد المجتمع من خطيئته ويقضى على الجريمة[٣] .

أما تنفيذ الأحكام فيختلف فحكم الإعدام مثلا كان ينفذ فى مكان خارج المدينة وذلك برمى المجرم بالأحجار[٤] وكانت طريقة التنفيذ أن يرجم الشهود أولا المتهم[٥] . وهناك وسيلة أخرى أقسى وأشنع من الرجم لتنفيذ حكم الإعدام وهى الخازوق[٦] . كذلك استخدم الاسرائيلى وسيلة الشنق[٧] أو الحرق[٨] . أما الصلب فقد أدخله الرومان إلى فلسطين وإن حرموا صلب المواطنين الرومانيين . أما سبب إصدار حكم الإعدام فهو حرمان المجرم من التمتع بالطقوس العادية المتبعة مع الميت .

وهناك عقوبات أخرى غير التى سبق ذكرها وهى عقوبات جسدية ومنها الجلد وكان يعاقب بها مثلا الرجل إذا اتهم زوجه عند الدخول

---

(١) الملوك الثانى ٩ ى ٢٦ ويشوع ٧ ى ٢٤ وخروج ٢٠ ى ٥ وس ٣٤ ى ٧ .
(٢) عدد ٣٥ ى ٣٠ .
(٣) تثنية ١٩ ى ١٩ .
(٤) لاويون ٢٤ ى ١٤ والعدد ١٥ ى ٣٦ والملوك الأول ٢١ ى ١٠ .
(٥) تثنية ١٦ ى ٧ .
(٦) صموئيل الثانى ٢١ ى ٩ .
(٧) تثنية ٢١ ى ٢٢ ...
(٨) لاويون ٢٠ ى ١٤ وس ٢١ ى ٩ ويشوع ٧ ى ١٥ و٢٥ .

بيها أنها ليست بكرا[١] . وإذا أذنب شخص يحكم القاضي بجلده أمامه حسب ذنبه وخطورة جريمته[٢] وحدد القانون عدد الجلدات بأربعين[٣] وفي العصور المتأخرة أصبح الحد الأقصى تسعا وثلاثين جلدة[٤] وكان الجلد أولا بالعصا ومن ثم أستعيض عنها بعصا تنتهي بثلاث شعب من الجلد وكانت أقسى من العصا حتى خفض عدد الضربات إلى ثلاث عشرة .

ونتبين من قانون العقوبات أيضا أن المجتمع الاسرائيلي عرف الغرامات وهو يفرق بين نوعين : غرامة « الاثم » أي (اشم) وغرامة الخطيئة (حطاءوت)[٥] .

والشي الجدير بالذكر أن الاسرائيلي لم يعرف العقوبات الاختيارية بدليل أنه لم يصلنا منها إلا بعض الحالات الفردية كتلك التي نجدها في الملوك الأول[٦] حيث أرسل الملك ودعا « شمعي » ثم أمره أن يبني لنفسه بيتا في أورشليم ويقيم فيه ولا يبرحه . لكن الشيء الهام أننا كثيرا ما نقرأ في العهد القديم اخبارا متعلقة بمختلف وسائل التعذيب ومنها المقصلة (مهبخت)[٧] .

وبعد عصر السبي ظهر السجن (بيت مهبخت)[٨] وغير هذه العقوبات المختلفة نجد كذلك النفي[٩] .

---

(١) تثنية ٢٢ ي ١٣ ـ ١٩ .
(٢) تثنية ٢٥ ي ١ ـ ٣ .
(٣) تثنية ٢٥ ي ١ ـ ٣ .
(٤) كورنثوس الثانية ١١ ي ٢٤ .
(٥) الملوك الثاني ١٢ ي ١٧ .
(٦) إصحاح ٢ ي ٣٦ .
(٧) أرميا ٢٠ ي ٢ ...
(٨) الملوك الثاني ١٦ ي ١٠ وص ١٨ ي ٢٦ .
(٩) الملوك الثاني ٦ ي ٢٦ .

أما العقوبة فتختلف باختلاف نظرة المجتمع الاسرائيلى إليها فالعقوبة مثلا قد تستهدف نتائج موضوعية أو شخصية أو كلتيهما . فالشريعة تفرق بين القتل العمد وغير العمد فالإصابة التى يسببها شخص بجسد شخص آخر إن كانت مع سبق الاصرار تطبق على الجانى شريعة العين بالعين والسن بالسن وإن كانت غير متعمدة فيكتفى بدفع نفقات العلاج . كما يلاحظ فى التشريع الاسرائيلى الحكم بالاعدام فى كثير من الحالات مثل الخيانة الزوجية وعقوق الابن أما قتل النفس فيعتبر من أشنع الجرائم لذلك كان الثأر واجبـــا مقدسا وشرعة الحـَية[1] والمطالب بأخذ الثأر هو أول قريب للقتيل ويعرف باسم « ولى الدم » « جؤل هدم » ، وله أن يقتل أى فرد من أسرة القاتل فالقتل لا ينصب على القاتل وحده بل على كل أسرته وتعترف الشريعة بأخذ الثأر[2] ثم بعد ذلك نرى الحكومة تحاول أن تتولى هى الثأر للقتيل باعدام القاتل[3] ولو أن هذه المحاولة لم تستقم دائما للحكومة ثم نرى الحاكم يحاول حصر حالات القتل التى تتطلب الثأر ففرق بين القتل العمد والقتل غير العمد فى الحالة الأخيرة فالقاتل قد نفذ ارادة الحـَيه[4] كذلك من أصاب اصاليلا عند ما كان يحاول السرقة وارداه قتيلا لا عقاب عليه ولا ثأر لكن إذا أصابه والشمس طالعة اعتبر قاتلا وحق لأهل القتيل الثأر منه[5] . أما إذا تسبب ثور فى قتل شخص فيختلف القصاص منه حسب ظروف الثور وصاحبه[6] . وقد حرص المجتمع الاسرائيلى على انقاذ حياة القاتل غير المتعمد وعاونته الشريعة

---

(١) تكوين ٩ ى ٥ — ٦ .

(٢) تثنية ١٩ والعدد ٣٥ .

(٣) صموئيل الثانى ١٤ ى ٤ .

(٤) خروج ٢١ ى ١٢ ...

(٥) خروج ٢٢ ى ١ — ٢ .

(٦) خروج ٢٩ .

على تنفيذ هذه الرغبة وتحقيقها فأصبح من حق هذا القاتل اللواذ بأى مكان مقدس[١] .

وفيما يتصل بالآداب العامة فقد حرص المجتمع الاسرائيلى على احترامها وفرض عقوبة الاعدام على كل من تسول له نفسه الاستهانة بها فكل من يقترف فاحشة جنسية مع الحيوان يعدم[٢] وكذلك حرمت الشريعة كشف عورة الأهل والأقارب وفرضت أقسى العقوبات على المستهترين[٣] . كما أحاط المجتمع الأسرة بتشريع يكفل المحافظة عليها وعلى شرفها ففرض أقسى العقوبات على الخيانة الزوجية أو محاولة الرجل الانتقاص من شرف وعفة زوجته[٤] والموت للابن أو الابنة إذا اعتدى أحدهما على الوالدين[٥] .

وكما أن الشريعة اهتمت بالآداب العامة وصيانتها كذلك اهتمت بنفسها فاعدمت كل من تسول له نفسه العودة إلى الوثنية[٦] أو عدم احترام (السبت)[٧] أو اهمال الختان[٨] وهلما جرا .

---

(١) خروج ٢١ ى ١٣ .
(٢) خروج ٢٢ ى ١٩ .
(٣) لاويون ١٨ .
(٤) تثنية ٢٢ ى ١٣ .
(٥) خروج ٢١ وتثنية ٢١ .
(٦) تثنية ١٣ .
(٧) خروج ٣١ .
(٨) تكوين ١٧ .

القانون المدنى

المواطن

يتمتع بجميع الحقوق كل فرد فى المجتمع الاسرائيلى بلغ سن الرشد. أما الطفل القاصر والفتاة غير المتزوجة فيخضع كل منهما للولاية الشرعية للاب وكذلك الحال مع المرأة المتزوجة والرقيق. أما الرجل الدخيل على القبيلة فيحتمل فقط ولكن إذا مابلغ سن الخدمة العسكرية أعنى العشرين وأصبح غير قاصر فيتغير موقف القبيلة منه ويعامل معاملة أخرى[١] .

أما العبد فهو ملك سيده يتصرف فيه وفى حياته كما يشاء[٢] كذلك قتل السيد للعبد الأجنبي والذى ليس ملك يده يعوض عنه صاحبه تعويض المتاع[٣] . كذلك شريعة العين بالعين والسن بالسن لا تطبق على العبد بالرغم من أن الشريعة حرصت على المحافظة عليه وحمايته من سوء المعاملة[٤]. كما تنص الشريعة على وجوب عتق عبد الدين فى العام السابع من استرقاقه. وهو اسرائيلى وقد يعتق قبل هذه المدة.

أما موقف الشريعة الاسرائيلية والمجتمع الاسرائيلى من الأجنبي. فيغاير تماما موقف المجتمع العربى البابلى الذى لا يفرق بين العربى البابلى وغير البابلى فالجميع مواطنون بخلاف الحال فى المجتمع الاسرائيلى الذى يميز.

---

(١) العدد ١ ى ٣ واللاويون ٢٧ ى ٣ ...
(٢) خروج ٢١ ى ٢٠ .
(٣) خروج ٢١ ى ٣٢ .
(٤) خروج ٢١ ى ٢٦ – ٢٧ .

الاسرائيلى على غير الاسرائيلى فالاسرائيلى يفرق بين الأجنبى الذى يعيش معه والأجنبى الغريب عنه فهو يطلق على الأول (جير) وعلى الثانى (نكرى)[١] والأجنبى الغريب أعنى (نكرى) لا تربطه بسبط اسرائيلى علاقة حماية وأمان[٢] ولو أنه يتمتع بحمايته كضيف فقط وفيما عدا هذا لاحق له من حقوق المواطن الاسرائيلى حتى هذه الحقوق التى يتمتع بها الفقير المعدم أو المواطن المستضعف أو تحريره بعد سبعة أعوام إذا كان رهينة دين[٣] .

أما ال (جير) فهو الأجنبى الذى يعيش مع الاسرائيلى ويتمتع بحق الحماية ولو أن حقوقه منقوصة[٤] ويحرم عليه زواج المتعة[٥] . والأجنبى سواء كان « جير » أو « نكرى » كائن ليس فى مرتبة الاسرائيلى بل دونه منزلة[٦] . ولو اعتنق ال « جير » عقيدة حاميه الاسرائيلى فإنه بالرغم من ذلك يعامل عقائديا معاملة أخرى[٧] .

أما فيما يتعلق بحرية العقائد فالمجتمع الاسرائيلى حرم على ال « جير » مباشرة عباداته الأصلية والتى يعتبرها الاسرائيلى منافية لعقيدته ونجسة[٨] وذهب الاسرائيليون بعيدا فى تعصبهم حتى أنهم طالبوا ال « جير »

---

(١) تثنية ١٤ ى ٢١ .
(٢) تكوين ٣١ ى ١٥ .
(٣) تثنية ١٥ ى ٣ وس ٢٣ ى ٢١ .
(٤) خروج ٢٢ ى ٢٠ وس ٢٣ ى ٩ وتثنية ١٠ ى ١٨ .
(٥) تثنية ٧ وس ٢٣ .
(٦) تثنية ١٤ ى ٢١ .
(٧) تثنية ١٤ ى ٢١ والملوك الأول ١١ ى ٧ — ٨ .
(٨) لاويون ١٧ وس ١٨ وس ٢٠ والعدد ١٩ .

باحترام السبت وصيام يوم (كبور) كما أنه يجب عليه فى أسبوع الفصح ألا يأكل خبزا خميرا ولا يجوز له الاحتفال بالعيد إلا إذا كان مختونا[١]. كما أن الـ «جير» مطالب بالتكفير عن كل مخالفة يأتى بها ضد الشريعة مثله مثل الاسرائيلى[٢] ويقدس اسم «يهوه»[٣] ويؤدى جميع الوصايا التى تأمر بها الشريعة حتى لا يرتكب فى الوطن الاسرائيلى عملا يغضب الله. وفى مقابل هذا يتمتع بالمساواة بالاسرائيلى أمام القضاء.[٤] وبالرغم من كل هذا فلا مساواة بينه وبين الاسرائيلى فليس له الحق فى الاحتفاظ برقيق اسرائيلى وإذا حدث وباع اسرائيلى نفسه كعبد رقيق إلى «جير» فحرام على الـ «جير» أن يعامله معاملة الرقيق بل يعامله معاملة الأجير الحر ولأهل المسترق الحق فى عتق رقبته متى شاءوا[٥].

النكاح

النكاح مسألة شخصية لا تهم الدولة أو المجتمع اهتماما مباشرا ويتم النكاح عن طريق عقد شرعى هو عقد بيع وشراء لذلك فالمرأة ملك خاص للرجل وله هو فقط الحق فى الطلاق كما أن له الحق فى نكاح أكثر من زوجة وامتلاك المحظيات. ولا تحول الشريعة دون اتمام صيغة النكاح إلا عند الزواج من الشعوب الوثنية أو أقرب الأقربين.

---

(١) لاويون ١٦ ى ٢٩ وخروج ١٢ ى ١٩.
(٢) العدد ١٥.
(٣) لاويون ٢٤ ى ١٦.
(٤) لاويون ٢٤ ى ٢٢ والعدد ٣٥ ى ١٥.
(٥) لاويون ٢٥ ى ٤٧.

لكن هذا التشريع لم ينجح ويفرض سلطانه على المجتمع الاسرائيلى فمثلا (روث) موآبية ومن نسلها مع « بوعز » جاء داود كذلك تزوج شمشون من امرأة فلسطينية[1] والفنان العظيم « حيرام » هو ابن رجل من صور وامرأة اسرائيلية[2] كذلك اقترن (أوريا) الحيثى من اسرائيلية[3] أما نساء داود وسليمان الأجنبيات فكثيرات جدا[4] .

وأخيرا نجد التثنية تجيز اتخاذ سبايا الحرب الأجنبيات محظيات[5] وبعد السبي نجد كثيرين من الاسرائيليين حتى الكهنة يتزوجون من أجنبيات .ولم ينجح عزرا فى مقاومة هذا التيار الخطير إلا بعد كفاح طويل[6] .

أما فيما يتعلق بالزواج بين الأقارب فقد حرمت الشريعة : —

١ — الزواج من امرأة الأب[7] .

٢ — زواج الرجل من أخته بنت أبيه أو بنت أمه[8] .

٣ — زواج الرجل من حماته[9] .

٤ — الزواج من ابنة الابن أو ابنة البنت[10] .

---

(١) قضاة ١٤ ى ١ ... وص ١٦ ى ٤ ...
(٢) الملوك الأول ٧ ى ١٤ .
(٣) صموئيل الثانى ١١ ى ٣
(٤) صموئيل الثانى ٣ ى ٣ والملوك الأول ١١ ى ١ وص ١٦ ى ٣١ .
(٥) تثنية ٢١ ى ١٠ .
(٦) عزرا ٩ — ١٠ .
(٧) تثنية ٢٣ ى ١ وص ٢٧ ى ٢٠ .
(٨) تثنية ٢٧ ى ٢٢ .
(٩) تثنية ٢٧ ى ٢٣ .
(١٠) لاويون ١٨ ى ١٠ .

٥ — الزواج من العمة أو الخالة[١] .

٦ — الزواج من امرأة العم[٢] .

٧ — الزواج من الكنه[٣] .

٨ — الزواج من امرأة الأخ[٤] .

٩ — الزواج من امرأة وابنتها[٥] .

١٠ — الزواج من أختين معا[٦] .

ومما يلفت النظر أنها لم تحرم زواج الأب من ابنته ولم تنص على تحريم النكاح بين أفراد أشد قرابة من الذين جاء ذكرهم فمثلا نجد الآباء الأولين مثل يعقوب ينكح أختين معا وهما ليئة ورحيل كما اقترن إبراهيم باخته وفى عصر داود كثر التزاوج بين الإخوة واخواتهن فى الأسرة المالكة[٧] . وفى أيام حزقيئل النبى كثرت مخالفة الشريعة لأن العادة كانت أقوى[٨] .

الطلاق

الطلاق من حق الزوج فقط وعليه أن يبدى رغبته هذه كتابة

---

(١) لاويون ١٨ ى ١٢ — ١٣ .
(٢) لاويون ١٨ ى ١٤ .
(٣) لاويون ١٨ ى ١٥ .
(٤) لاويون ١٨ ى ١٦ .
(٥) لاويون ١٨ ى ١٧ .
(٦) لاويون ١٨ ى ١٨ .
(٧) صموئيل الثانى ١٣ ى ١٣ .
(٨) حزقيال ٢٢ ى ١٠ — ١١ .

(سيفر كريتوت)[١] وإذا اقترنت المطلقة برجل آخر ثم توفى هذا الزوج الثانى أو طلقت منه لا يحق لزوجها الأول إعادتها إلى عصمته[٢] وهنا تخالف الشريعة التقاليد الاسرائيلية القديمة التى نتبينها فى العهد القديم[٣] . ولا يجوز للاسرائيلى أن يطلق امرأته إذا ثبت أن تهمة عدم وجود البكارة عند دخوله بها غير صحيحة[٤] .

البيع والشراء

ليس المجتمع الاسرائيلى كما قد يتبادر إلى الأذهان مجتمعا تجاريا بالطبع فهو لم يتذوق طعم التجارة إلا فى السبى البابلى . وبعد عودته من السبى أخذ يباشر التجارة وإن كان لم يعرف أو لم يستخدم عقود البيع والشراء إلا أيام أرميا[٥] . وتتفق عقود البيع والشراء وعقود الزواج مع تلك التى كانت مستعملة فى بابل . وإذا لم يبرم عقد بيع وشراء يقوم الشهود مقام العقد[٦] . أما العادة القديمة التى كانت متبعة لإبرام البيع أو الشراء أو لانتقال الملكية من شخص إلى آخر فعبارة عن طرح النعل على الشىء المراد امتلاكه[٧] أو خلع النعل كما جاءنا فى روث[٨] فالبائع كان عادة يسلم حذاءه المشترى دلالة على تنازله عن الشىء المباع .

وفيما يتصل بالأرض والعقار فقد كان من العسير على الابن أن يبيع

---

(١) أشعيا ٥٠ ى ١ وأرميا ٣ ى ٨ .
(٢) أرميا ٣ ى ١ .
(٣) هوشيع ٣ ى ٣ وصموئيل الثانى ٣ ى ١٤ .
(٤) تثنية ٢٢ ى ١٣ و ١٩ .
(٥) أرميا ٣١ ى ٧ .
(٦) تكوين ٣٢ ى ٧ — ٢٠ .
(٧) مزمور ٦٠ ى ٨ .
(٨) إصحاح ٤ ى ٧ .

ما خلفه له الوالدان وذلك لأنه يشعر بالرابطة القوية التى تربط بين الأسرة وبين الأرض أو العقار وبخاصة ففيها دفن والداه أو أقاربه لذلك كانت امنية الابن ألا يبيع هذا التراب[1] وهكذا نشأت الشفعة أعنى إذا اضطرت الظروف أحد أفراد الأسرة إلى بيع أرضه فلأى فرد من أقاربه الحق فى استرداد الأرض المباعة بعد دفع الثمن الذى دفعه المشترى الغريب[2] .

لكن إذا كان البيت المباع يقوم فى مدينة مسورة ومضى على بيعه عام سقطت الشفعة وأصبح من حق المشترى[3] . أما الرأى القائل بأن جميع الأرض ملك لله وأن الاسرائيليين منتفعون مؤقتون فقط فمتأخر جدا وهو تخريج دينى فقط[4] واعتمادا على هذا التخريج الدينى الجديد أصبح كل عقار ، مع استثناء المنازل المقامة داخل المدن المسورة ، من حق صاحبه الأصلى استرداده بعد خمسين عاما وبدون دفع تعويض[5] فكل عقد بيع هو فى الواقع عقد إيجار لمدة أقصاها خمسون عاما .

وإذا استدان شخص مبلغا من المال فللدائن الحق فى الحصول على رهن من المدين يضمن له حقه وإن كان الرهن معطف المدين الذى يتدثر به ليلا فالدائن ملزم برد معطفه إليه قبل غروب الشمس[6] . ويحرم القانون أخذ الربا الفاحش من المواطنين ولو أن الشريعة لم تحدد لنا الحد الأقصى[7] كما أن المدين وأسرته متضامنون فى سداد الدين

(١) الملوك الأول ٢١ ى ٣ .
(٢) أرميا ٣٢ ى ٨ ولاويون ٢٥ ى ٢٣ .
(٣) لاويون ٢٥ ى ٣٠ .
(٤) لاويون ٢٥ ى ٢٣ .
(٥) لاويون ٢٥ ى ١٣ .
(٦) خروج ٢٢ ى ٢٥ .
(٧) خروج ٢٢ ى ٢٤ .

وإلا فللدائن الحق فى استرقاقهم وبيعهم[1] . وهذا الاسترقاق لن تتجاوز صلاحيته أكثر من سبع سنوات حيث تفك رقبة المدين وأسرته . وحرمت الشريعة رهن رحى الفقير أو ملابس الأرملة لأن رهن هذه الأمتعة هو فى الواقع رهن للحياة[2] .

ويحرم القانون على الدائن دخول بيت المدين واختيار الرهن الذى يريده بل عليه أن يبقى خارج الدار والمدين هو الذى يحضر إليه الرهن الذى يريده[3] .

وذهب التشريع بعيدا فحرم على الاسرائيلى الحصول حتى على فوائد دينه من مواطنه الاسرائيلى[4] . لكن إذا كان المدين غير اسرائيلى أعنى أجنبيا فللدائن أن يتناول منه فائدة .

أما السرقة فيعاقب اللص بردها مضاعفة كما أن كل فرد مسئول عما يحدثه من تلف أو خسارة .

الميراث

يوزع بين الأبناء ويحصل البكر على ضعف نصيب الابن الآخر[5] وللوالد الحق فى حرمان الابن البكر من هذه الميزة فى الميراث ومنحها لآخر[6] .

---

(١) للملوك الثانى ٤ وأشعيا ٢٤ و٥٠ .

(٢) تثنية ٢٤ .

(٣) تثنية ٢٤ ى ١٠ — ١١ .

(٤) تثنية ٢٣ ى ٢٠ — ٢١ وحزقيال ١٨ ى ١٥ .

(٥) تثنية ٢١ ى ١٧ .

(٦) تكوين ٤٩ ى ٣ وى ٢٢ — ٢٦ والملوك الأول ١ ى ١١ — ١٣ .

ومقابل هذه الميزة التي يتمتع بها الابن البكر يطالب برعاية الإناث غير المتزوجات من أسرته . وذلك لأنه بعد وفاة والده يصبح هو رب الأسرة .

أما فيما يتعلق بأبناء الحظية فهم يرثون[١] إلا أننا لا نعرف مدى أنصبتهم وإن كان نصيب الواحد كنصيب ابن الزوجة الشرعية . كذلك الابن المتبنى له الحق فى الميراث[٢] . أما أرملة المتوفى فلا ترث وذلك لأنها تعتبر وكأنها جزء من الميراث[٣] . كذلك البنات لا يرثن إذا ترك الوالد أولادا ذكورا لكن فى حالة عدم وجود ذكور ترث البنت[٤] . وإذا لم ينجب المتوفى أطفالا أو مات ولم يكن له على قيد الحياة أطفال ينتقل الميراث إلى أقرب الاقربين من الأسرة وعلى الوارث أن يتكفل بأرملة الفقيد أعنى يتزوجها وإلا فإنها ستعود إلى بيت والدها حتى قد تتاح لها الفرصة هناك لتتزوج ثانية[٥] .

الدفاع

كل قادر على حمل السلاح فهو محارب وسلاح الاسرائيلى البدوى عبارة عن حربة وفرس مكر مفر وناقة هيفاء أما التعبئة العامة للغزو فتتم عن طريق تجمع العشيرة حول فارسها وإذا كان العدو أشد مراسا استعدت القبيلة حلفاءها وهاجموا مجتمعين العدو ومن يكتسب له النصر يقتسم الاسلاب ويعود أدراجه . أما المعارك التى خاضها الاسرائيليون

---

(١) تكوين ٢١ ى ١١ .
(٢) تكوين ٣٠ ى ٣ وص ٥٠ ى ٢٣ .
(٣) صموئيل الثانى ١٦ ى ٢١ — ٢٢ والملوك الأول ٢ ى ١٣ .
(٤) عدد ٢٧ ى ٤ .
(٥) تكوين ٣٨ ى ١١ ولاويون ٢٢ ى ١٣ وروث ١ ى ٨ .

فلم تتطلب أكثر من ستمائة مقاتل . أما فن القتال الاسرائيلي فلم يرق إلى مستوى الكنعاني أو الفلسطيني حيث تتكون قواتهم المحاربة من فرسان ومشاة ومركبات من حديد[1] أعني جيشا نظاميا . ولم يبلغ الاسرائيليون هذه المرتبة إلا عندما نزلوا المدن المحصنة فكان لكل أمير قبيلة أو مدينة جيشه الصغير الخاص الذي يدافع عنه وعن إمارته[2] .

وظل المجتمع الاسرائيلي يتدرج فى التطور الاجتماعى حتى أصبح مملكة وأول ملك على الاسرائيليين شاؤل ثم خلفه داود فظهر أيام شاؤل أول جيش اسرائيلي وانضم إليه كل اسرائيلي لائق للخدمة العسكرية[3] ولهذا السبب كلف داود ضباط جيشه بعمل تعداد المجتمع الاسرائيلي[4] .

ويروى أن نبوخذ نصر لما سبي الاسرائيليين نقل إلى بابل نحو عشرة آلاف رجل يعتقد أنهم كانوا يكونون الجيش النظامى ولم يترك فى فلسطين إلا الفلاحين[5] . ولم يعف من الخدمة العسكرية إلا الكهنة واللاويون[6] ويذكر سفر التثنية[7] أسبابا أخرى لإعفاء بعض المواطنين من الجندية .

ويمتاز الجيش فى ذلك العصر بأنه كان مقسما إلى عدة فرق من ألف

---

(١) قضاة ١ ى ١٩ وصموئيل الأول ١٣ ى ٥ .
(٢) قضاة ٩ ى ٢٩ .
(٣) العدد ١ ى ٢ — ٣ وص ٢٦ ى ٢ .
(٤) صموئيل الثانى ٢٤ ى ١ وأخبار الأيام الأول ٢١ ى ٢ .
(٥) الملوك الثانى ٢٤ ى ١٤
(٦) العدد ٢ ى ٣٣ .
(٧) ص ٢٠ ى ٥ — ٨ وص ٢٤ ى ٥ .

وأخرى من مائة وثالثة من خمسين جنديا وكانت كل مجموعة تحت امرة قائد خاص[1] . أما اللواء الضارب فى الجيش فهو الذى كان يكون الحرس الملكى لشاؤل وداود من بعده[2] .

وحرس داود كان مكونا من أولئك الفتيان الذين عاونوا على بسط سلطانه على جنوب البلاد[3] لذلك كانوا يلقبون بلقب « جبوريم » أى « الجبابرة أعنى الأبطال » ومعظم جنود هذا الحرس أعنى هؤلاء الجبابرة لم يكونوا اسرائيليين بل من الأجانب . وغير هؤلاء الأبطال (جبوريم) نجد آخرين فلسطينيين مرتزقة فى خدمة داود أيضا[4] . وقد جارى الولاة المحليون الملوك فى هذه السنة حيث اتخذ كل منهم له حرسا خاصا[5] .

أما سلاح الفرسان الذى يكون سلاحا هاما فى الجيش الاسرائيلى فالفضل فى إيجاده وتكوينه يرجع إلى سليمان وإليه أيضا يرجع الفضل فى إدخال سلاح المركبات الحربية فى الجيش الاسرائيلى[6] . وكان هذا الجيش يعسكر فى مدن مختلفة[7] .

الأسلحة والذخيرة

عرف الجيش الاسرائيلى نوعين من الأسلحة الخفيفة والثقيلة واشتهر

---

(١) صموئيل الأول ٨ ى ١٢ وس ١٧ ى ١٨ وس١٨ .
(٢) صموئل الأول ٤ ى ٥٢ وس ٢٢ ى ١٤ .
(٣) صموئيل الأول ٢٢ ى ٣ وس ٢٣ ى ١٣ .
(٤) صموئل الثانى ١٥ ى ١٩ .
(٥) الملوك الأول ٢٠ ى ١٤ .
(٦) الملوك الأول ٥ ى ٦ وس ١٠ ى ٢٦ .
(٧) الملوك الأول ٩ ى ١٩ وس ١٠ ى ٢٦ .

سبط بنيامين باستخدام الأسلحة الخفيفة وبخاصة القوس والمقلاع[١] . أما أسباط يهوذا وجاد ونفتالى فقد اشتهروا باستخدام الرماح والمجن[٢]

والأسلحة الخفيفة عبارة عن المقلاع والقوس ومجن صغير . والمقلاع ويعرف فى العبرية باسم (قلع) وكان أيضا سلاح الرعاة[٣] وهو عبارة عن سير من الجلد أو سير مجدول وفى وسطه جزء مسطح يشبه الكفة وبهذا الاسم يعرف فى العبرية الدارجة[٤] . وفى هذه الكفة يوضع عادة حجر ناعم[٥] أما استخدام المقلاع فسهل يسير فما على حامله إلا أن يدير يده اليمنى على هيئة دائرة ومن ثم يترك أحد طرفى المقلاع فينطلق الحجر إلى هدفه .

أما القوس أو القسى كذا يعرف فى العبرية أيضا (قشت) فيصنع من الخشب القوى المرن[٦] وأحيانا من البرنز[٧] . أما الأوتار فعادة من مصارين الثيران أو الجمال والسهام من الخشب الخفيف وينتهى طرفه المدبب بحجر صوانى أو بقطعة من المعدن أو الحديد[٨] وأحيانا كانت تسمم رؤوس السهام[٩] . ولإحداث نيران فى معسكر الأعداء كان يحمل السهم رأسا مطليا بالقار ويشعل ويطلق على معسكر العدو . وتحمل الأسهم عادة فى كنانة . أما المجن فيصنع عادة من الخشب ثم يكسى بطبقة أو أكثر من الجلد .

---

(١) أخبار الأيام الأول ٨ ى ٤٠ وس ١٢ ى ٢ .
(٢) أخبار الأيام الأول ١٢ ى ٨ و٢٤ و ٣٤ وأخبار الأيام الثانى ١٤ ى ٧ .
(٣) صموئيل الأول ١٧ ى ٤٠ .
(٤) صموئيل الأول ٢٥ ى ٢٩ .
(٥) صموئيل الأول ١٧ ى ٤٠ .
(٦) صموئيل الثانى ١ ى ٢٢ .
(٧) صموئيل الثانى ٢٢ ى ٣٣ وأيوب ٢٠ ى ٢٤ .
(٨) أشعيا ٤٩ ى ٢ وأرميا ٥١ ى ١١ .
(٩) أيوب ٦ ى ٤ .

أما الأسلحة الثقيلة فعبارة عن مجن كبير ودرع وخوذة وكانت هذه الأسلحة تكاد تكون خاصة بالملوك وعظماء القوم[١] . ويروى أن (أوريا) هو أول من سلح الجيش الاسرائيلى بالخوذة والدرع[٢] أما الخوذة فكانت عادة من الجلد وقد تكسى بالمعدن كذلك الدرع فعبارة عن شك (جاكتة) من الجلد السميك مقوى بصفائح من الحديد[٣] أما سلاح الهجوم للجندى المدجج بالأسلحة الثقيلة فالسيف والحربة أو الرمح[٤] .

أما عربة القتال فقد أخذها الاسرائيليون عن الحيثيين عن طريق الكنعانيين[٥] وفى كل عربة ثلاثة جنود السائس والثانى المحارب ثم حامل المجن الذى يحمى الاثنين .

الحصون

الحصون التى عرفها المجتمع الاسرائيلى عن الكنعانيين عبارة عن المدن المسورة فهذه الأسوار كانت تكفى لرد عادية المعتدين الذين كان سلاح هجومهم الوحيد عبارة عن المقلاع أو القوس وهذا النوع من السلاح لن يصيب إلا الأهداف التى لا تبعد عن الرامى ثلاثين مترا[٦] إصابة قوية .

وقد قلد الاسرائيليون الكنعانيين فى تحصين مدنهم وحدودهم

---

(١) صموئيل الأول ١٧ ى ٥ و ٣٨ و ص ٣١ ى ٩
(٢) أخبار الأيام الثانى ٢٦ ى ١٤ .
(٣) صموئيل الأول ١٧ ى ٥ و٣٨ — ٣٩ .
(٤) أيوب ٣٩ ى ٢٣ وص ٤١ ى ٢١ .
(٥) الملوك الأول ١٠ ى ٢٨ — ٢٩ .
(٦) العدد ١٣ ى ٢٨ والتثنية ١ ى ٢٨ .

شيدوا عددا من الحصون وبخاصة على حدودهم الغربية[1] ومن أشهر هذه المدن المحصنة أورشليم وسماريا ومجيدو وغيرها .

القتال

لا يذكر لنا العهد القديم شيئا عن فن الحرب وإدارة المعركة واستخدام الأسلحة من خفيفة وثقيلة عند الاسرائيليين وكل ما جاءنا لا يتعدى إشارات عابرة عن استعداد الجيش لخوض المعركة وأنه اتخذ موقفه للقضاء على العدو (٢) وهناك إشارة تفيد أن الجيش يريد أن يباغت العدو ليلا (٣) أو أنه يحاول أن يضلل العدو فيتظاهر أنه يريد أن يباغته من جهة ما ثم ينقض عليه من جهة أخرى (٤) وعند ما ينقض على خصمه يصيح صيحة القتال (ترع) . أما القتال فكان ينشب فرادى لا جماعات حيث تظهر بطولة المحارب ومهارته أما المعسكر فكان يحصن باحاطته بدائرة من العربات (معجل) (٥) بينما يظل الطريق مفتوحا وتحت حراسة قوية (٦) .

أما عند الرغبة فى ضرب الحصار على مدينة ما فقد كان الاسرائيلى

---

(١) أخبار الأيام الثانى ١١ ى ٥ ...

(٢) القضاة ٧ ى ١٦ وصموئيل الأول ١١ ى ١١ . وص ١٤ ى ١٣ ...

(٣) القضاة ٧ى ١٧ .

(٤) الملوك الأول ٢٠ ى ١٦ وقضاة ٩ ى ٣٤ . وصموئيل الأول ١٥ ى ٥ .

(٥) صموئيل الأول ١٧ ى ٢٠ .

(٦) صموئيل ١٧ ى ٢٢ وص ٣٠ ى ٢٤ .

يحكم قفلها أولا حتى يمنع وصول الأقوات إليها[١] . وإذا نجح المحاصر في منع وصول المياه إليها فقد استولى على المدينة . أما الأسوار فكان الاسرائيلي يحاول هدمها وذلك عن الطريق التسلل إليها وتحطيمها[٢] بواسطة المنجنيق[٣] .

اما فيما يتعلق بحق المنتصر فإن الأسير يسترق[٤] مالم يقتل وهذا كان هو الغالب[٥] . أما المدينة التي كانت تفتح بالقوة فكانت تستباح فيقتل رجالها وتسبى النساء والأطفال[٦] لكن لا يفهم من هذا أن النساء والأطفال لم يتعرضوا لأقسى أنواع التعذيب والقتل والبلاء فالعهد القديم غني بالآيات التي تشير إلى مدى وحشية الاسرائيلي وأنه لا يحترم امرأة أو يشفق على طفل فكثيرا ما بقر الاسرائيليون بطون الحبالى وقطعوا الأطفال بحد السيوف وهذه الوحشية لم يطبقها الاسرائيلي على الاجانب فقط بل حتى على الاسرائيليين أنفسهم هكذا صنع « مناحم » في الحرب الأهلية الاسرائيلية[٧] . ولم تقف روح الانتقام عند الاسرائيلي عند هذا بل نراه يخرب البلاد التي يدخلها فيقطع الأشجار ويردم الآبار ويحرق القرى والمدن[٨] .

والشيء الجدير بالذكر أن الاسرائيلي نظر للحرب قديما على أنها

---

(١) الملوك الثاني ٦ ى ٢٥ ... وص ٢٥ ى ٣ .

(٢) صموئيل الثاني ٢٠ ى ١٥ والملوك الثاني ١٩ ى ٣٢ .

(٣) حزقيال ٤ ى ٢ .

(٤) الملوك الأول ٢٠ ى ٣٩ .

(٥) أخبار الأيام الثاني ٢٥ ى ١٢ والقضاة ٨ ى ٧ .

(٦) تثنية ٢٠ ى ١٠ — ١٨ .

(٧) الملوك الثاني ٨ ى ١٢ وص ١٥ ى ١٦ وأشعيا ١٣ ى ١٦ وعاموس ١ ى ١٣ وهوشيم ١٠ ى ١٤ .

(٨) تثنية ٢٠ ى ١٩ — ٢٠ والقضاة ٦ ى ٤ وص ٩ ى ٤٥ وأخبار الأيام الأول ٢٠ ى ١ والملوك الثاني ٣ ى ١٩ وى ٢٥ .

شىء مقدس بمعنى أن القائد الأعلى لجيشهم هو (يهوه) قياسا على أنه قائد جيوش الكواكب والأفلاك[١] فحروب اسرائيل هى حروب « يهوه »[٢]

وقديما كان « يهوه » يحمل التابوت المقدس إلى أرض المعركة[٣] ومن هنا نفهم كيف أن الاسرائيليين كانوا لا يبدأون معركة قبل أن يستشيروا « يهوه »[٤] كذلك كانوا يقدمون قبل خوضها القرابين[٥] وصيحة الحرب التى كانوا يصيحونها ارهابا إنما هى نداء إلى « يهوه »[٦] .

وكان الاسرائيلى يقدس الحرب كما يقدس أعياده[٧] وتقديس الحرب يتطلب منهم طقوسا للطهارة خاصة أعنى أن المحارب يقدس نفسه[٨] ويعتبر نفسه قديسا[٩] ومعنى تقديس المحارب لذاته أعنى أن يظل فى حالة طهارة دينية[١٠] وهذه الطهارة تقتضيه مجانبة المرأة[١١] . ومن الطقوس الدينية الملازمة للحرب الاسرائيلية أن جميع الأسلاب من نصيب «يهوه» أعنى يجب قتل جميع الأحياء وحرق الجماد وتسوية المدن بالأرض[١٢] .

---

(١) صموئيل الأول ١٧ ى ٤٥ .

(٢) خروج ١٧ ى ١٦ وصموئيل الأول ٢٥ ى ٢٨ والعدد ٢١ ى ١٤ والقضاة ٥ ى ٢٣ .

(٣) صموئيل الأول ٤ ى ٦ .

(٤) القضاة ٢٠ ى ٢٧ — ٢٨ وصموئيل الأول ١٤ ى ٣٧ وس ٢٣ ى ٢ ... وس ٢٨ ى ٦ والملوك الأول ٢٢ ى ٥ ...

(٥) صموئيل الأول ٧ ى ٨ ... وس ١٣ ى ٩ ...

(٦) القضاة ٧ ى ٢٠ .

(٧) أرميا ٦ ى ٤ ويوئيل ٤ ى ٩ .

(٨) يوشع ٣ ى ٩ .

(٩) أشعيا ١٣ ى ٣ وأرميا ٥١ ى ٢٧ .

(١٠) تثنية ٢٣ ى ١٠ — ١٢ .

(١١) صموئيل الثانى ١١ ى ٦ .

(١٢) يشوع ٦ ى ١٧ ... وصموئيل الأول ١٥ ى ٣ وتثنية ١٣ ى ١٦ ؛

العبادات

مقدسات الاسرائيليين قبل التسلل إلى فلسطين

مقدسات « يهوه » فى سيناء حيث تجلى هناك على موسى[١] لذلك نجد جبل الطور ينظر إليه كجبل الله وذلك لأن «يهوه» غضب على الاسرائيليين لعبادتهم العجل الذهبى وأقام فى سيناء[٢] ومن ثم أقبل « يهوه » من سيناء مارا بجبل (سعير) إلى قادش[٣] . ومنذ ذلك الحين وهو يأتى إلى شعبه فى كنعان لمساعدته[٤] وتأكيدا لاعتقاد الاسرائيليين أن « يهوه » يقيم هناك نجد النبى الياس يحج إلى حيث يقيم «يهوه»[٥] .

والعجيب حقا أن الشعب الاسرائيلى يؤمن إيمانا راسخا أن معبوده لا يقيم فى فلسطين معه بل خارجها وفى سيناء ، ويذكر العهد القديم أن من بين أتباع « يهوه » المديانيين وكبير كهنتهم (يثرو) والذى كان يرعى قطعانه بالقرب من الجبل الذى يقيم فيه الإله « يهوه »[٦] فلا عجب إذن إذا رأينا موسى يهرب من مصر لاجئا إلى « يثرو » إلى المديانيين ومن ثم يقترن بابنه « يثرو » وهى « صفوره » ويذكر سفر العدد[٧] انها كوشية. و « صفورة » هذه هى التى علمت موسى الختان . وفى المكان المقدس للكاهن « يثرو » تجلى « يهوه » لموسى فقدم « يثرو »

---

(١) خروج ٣ و ٦ .
(٢) خروج ٣٣ .
(٣) تثنية ٣٣ ى ٢ .
(٤) القضاة ٥ ى ٤ .
(٥) الملوك الأول ١٩ ى ٨ .
(٦) خروج ٣ ى ١ .
(٧) إصحاح ١٢ ى ١ .

وموسى وهرون » القرابين ليهوه[1] . وعن « يثرو» كما تحدثنا التوراة أخذ موسى تشريعاته القانونية كما أن وظيفة اللاوى تعبر عن وظيفة الكاهن المدينى والحاخام الاسرائيلى .

فوحدة العبادات ووحـــدة المعبود معناها أن الشبه قوى جدا بين الطقوس الدينية ولو من الناحية الشكلية فقط وبتعبير آخر العلاقة قوية جدا بين المدينية المعينية وبين عبادة « يهوه» وطقوسه وهذه هى اللبنة الأولى فى بناء المقدسات الاسرائيلية .

أما اللبنة الثانية فتلك التى تتمثل لنا فى « التابوت المقدس » أو كما سمى فيما بعد باسم « تابوت العهد » أو كما عرف قديما باسم « تابوت الوهيم »[2] أحيانا حرف هذا التابوت باسم « تابوت إله اسرائيل[3] أو تابوت يهوه[4] و « تابوت يهوه قائد الجيوش[5] أو « التابوت »[6] .

أما التسمية (تابوت العهد) فأول ما ظهرت فى التثنية[7] ثم نجد تسمية أخرى وهى (تابوت الشهادة)[8] . وكان يؤتى بتابوت العهد إلى معسكر الجيش فيستقبل بالتهليل والتكبير ليتحقق النصر ويقع الذعر فى قلوب الأعداء الذين كانوا يقولون « إله العبريين حضر إليهم فى المعسكر[9] .

---

(١) خروج ١٨ ى ١٢ .
(٢) صموئيل الأول ٤ ى ١٣ و١٧ وس ٥ ى ١ — ٢ وى ١٠ .
(٣) صموئيل الأول ٥ ى ٧ — ٨ و١٠ — ١١ وس ٦ ى ٣ .
(٤) صموئيل الأول ٤ ى ٦ وس ٥ ى ٣ — ٤ .
(٥) صموئيل الأول ٤ ى ٤ وس ٦ ى ٣ .
(٦) العدد ١٠ى ٣٥ ويشوع س ٤ ى ١٠ .
(٧) إصحاح ١٠ ى ٨ وأرميا ٣ ى ١٠ ...
(٨) خروج ٢٥ ى ٢٢ .
(٩) صموئيل الأول ٤ ى ٥ .

ويروى أن موسى كان إذا رأى التابوت وقد حمل وتحرك يقول «قم يا يهوه وأهزم أعداءك، فيولون الإدبار وإذا ما بلغ التابوت مكان الجيش يقول « عد يا يهوه إلى ربوات اسرائيل »(١).

والآن نتساءل كيف أن تابوتا تصير له مثل هذه المكانة ؟ والجواب أن الاسرائيليين نظروا إلى التابوت على أنه عرش يهوه الذى يجلس عليه(٢) أو على أنه قد نقش عليه اسم يهوه قائد القوات(٣) فالتابوت هو عرش يهوه الذى يجلس عليه كاله أعظم فالتابوت عند الاسرائيليين امتداد فى الواقع لفكرة المركبة التى يتنقل عليها الإله فهى المركب عند قدماء المصريين التى كان يسافر فيها آلهة الشمس فى المحيطات السماوية وفى كل مسيرة دينية نجد هذه المركبة تسير وقد ركبت على عجل وفكرة المركب أو المركبة كوسيلة من وسائل التنقل أو الانقاذ نجدها متمثلة فى أسطورة موسى .

ومن المقدسات الاسرائيلية أيضا « خيمة مقدسة »(٤) أقامها موسى خارج المعسكر ايتلق فيها الوحى أو ليستقبل الله وكان يقوم فتى موسى يشوع بحراستها ويطلق على هذة الخيمة اسم « خيمة الاجتماع » أوكما تسمى فى العبرية « أوهل موعيد » أى الخيمة التى يجتمع فيها الآلهة لتخطيط مصائر القوم .

المقدسات الاسرائيلية الكنعانية

اثبتت الآثار التى وصلتنا أن الطقوس الدينية الاسرائيلية ترجع

(١) العدد ١٠ ى ٣٣ .
(٢) صموئيل الأول ٤ ى ٤ .
(٣) صموئيل الثانى ٦ ى ٢ .
(٤) خروج ٣٣ ى ٧ .

كثرتها إلى أصول كنعانية حتى أصبح من العسير على الباحث فى العقائد الاسرائيلية أن يعزلها من الأصول الكنعانية فنحن نجد طقوس عبادة يهوه ما هى فى الواقع إلا طقوس الإلـه الكنعانى بل وأصبحت قدسية المكان هى بعينها القديمة لم تتغير.

والباحث فى الأماكن المقدسة يجدها فى مختلف المظاهر الطبيعية فحيث تتفجر الطبيعة بالقوى نجد فيها مظهرا من مظاهر القداسة حيث تتجلى القوى الإلـهية ، وما أكثر هذه المظاهر فى الأشجار وينابيع المياه والأنهار كذلك نجدها فى الكهوف والصخور(١) وحيث لا يعين مكان خاص بمعجزة من المعجزات نجد المكان المقدس يعين عادة على مكان مرتفع سواء كان تلا أو جبلا(٢) لذلك يقول الأراميون أن آلهة الاسرائيليين آلهة جبليون(٣) وقدسية الجبال انتقلت إلى الأحجار(٤).

وغير الأحجار نجد أيضا الأشجار(٥). وكما نجد جبال الآلهة فكذلك حدائق الآلهة أعنى الجنة(٦) وتقديس هذه المظاهر الطبيعية نجده أيضا عند الشعوب السامية الأخرى فعند العرب نجد العزى وشجرتها ولما افتتح النبى صلى الله عليه وسلم مكة بعث خالد بن الوليد فقال له أيت بطن نخلة فإنك تجد ثلاث شجرات فأعضد الأولى فأتاها فعضدها .. ثم عضد الثانية فالثالثة فإذا هو بحبشية نافشة شعرها .. ثم ضربها

---

(١) تكوين ٢٨ ى ١٢ ... وس ١٦ ى ٦ وس ١٨ ى ١ ... والقضاة ٦ ى ١١ ... وصموئيل الثانى ٢٤ ى ١ ...

(٢) هوشع ٤ ى ١٣.

(٣) الملوك الأول ٢٠ ى ٢٣.

(٤) قضاة ٦ ى ١١ ومزمور ٢٧ ى ٥ ومزمور ٦١ ى ٣ ومزمور ٦٢ ى ٣ وتكوين ٢٨ وصموئيل الأول ٦ ى ١٤.

(٥) تكوين ١٢ ى ٦ والقضاة ٩ ى ٣٧.

(٦) حزقيال ٢٩ ى ١٣ — ١٤ وس ٤٧ ى ٢ و ١٢.

ففلق رأسها فإذا هى حممه ثم عضد الشجرة . وهكذا نجد كثيرا من مصادرنا العربية القديمة تحدثنا عن تقديس بعض القبائل العربية فى الجنوب والشمال والشرق والغرب لبعض أصناف الشجر الشهيرة مثلا تذكر أن أهل نجران كانوا يعبدون ، وهم يومئذ على دين العرب . نخلة طويلة بين أظهرهم لها عيد فى كل سنة إذا كان ذلك العيد علقوا عليها كل ثوب حسن وجدوه وحلى النساء .

وقدس الاسرائيليون قديما ينابيع المياه فنحن نجد « بئر شبع » كما قدسوا غيرها(١) .

ويتفق الاسرائيليون فى هذه الظاهرة مع العرب أيضا الذين مازالوا حتى اليوم يقدسون بئر زمزم كما أن مظاهر الطبيعة متصلة غير متنافرة فالأحجار متصلة بالجبال وينابيع المياه متصلة بالنخيل والأشجار .

ومع مضى الزمن نجد الاسرائيلى يشعر بأن مقدساته يجب أن تضم إلى بعضها حيث يمكن الجمع بينها وبخاصة بعد أن أدرك أن الشعوب الأخرى سواء فى مصر أو بابل وجيرانه مثل الكنعانيين وغيرهم قد أقاموا بيوتا لآلهتهم فصنع الاسرائيليون صورة لمعبودهم من الذهب أو الفضة أو البرنز إما تابوت العهد فمن الخشب .

وبيوت العبادة هذه نجدها كثيرة منتشرة فى الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام ومنها « رضى » وقد كان بيتا لبنى ربيعة بن كعب بن سعد ابن زيد مناة فهدمه المستوغر فى الإسلام وفى ذلك يقول :

ولقد شددت على رضاء شدة ... فتركتها تلا تنـــازع اسحما

ودعوت عبد الله فى مكروهـــا ... ولمثل عبـــد الله يغشى المحرما

---

(١) الملوك الأول ١ ى ٩ وتكوين ١٦ ى ١٤ وس ١٤ ى ٧ ويشوع ١٥ ى ٧ .

وغير « رضى » نجد « كعبة سنداد » و « كعبة نجران » و « الكعبة » و « رئام » وغيرها .

وبيت العبادة الاسرائيلى كان يضم عادة المذبح والنصب وتمثال السارية وصورة الإله .

أما المذبح فهناك نوعان منه مذبح للقرابين التى تحرق ومذبح للقرابين التى تشرب أو التى يسيل دمها ومن بين القرابين التى قدمها الاسرائيلى الأطفال وكانوا عادة يدفنون أحياء . أما قرابين الذبح فعادة حيوانات وهذا النوع من القرابين كان يقدم كذلك عند النصب (مصاباه) أو الـ (اشاره) أعنى تمثال السارية . أما الدم الذى يسيل من القربان فكان عادة يرش على الحجر كما كانوا يدهنونه بالزيت أيضا[1] . وجرت العادة أن كل ركن من الأركان الأربعة للمذبح ينتهى بقرن يقبض عليه كل لاجىء مستجير[2] .

أما (المصاباه) فقديمة جدا فى البلاد فقد عرفتها فلسطين قبل نزوح الكنعانيين إليها كما نتبينها من الحفائر ومن ثم أصبحت ملازمة لكل العقائد السامية إنى اتجهت وفى أى عصر كانت ، فنحن نجدها فى أعمدة (هركيليس) غربا وفى الحدود الشرقية للدولة الأكديه وفى سوريا شمالا حتى حدود مصر العليا متمثلة فى المسلات ونحن نجدها عند مداخل المعابد وبالقرب من المذابح المقامة فوق المرتفعات وبينما نجدها قائمة لتخليد الانتصارات إذ بنا نجدها لتعيين الحدود[3] أو أعمدة للقبور . ثم إننا قد نجد الـ(مصاباه) عبارة عن حجر واحد أو أكثر من حجر وبينما نجدها على طول شارع

(١) تكوين ٢٨ ى ١٨ .
(٢) الملوك الأول ٢ ى ٢٨ وعاموس ٣ ى ١٤ .
(٣) تكوين ٣١ ى ٥١ — ٥٢ .

إذ بنا نجدها مقامة على هيئة دائرة ثم أن شكلها يختلف فهي ليست متشابهة في دقائقها فطورا نجدها عبارة عن صخرة لم تمتد إليها يد النحات وأخرى نجدها مستديرة أو في هيئة المسلة المصرية والـ(مصاباه) كما وصلتنا ترتبط ارتباطا قويا بالعقيدة الفلكية البابلية وهي مانحة الحياة لذا نجدها تحاول أن تعبر شكلا عن عضو التناسل عند الرجل وهكذا نجد الاسرائيليين في تقديسهم للمصاباه إنما هم يعبرون عن القوة الإلهية الكامنة في عضو التناسل والتي يعبر عنها بهـذا العمود لذلك نجد بعض أنبياء بني اسرائيل المتأخرين يسخرون من بني قومهم لإيمانهم هذا(١) ومن ثم نجد الاسرائيليين يعتبرون الـ(مصاباه) ضرورة من ضروريات المكان المقدس وحيث تقام الطقوس والفرائض الدينية(٢) ويعبر الاسرائيلي عن تقديسه المصاباه بتقبيلها(٣) وأخيرا نجد سفر التثنية يتحدث عن المصاباه كرمز للإله بعل(٤).

وغير المصاباه نجد الاسرائيليين يقدسون أيضا « عمود السارية » أي (أشيره) وهو يعبر أو يرمز للإلهة (عشترت) لذلك فالـ(اشيره) توجد دائما ملازمة للشجرة وذلك لأنها الـهة الشجرة فالعمود يعبر عن الشجرة وقد جردت من غصونها وأوراقها رمزا لانتقال عشترت إلى عالم الموتى وقد جردت من حجابها فبسط الموت ظلاله على الكون حتى الشجر فاصبح خشبها يابسا لذلك كان الـ(اشيره) رمزا يشير إلى معبود من المعبودات الاسرائيلية أو إلى الألوهية ويؤيد هذا أنه قد وصلتنا كتابات جاءت فيها أسماء بعض الأفـراد الذين ينتسبون إلى الإلـه

---

(١) أرميا ٢ ى ٢٧ .

(٢) هوشيع ٣ ى ٤ وأشعيا ١٩ ى ١٩ .

(٣) هوشيع ١٣ ى ٢ وللملوك الأول ١٩ ى ١٨ .

(٤) تثنية ١٢ ى ٣ وص ١٦ ى ٢١ .

(أشيره) فهو يسمى عبد (اشرتو) أو عبد (اشرتى) والواقع أن (اشيره)، هذه ما هى إلا (عشترت) بدليل أنه جاءتنا آثار تشير إليها وقد تحجبت .

ويحدثنا العهد القديم أنه لا تقوم إلى جانب بعل المصابا والأشيره فقط(١) بل نجد هذه المقدسات أعنى مصابا والأشيره إلى جانب يهوه وأماكنه المقدسة(٢) .

هكذا كان الحال فى سماريا(٣) وكذلك فى معبد أورشليم(٤) وظل الحال كذلك مدة من الزمن ومن ثم اعتبرت هذه المقدسات وثنية(٥) لأن سفر الثثنية اعتبر عمود السارى مسبة لأشيره والتى هى (عشترت)(٦) وكان تكريمها وتقديسها مرتبطا بعبادة بعل(٧) .

وقدس الاسرائيلى أيضا مقدسات أخرى اعتبرها مظهرا من مظاهر القوة الإلـهية وهذه المقدسات تعرف باسم (مسكاه) أى الصور المصبوبة من المعادن(٨) ويطلق الاسرائيليون عليها أيضا لفظ (فسيل) أى صناعة الصور أو نحتها من الخشب(٩) . كما عثر الأثريون على نوع منها مصنوع من الطين أو الحجر . وتستخدم التوراة أحيانا أحد اللفظين أعنى

---

(١) القضاة ٦ ى ٢٥ والتثنية ٧ ى ٥ .
(٢) هوشيه ٣ ى ٤ وميخا ٥ ى ١٢ — ١٣ .
(٣) الملوك الثانى ١٣ ى ٦ .
(٤) الملوك الثانى ١٨ ى ٤ وس ٢١ ى ٧ وس ٢٣ ى ٦ .
(٥) تثنية ١٢ ى ٣ وس ١٦ ى ٢١ .
(٦) الملوك ١٥ ى ١٣ .
(٧) القضاة ٣ ى ٧ والملوك الأول ١٨ ى ١٩ .
(٨) تثنية ٩ ى ١٢ وس ٢٧ ى ١٥ والقضاة ١٧ ى ٣ — ٤ .
(٩) أشعيا ٤٤ ى ١٥ وس ٤٥ ى ٢٠ والقضاة ١٧ ى ٣ .

« مسكاه أو فسيل » للتعبير عن صورة الله(١) وصنع الاسرائيلى هذه الصور أيضا من الذهب أو الفضة(٢) . ولا يخلو عند الاسرائيلى معبد من وجود صور لهذه المقدسات التى تمثل المعبود وأحب هذه الصور اليه صورة العجل الذهبى ولو أن سفر التثنية وبعض الاسرائيليين المتأخرين يعتبرون تقديس مثل هذه الصور وثنية كما أنه لم يخل معبد ملكى فى اسرائيل إلا وفيه صورة الثور(٣) .

وفى معبد أورشليم كان حتى عصر الملك حزقيا ملك يهوذا (القرن الثامن ق . م .) يشتمل على حية معدنية تعرف باسم « نحشتان » وهى تمثل الإله وترمز إليه وكان خادم المعبد يبخرها(٤) وهى تعتبر رمز الإله يهوه وترجع إلى عهد موسى(٥) . وأخيرا نجد الاسرائيليين يقدسون صورا ترمز إلى الله وتعرف باسم (ترافيم)(٦) . وهذه الصور لم تكن قاصرة على المعابد بل وجدت فى البيوت أيضا فسفر التكوين يحدثنا كيف أن لابان ذهب مرة يجز غنمه فسرقت راحيل هذه الترافيم (صور أو أصنام)(٧) كما أن بيت داود كان عامرا بها(٨) . كذلك نلاحظ أن الترافيم كان يستخدمها الاسرائيلى للتعبير عن آلهة أجانب لم يعبدها الاسرائيليون وإن وجدت عند نساء يعقوب(٩) .

---

(١) خروج ٢٠ ى ٤ وس ٣٤ ى ١٧ وأشعيا ٤٠ ى ١٩ وس ٤٢ ى ٨ .
(٢) خروج ٢٠ ى ٢٣ وس ٣٢ ى ٣١ .
(٣) الملوك الأول ١٢ ى ٢٨ — ٢٩ .
(٤) الملوك الثانى ١٨ ى ٤ .
(٥) العدد ١١ .
(٦) قضاة ١٧ ى ٥ وهوشيع ٣ ى ٤ .
(٧) تكوين ٣١ ى ١٩ .
(٨) صموئيل الأول ١٩ ى ١٣ .
(٩) تكوين ٣٥ ى ٢ و٤ .

معبد سليمان

لقد شيد سليمان معبدا لعبادة الإلـه « يهوه » بالرغم من أن المهندس الذى خططه وأشرف على تنفيذه أجنبى كما أن المهندس عبر فى بنائه عن فن معمارى أجنبى فالمعبد ووضعه هكذا لا يعبر عن الطقوس الاسرائيلية التى تصورها معبوده « يهوه » فالمعبد السليمانى ينطق فى الواقع بالشعور الدينى الشرقى عامة لذلك لا عجب إذا رأينا فيما بعد من يعارضه وينتقده فمثلا المذبح الاسرائيلى كما جاءنا فى كتاب العهد لا يتفق والمعبد السليمانى أو مذبحه كما انتقده بعض الأنبياء المتأخرين وبخاصة لكثرة الذبح الذى يتجلى فيه(١) وهو من الناحية الدينية لا يتميز عن غيره من المقدسات الأخرى التى وجدت فى سماريا أوسيلو(٢) فالمعبد السليمانى فى نظر هؤلاء الأنبياء عديم القيمة .

ومن مساحة المعبد نتبين أنه لم يشيد لكى يتسع لاجتماع القوم بل ليكون بيتا لسكن الله ، هذا ويعتبر معبد سليمان مبدأ تحول عظيم فى الطقوس الاسرائيلية فقبله لم يكن هناك بيت مقدس يحمل اسم « يهوه » لذلك كان الشعب الاسرائيلى يصعد إلى المرتفعات ويؤدى طقوسه الدينية لكن الآن بعد أن أوجد المعبد الذى يحمل اسم الله أصبحت تأدية الطقوس خارجه باطلة وكأنها عبادة وثنية(٣) .

لكن قيام المعبد لم يقض على الأماكن المقدسة الأخرى التى كانت منتشرة فى البلاد وبخاصة فإن الدولة الشمالية لم تعترف بهذا المعبد

---

(١) أرميا ٧ .
(٢) أرميا ٧ ى ١٢ وميخا ١ ى ٥ .
(٣) الملوك الأول ٣ ى ٢ وتثنية ١٢ ى ١٠ .

لأن لها معابدها الخاصة فى (بيتئيل) و (دان) وفى البيت الملكى وكانت هذه الأماكن تقوم بدور هام فى سبيل تأدية الطقوس الدينية كذلك نجد ملوك مملكة يهوذا حتى عصر الملك حزقيال يحافظون على الأماكن المقدسة الأخرى القائمة على المرتفعات ولا يحاولون القضاء عليها فلم يفكر ملك من ملوكها فى القضاء عليها خدمة لمعبده الخاص كما أنه لم يستنكر نبى من أنبياء مملكة يهوذا كثرة المذابح وعلى النقيض من ذلك نجد النبى إلياس يبنى المذبح الذى تهدم على الكرمل ولما ثار أنبياء مثل عاموس (وهوشيع) وميخا وأشعيا ضد هذه المبالغة فى العبادات لم يقصدوا هذه المبالغة فى العبادات بل أماكن العبادة ذاتها وأنها أدنى من المعبد بل نظروا إلى تهالك الشعب على تقديم القرابين وغيرها وهى ليست كل ما يطلبه الله من عباده وكانت عظاتهم لا تدعو إلى هدم المذابح وتقديم القرابين إلى معبد أورشليم بل كانوا يبشرون بأن الله لا يرجو منهم شيئا غير العمل الصالح وحب الآخرين والتواضع .

ومع مضى الزمن نجد المعبد السليمانى يكتسب قلوب سكان مملكة يهوذا كمعبد ملكى . فالنظام الملكى خدم المجتمع الاسرائيلى خدمات جليلة فهو الذى جمع بينهم ووحد صفوفهم سياسيا واجتماعيا ولما شيد سليمان المعبد جمع معبده قلوبهم فقصدوه من مختلف الجهات فتعارف الاسرائيليون وتآخوا وأجمعوا على طقوس واحدة وعبادة واحدة ولم تتح الفرصة المخلفات العقائدية المتوارثة للظهور ثانية فتسبب الفرقة والانقسامات . وكانت مناسبات الأعياد مصدر فرح وسرور عظيمين عند الشعب إذ كانوا يقبلون متزاحمين على أورشليم ويأتى الملك ويقدم قرابينه لا باسمه فحسب بل باسم الشعب الاسرائيلى أيضا وكان يعاون الملك ويشاركه فى هذه الاحتفالات خدمه وكبار موظفى الدولة ، يحيط الشعب ومليكه بأقدس ماجاءهم عن آبائهم الأولين أعنى التابوت المقدس . ولم يقف الأمر

عند هذا بل نجد النظام الملكي يدخل كهنة المعبد فى خدمته فالكاهن موظف فى المعية الملكية ويتبوأ منصبا رفيعا لم يبلغه كاهن آخر فى معبد من المعابد الأخرى . فكان الملك يسألهم رأى السلف الصالح والتوراة ويستشيرهم فيما يهمه ويهم المملكة ولما توارت سماريا من المسرح السياسى وأخلت الطريق لأورشليم أخذت مكانة المعبد الأورشليمى تزداد سموا وشهرة. المعبد السليمانى الأورشليمى ينفرد بالمكانة الدينية فى جميع أنحاء البلاد ، وتنكر « يهوه » المقدسات القديمة واعترف بصهيون فتحول الرأى العام الاسرائيلى إلى الفكرة الصهيونية وآمن بأن صهيون مقر الإله ولن يزول(١) .

لكن معبد أورشليم بالرغم من حسناته العديدة إلا أنه ابتعد عن العقيدة الاسرائيلية اليهوية بسبب الأصول الطقسية التى باشرها وحرض الشعب على الإيمان بها وهذه الطقوس هى فى الواقع طقوس كنعانية مستمدة من عبادة « بعل » والفرق كبير بين العباذتين عبادة يهوه الصحراوية المتبدية وعبادة « بعل » الزراعية المستقرة المتحضرة لذلك لم يكد يخبو نور الملكية وتخبو معها أبهة الحياة العامة وأبهة الأعياد من قومية ودينية حتى أخذت تتحلل هذه الرابطة التى جمعت بين الأسباط الاسرائيلية أولا والعقائد الدينية ثانيا فأمحت فيها هذه الفوارق الطقسية وريثة العقائد الوثنية القديمة وأخذت الطقوس اليهوية تظهر تدريجيا إلى الوجود ثانيا لكن « يهوه » بالرغم من هذا التحول الظاهرى لم ينجح فى مطاردة « بعل » وبخاصة فالمجتمع الاسرائيلى أخذ يتذوق معنى الاستقرار والحضارة التى يمثلها « بعل » ودياناته وهنا نجد هذا المجتمع يوفق بين العقيدتين اليهوية والبعلية فأصبحنا نجد (يهوه) محتفظا برمز (بعل) إلا وهو (الثور) هذا إلى جانب تماثيل الآلهة عشترت وغيرها التى كانت توجد فى البيوت الاسرائيلية .

---

(١) أرميا ٧ ى ٤ .

ثم جاء السبي الأشوري فانهزمت الاسرائيلية وأخذ النفوذ العقائدي الأجنبي يشق طريقه إلى المجتمع الاسرائيلي ولما عاد هذا النفر القليل من الاسرائيليين من السبي كان الأثر الجديد قويا جدا في الطقوس والعقائد فنحن نجد حزقيال يرى فيما يرى النائم المثل الأعلى الذى يجب أن يكون عليه المعبد[1] فهو معبد خليط من الخيال والواقع وهو يخالف معبد سليمان فحزقيال عزل معبده وجعله بعيدا عن سائر المباني المدنية الأخرى حتى قصور الملوك يجب أن تكون بمناى عن المعبد .

كما حرم حزقيال على الشعب القرب من المقدسات عند تأدية الطقوس الدينية ومن هنا نجده يخالف المعبد القديم الذى كان قائما قبل السبي ويشيد للمعبد فنائين لا فناء واحدا ، كما كان قديما،فناء خارجيا وآخر داخليا للكهنة فقط .

أما الجزء الذى يقطنه الله فهو الذى يسمى اليوم قدس الأقداس ولا يدخله إلا الكاهن الأكبر ومرة واحدة في العام[2] .

المعبد بعد العودة من السبي

أول هم للعائدين من السبي كان إقامة المعبد إلا وهو معبد زروبابل[3] وقد شيد زروبابل ويشوع مذبح المحرقات في مكانه[4] . وقد اختير المذبح لأنه بدونه لا تقدم قرابين ولا تقام طقوس بدونها كما أن المعبد الجديد اختلف عن معبد حزقيال فلم يفصل بين العامة ورجال الدين

---

(١) حزقيال ٤٠ — ٤٣ .

(٢) لاويون ١٦ .

(٣) عزرا ٣ .

(٤) عزرا ٣ ى ٣ :

أن أدوات المعبد سقط منها تابوت العهد لذلك كان مكان قدس الأقداس خاليا وأستعيض عن التابوت بحجر كان يضع عليه كبير الكهنة المبخرة يوم الاحتفال بعيد الغفران وظل هذا المعبد قائما حتى هدمه (انطيوخوس الرابع أبيفانوس) ملك سوريا وكان ذلك عام ١٦٩ ق . م . مما سبب ظهور الحركة المكابية واسترد (يهوذا المكابى) أورشليم وأمر بإعادة بناء المعبد كما سيجه بأسوار عالية وأبراج حصينة ومنذ ذلك الحين يعرف وبحق برج أورشليم الحصين .

ولما تولى هيرودوس الملك (٣٧ — ٤) ق . م . لم يعجبه المعبد القديم وبخاصة فانه كان من المولعين بتشييد المبانى الجميلة وقرر بناء معبد جديد فشرع فى بنـائه عام ١٩ ق . م . وتم بناؤه أيام (البينوس) أعنى فيما بين عامى ٦٢ — ٦٤م) ويمتاز هذا المعبد بالقاعة الخاصة بالحريم الاسرائيليات وذلك لأن هيرودوس سمح للاسرائيلية بزيارته أما فن البناء فكان يونانيا .

الكهنة قبل العصر الملكى

ترجع أصول الكهنوتية الاسرائيلية إلى موسى وقبله لم تكن هناك فى المجتمع الاسرائيلى كهانة لأنه لم تكن هناك طقوس دينية يهوبه كما لم يعرف المجتمع الاسرائيلى القرابين وتقديمها ولو أن الأخبار التى جاءتنا فى العهد القديم تحدثنا عن القرابين التى كان يقدمها الآباء الأولون إلا أنهم لم يعرفوا كهنة وكانوا هم أنفسهم يتولون هذه المهمة وذلك لأن عبادة يهوه كانت عبادة عائلية وليست شعبية كما أن الشعب الاسرائيلى لم يكن قد وجد بعد فليست هناك حاجة إلى خلق كهنوتية عامة . وأول من أوجدها هو موسى لذلك تعتبر الديانة الاسرائيلية

أول كاهن وقد قام بهذا الدور عند إتمام العهد[١] وتسلم ككاهن أعنى كسادن للخيمة المقدسة المعجزة من « يهوه »[٢] .

وقد ظلت هذه الصفة ملازمة له حتى بعد أن عين أبناء لاوى (اللاويين) لخدمة « يهوه »[٣] .

كذلك يرجع الكهنة نسبهم إلى الابن الأكبر لموسى المسمى (جير شوم)[٤] هذا مع ربط الصلة بين كهنوتية موسى والكهنوتية المدينية .

ثم بعد ذلك نجد موسى يتنازل عن الكهنوتية لأخيه هرون وأولاده[٥] وهرون هو الذى كان يرسم الكهنة بأمر الله لذلك فهو والدهم . لذلك نجد الكهنة ينقسمون إلى فريقين كاهن يسمى « كوهين » وآخر يسمى (ليفى) واللفظان يعبران قديما عن مدلول واحد لكن فيما بعد فرق المجتمع بين « كوهين » و « ليفى » أو «لاوى» .

ولفظ « ليفى » لا يشير كما يتبادر إلى الأذهان إلى سبط من الأسباط أعنى إلى سبط (ليفى) بل إلى الوظيفة الكهنوتية وذلك بدليل العبارات الواردة فى الكتابات المعينية حيث تستخدم لفظ (لاوى) للتعبير عن الكاهن كما استخدمت لفظ (لاويه) للكاهنة . وفى العهد القديم نجد بقايا لاستخدام لفظ (لاوى) فى هذا المعنى حيث يطلق سفر الخروج على هرون لفظ (اللاوى)[٦] أعنى الكاهن وهو فى هذا اللقب يشبه موسى .

---

(١) خروج ٢٤ ى ٦ .
(٢) خروج ٣٣ ى ٧ .
(٣) خروج ٣٢ ى ٢٦ .
(٤) القضاة ١٨ ى ٣٠ .
(٥) خروج ٢٩ .
(٦) إصحاح ٤ ى ١٤ .

تماما . وما جاء فى سفر الخروج نجده أيضا فى القضاة(١) ووظيفة الكهانة أو السدانة فى الشرق العربى وظيفة وراثية سواء عند الاسرائيليين أو العرب .

أما وظيفة الكاهن عند الاسرائيلين أو العرب فكانت تقديم القرابين والتنبؤ وكان (الكاهن يحتفظ بنصيبه من القربان . أما طريقة التنبؤ لدى الاسرائيليين فعن طريق ال (افود) وال (أوريم) وال (تميم) .

أما ال (افود) فرداء قيم جدا لا يصنع من الكتان كغيره من ملابس الكهنة بل من أقمشة ثمينة جدا وكان يلبسه الكاهن ولا يتمنطق إذا ما أراد استشارة الله وفيما عدا هذا الظرف يحتفظ بالأفود فى المعبد أو المكان المقدس لأنه من مستلزمات هذه الأماكن . وعندما يتقدم الجيش للقتال يأخذ الكاهن معه هذا الأفود لحاجة القوم فى هذا الظرف إلى استخارة الله . وهكذا نجد الكاهن يحمل الأفود متنقلا من مكان إلى آخر ولا يرتديه إلا عند الاستخاره فقط ويرجح أن هذا الأفود كان عبارة عن رداء يغطى الحقوين أما ال (أوريم) و (تميم) فسهمان يشير أحدهما إلى (نِعِمٌ) والآخر (بئس) .

وظلت أمور المجتمع الاسرائيلى تسير فى تطورها الطبيعى فسايرته عصورا طوالا حتى انتقل إلى الحكم الملكى فتعرض لهزات اجتماعية عنيفة أسلمته إلى السبى الأشورى (٧٢٢ ق . م .) أولا والبابلى (القرن السادس ق . م .) ثانيا ثم ظهرت المسيحية وحاولت انقاذه من الهوة التى تردى فيها ففشلت إذ انقض عليه القائد الرومانى (تيتوس) عام ٧٠ ميلادية فدك المعبد واستولى على أورشليم وسبى كل من وصلت

---

(١) إصحاح ١٧ ى ٧ .

إليه يده حتى أوانى المعبد أخذها وعرضها فى روما فى مسيرة النصر التى قام بها وخلفه جموع الأسرى مكبلين فى الأغلال وقد سجل هذا النصر فى قوس النصر الذى أمر بتشييدة فى روما عام ٨٢م أما البقية الباقية من الاسرائيليين فقد هاموا على وجوههم فى داخل الجزيرة العربية حتى جاء الإسلام فأعادهم إليها وهيأ لهم حياة جديدة بعثت هذا الشعب بعثا جديدا .

تعرض العبريون لاضطهادات الفلسطينيين وغيرهم فاضطروا إلى البحث عن قائد قوى يقودهم وينظم صفوفهم وأول رجل وقع عليه اختيارهم (شاءول) .

أما النظام الملكى فالآراء حوله متضاربة بين مؤيد[1] ومعارض .

أما آراء الفريق المعارض فنجدها صريحة فى صموئيل الأول[2] .

وبالرغم من اختلاف الآراء حول النظام الملكى فقد أحرز شاءول انتصارا على الفلسطنيين مما دفع القبائل الاسرائيلية المختلفة إلى المناداة به ملكا وكانت كل مدة ملكه سلسلة من الحروب ضد الفلسطينيين[3] .

وفى حروبه هذه لم يحاول مرة اعلان التعبئة العامة أو حرص على فرض ضرائب جديدة وكان هذا الملك شاءول يقتات من عمله الخاص فى حقله ولم يتخذ لنفسه قصرا أو حاشية وكان يكتفى فى الليالى المقمرة بدعوة ضباطه إلى منزله ويجلس هو على كرسى مستندا على الحائط وإلى يمينه حربته كما أنه اعتاد أن يعقد مجالس الحرب فى ظلال

---

(١) صموئيل الأول ٩ — ١٤ .

(٢) إصحاح ٧ ى ٢ — ٨ وى ٢٢ وص ١٠ ى ١٧ — ٢٥ وص ١٢ وص ١٥ .

(٣) صموئيل الاول ص ١٤ ى ٥٢ .

الشجرة المقدسة . أما المقاتلون الذين كان يعتمد عليهم بصفة خاصة فأبناء قبيلته أعنى « بنيامين » وكان شاؤل يوزع الأراضى المستولى عليها من العدو على رؤساء البنياميين لذلك كان حكمه كذلك حكما قبليا وبينما كانت قبيلته تكون قلب جيشه إذ به يجمع الرجال الأقوياء من مختلف القبائل حول قبيلته ومن بين هؤلاء الرجال الأقوياء كان داود وهو من قبيلة يهوذا .

وفى أواخر حياته أصيب بلوثة عقلية فاتهم كثيرين من الاسرائيليين بالخيانة كما أن من بين الذين حل بهم غضبه كان داود الذى عينه شاؤل موسيقيا وزوجه ابنته وجعله أحد كبار قواده . وأخيرا حاول داود بمساعدة ٦٠٠ مغامر تأسيس مملكة لنفسه فى أقصى جنوب يهوذا إلا أنه فشل واضطر للهرب إلى الفلسطينيين والانضمام إليهم ووضع سيفه فى خدمتهم ضد مواطنيه السابقين .

ويحدثنا العهد القديم أن شاؤل لقى وأبناءه حتفهم فى حرب ضد الفلسطينيين الذين مثلوا بجثثهم وعلقوها على حيطان (بيت شام) وعاد قلب فلسطين إلى الفلسطينيين ثانية وطردوا الاسرائيليين الذين كانوا قد استقروا هناك .

وهكذا نجد أن الأعمال التى قام بها شاؤل والخاصة بالوحدة بين الشمال والجنوب وتحرير الاسرائيليين من الاستعباد قد ذهبت مع الريح ولو أن النظام الملكى ظل قائما .

داود

عقب مقتل شاؤل تظاهر دارد بالحزن العميق عليه وعلى يوناثان

وقال فيهما رثاء[1] كما أعان ابن شاؤل المسمى (ايش بعل) نفسه ملكا على « محنايم » وراء الأردن[2] . لكن داود هذا الذى تظاهر بالحزن على موت شاؤل انتهز هذه الفرصة وأعلن قيام دولة مستقلة فى الجنوب وسكانها خليط من اسرائيلى يهوذا وبعض أفراد قبيلة « كالب » . واتخذ داود مدينة « حبرون » عاصمة لمملكته الجديدة كما أطلق على مملكته هذه (يهوذا) نسبة إلى قبيلة داود نفسه لذلك نشبت حرب بين (ايش بعل) وبين داود دامت زهاء سبعة أعوام وانتهت لصالح داود بفضل حادثى قتل وخيانة أولها ضد (ابنير) ابن عام شاؤل واحد قواده العظام ، كما بجح فى تدبير مؤامرة لقتل (ايش بعل) وقد نفذها قائدان من البنياميين وبذلك خلا الجو لداود الذى توج نفسه ملكا على اسرائيل ثم أخذ يعمل لتوحيد البلاد وتكوين جيش قوى وإجلاء الفلسطينيين[3] وانتصر داود عليهم واستولى على أورشليم التى كانت تعوق اتحاد الجنوب مع الشمال ، وفضلا عن هذا كان يطمع داود فى اتخاذها قاعدة له لأنها ليست شمالية فتغضب الجنوبيين أو جنوبية فتغضب الشماليين بل مدينة وسطى محايدة فتحتها قوات مشتركة من الشماليين والجنوبيين وأقام فيها داود وأصبحت قلعتها « صهيون » تعرف باسم « مدينة داود » واستطاع بمساعدة عمال وفنيين كنعانيين بناء قصر له بها .

أما جهاز مملكته الإدارى فكان بسيطا جدا وجيشه يتكون من عنصرين : —

١ — « صبا » وهم مجموعة من الرجال الأشداء من مختلف القبائل .

---

(١) صموئيل الثانى ١ ى ١٩ و ٢٧ .
(٢) أخبار الأيام الأول ٨ ى ٣٣ وس ٩ ى ٣٩ وصموئيل الثانى ٢ ى ٨ .
(٣) صموئيل الثانى ٥ ى ١٧ — ٢٥ وس ١١ ى ١٥ — ٢٢ .

وكانوا يستدعون عن طريق النفير أو رفع الأعلام أو اشعال النيران فوق قمم الجبال ولا يرتدون زيا رسميا أما عددهم ومدة خدمتهم فموضع خلاف[١].

٢ — نفر من الجيش النظامى وعدد رجاله ستمائة مغامر وكانوا قد تجمعوا حول داود عندما نفاه شاؤل وهم «جبوريم» أو «جبورى داود» أو «كريتى بليتى» نسبة إلى عشيرتين فلسطينيتين ومعظم أفراد هذا الحرس من الأجانب وخاصة من العشيرة المعروفة «جيتيم» نسبة إلى مدينة (جات) وكانوا يكونون بزعامة قائدهم «إتاى» فرقة من جيش داود وكان هذا الجيش يعيش على السلب والنهب.

لكن أيام داود لم تنته كما بدأت، ففى النصف الثانى من سنى حكمه تعرض لكثير من المؤامرات بسبب وراثة العرش فنجد ابنه الأكبر «آمنون» مثلا يقتل بيد أخيه (ابشالوم) الذى ثار لأخته (تامار) التى فض (آمنون) بكارتها ثم ألقى بها خارج الباب. فبقتل (آمنون) تخلص ابشالوم أيضا من منافسة (أمنون) له فى اعتلاء العرش. لكن داود تألم لهذا الحادث فطرد ابشالوم ثم عفا عنه وعاد فأشعلها ثورة ضد داود مما اضطر الملك إلى الهرب إلى شرق الأردن ومعه حرسه الخاص (جبوريم) وانتصر قائد هذا الحرس على ابشالوم وذبحه واسترد داود مملكته الضائعة بالقوة. لكن ليس معنى هذا أن الأمر قد استتب لداود وذلك لأن رجال قصره انقسموا إلى حزبين حزب يؤيد (أدونيا) الابن الأكبر لداود وينادى بأحقيته فى وراثة العرش. وكان داود يميل إلى هذا الرأى وحزب يناصر الابن العاشر أعنى سليمان وذلك بفضل المساعى التى بذلتها أمه الجميلة أقرب النساء إلى قلب الملك. ولما شعر (أدونيا) بهذا الخطر الذى يتهدده قرر إعلان نفسه ملكا قبل وفاة

(١) صموئيل الثانى ١٩ ى ٨ — ١٠ والملوك الأول ٢٢ ى ١٧ و ٣٦.

الملك داود إلا أن (بت شبع) أم سليمان علمت بهذه النية المبيتة وطلبت إلى الملك الشيخ أن يهدى العرش إلى سليمان فخشى (أدونيا) العاقبة وهرب واستجار بالمذبح راجيا العفو .

ثم مات داود بعد هذا الحادث بزمن قصير وكان شخصية تجمع كثيرا من المتناقضات كان قويا جبارا إذا ما تطلب الموقف الشدة أما مع أولاده ونسائه فقد كان ضعيفا جدا ، هذا إلى جانب أنه كان شاعرا وموسيقيا وخطيبا .

سليمان

(السلام) هذا هو اسم هذا الطفل الذى وضعته (بت شبع) لداود وإلى قصتها مع داود عليه السلام يشير القرآن الكريم بقوله :

إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزنى فى الخطاب . قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وان كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ماهم وظن داود إنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب .

(سورة ص ى ٢٣ — ٢٤) .

وقد ملك سليمان على اسرائيل إلا أنه لم يكد يقبض على زمام الملك حتى قرر أن يحكم حكما مطلقا ، وقد كلفه تحقيق هذه الرغبة ارتكاب ثلاث جرائم قتل ليخلو له الجو ويقضى على العناصر التى قد تعارضه وتقف دون تحقيق أطماعه الخاصة فقتل أخاه الابن الأكبر والوريث الشرعى (أدونيا) كما تخلص من كبير الحاخاميين حتى لا يثير الأحكام الشرعية ضد سليمان إذا ما خالفها . لقد ورث سليمان ملكا وأصبح كل همه المحافظة عليه وتحويله إلى وسيلة لتقوية سلطانه وإشباع مطامعه وتحقيق رغباته كما استغل سليمان ملكه ليكون مصدرا لثرائه وأبهته فلم يعبه بالمشاكل أو بمصالح قومه الحقيقية لقد أراد ملكا وملكا مطلقا وكفى . لم يخض سليمان غمار حروب فقد بلغ داود بالمملكة حدودا لن يستطيع سليمان تجاوزها وللمحافظة على حدودها لم يستخدم جيشا أو اسلحة بل سلك طريقا آخر إلا وهو طريق

المصاهرة فتزوج من بنات ملوك العمونيين والموابيين والآراميين والكنعانيين والحيثيين بل واقترن باحدى بنات فرعون فحصل عن طريق هذا الزواج على مدينة (جيزر) .

وبعد أن أمن سليمان مملكته خارجيا أخذ يعمل لتأمين عرشه داخليا وبخاصة فهو يعرف تماما أن أهم مشكلة واجهت داود طموح بعض القبائل إلى التمتع بنوع من الحكم الديموقراطى الذى يضمن للشعب ابداء رأيه فيما يتخذه الملك المستبد من قرارات ، قد تؤذى الشعب جوعا وعريا ومرضا . ولاشك فى أن تحقيق هذه الرغبة يتعارض مع رغبة سليمان فى الحكم المطلق لذلك ركز سليمان جهوده فى تفتيت أى تحالف قد يقوم بين هذه القبائل كما مزق الحدود بينها ليخلق منها مشكلة دامية تفرق بين هذه القبائل وتلهيها عن الانتباه لسليمان وما يرتكبه من حماقات أو مخالفات شرعية . فقسم المملكة إلى اثنى عشرة محافظة على كل محافظ يتولى جمع الضرائب التى يحتاج إليها الملك كما فرض على كل محافظ إعاشة الملك وحاشيته وجيشه وخيله شهرا .

ويحدثنا سفر الملوك الأول أيضا أن سليمان عين موظفين من حاشيته والمخلصين له لتوعية القبائل وتوجيهها لخدمة الملكية وأن العاصمة الوحيدة التى يجب على الشعب الاتجاه إليها هى أورشليم ولكى تسيطر أورشليم على سائر المدن والعواصم المحلية للمحافظات المختلفة يجب أن تزخر بالعظمة والأبهة وقد نجح سليمان فى تحقيق هذه الغاية وبلوغها فأكثر من المبانى الحكومية والملكية كما حصن المدينة وأمدها بقناة تحمل إليها المياه من بعيد كما ختم مشروعاته العمرانية ببناء آخر جعل من أورشليم المدينة الرئيسية ومدينة المستقبل أعنى إقامة المعبد على تل (موريا) وهكذا تبلورت العبادات فى مكان بعينه أصبح المنارة التى تضىء للقوم

حياتهم العقائدية كما ترتب على قيام المعبد تحديد مراكز كبير الكهنة والكهنة واللاويين كما أخذ الشعب يحج إلى المعبد فى أعياد الخريف .

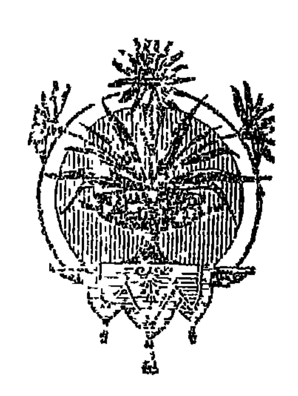
وقد تحمل الشعب كارها جميع تكاليف هذه المبانى ونفقات الملك وحاشيته والجيش فكان الممول لا يفيق من ضريبة حتى تصرعه إدارة الضرائب بأخرى وأخرى هذا إلى جانب المبالغة فى الإنتاج للتصدير للحصول على الأموال الضرورية لهذا المجتمع الجديد الذى لم يكن فى الواقع إلا الملك وحاشيته وجيشه وأعوانه الذين ابتدعوا مختلف الوسائل لإنماء الدخل وازدهار الاقتصاديات فقد أصبحت فلسطين قنطرة بين آسيا وأفريقيا كما استغل سليمان شمالا وجنوبا علاقاته الودية من ناحية ومهارته السياسية من ناحية أخرى فقد نجح تجار سليمان فى احتكار التجارة المصرية سلعا ونقلا كما أجبر سليمان القبائل الشمالية على شراء حاجياتهم من تجاره الخصوصيين وبالغ سليمان فى احتكار وسائل كسب العيش فلم يترك وسيلة من وسائل الرزق إلا وقبض عليها ولم تفلت منه تجارة المرور التى كانت من قبل حرة فاحتكرها وفرض إتاوة عليها محتجا ببعض الطرق التى عبدها وزودها ببعض المحطات . واستغل سليمان الصداقة القديمة بين والده والفينيقيين فاشترك معهم فى أسفارهم البحرية إلى جنوب أسبانيا وأمده الفينيقيون بالملاحين وبناة السفن الذين شيدوا له أسطوله التجارى الذى كان يخرج من أيلات وغيرها من خليج العقبة إلى المدن الساحلية فى الجزيرة العربية وأفريقيا والهند وهكذا عادت تلك الأسفار وهذه التجارة على سليمان بالخير العميم .

فأورشليم لم تكن فى الواقع مقرا للملك سليمان بل للتاجر الملكى سليمان .

والنتيجة المنتظرة لهذا الاحتكار الملكى للاقتصاد العام للملكة إثراء الحاشية والطبقة الخاصة التى أسند إليها الملك هذه الأعمال الاقتصادية فظهرت فى المجتمع الاسرائيلى طبقة قوامها الحاشية والموظفون التجاريون وقد أصبحت هى صاحبة الجاه والثروة وسال الذهب فى خزائنها فتطورت الحياة الاجتماعية الصاخبة فى المدن التى أخذت تشتهر بلياليها الحمراء. أما السواد الأعظم من الشعب فقد انزوى واكتفى بالزراعة والمهن الصغيرة التى لا تقوم بأوده لاضطراب ميزان الحياة الاقتصادية وظهور طبقة غنية تشترى كل حاجياتها بأفدح الأثمان بينما عامة الشعب تئن وترزح تحت نير ارتفاع الأسعار وتكاليف الحياة فتمزق المجتمع الاسرائيلى داخليا وللمرة الأولى فى تاريخه فأوجد هذا الوضع حالة تذمر ضد سليمان واستغلت المعارضة الساخطة الحانقة تهاون سليمان الدينى وإقامة كثير من دور العبادات الأجنبية فى البلاد وتكتلت معظم الأسباط الاسرائيلية ضد هذا الحكم السليمانى المطلق فظهرت فى أواخر عهد حكم سليمان فى مدينة (سيلو) حركة ثورية عارمة مناهضة لسليمان وسياستـــه الخرقاء وتزعم هذه الثورة النبى (أخيا) .

وناصره (يروبعم) الذى اشتهر بقسوته الوحشية إبان توليه منصب إدارة العبيد فأعجبت هذه القسوة سليمان فعينه فى إدارة السخرة فى سبط افرايم . ولما انضم إلى الثوار حاول سليمان قتله فهرب إلى مصر بعد أن أعطى الإشارة لاندلاع الثورة التى ناصرتها مصر وبخاصة فالفرعون الجالس على عرشها لم يكن صهر سليمان وعملت مصر على توسيع رقعتها فثار الآراميون والأدوميون وقوى الثورة الرفاهيـة التى انتشرت فى جيش سليمان فأصبح غير قادر على خوض غمار حرب أهلية تساندها مصر التى أدركت فى قوة اسرائيل السليمانية خطرا يهددها

وهكذا أدت الاضطرابات الداخلية والأخطار الخارجية ثم موت سليمان إلى الكارثة الخطيرة التي تردت فيها إسرائيل فالوحدة التي نجح داود بعد جهد جهيد في تحقيقها تلاشت والمجتمع الذي لم يعرف النظام الطبقي أصبح في عهد سليمان سادة وعبيدا أصبح رأسمالية ملكية مستوانية على كل شيء وشعبا أثقل الجوع والعري والمرض كاهله فأسلمت هذه الكوارث المجتمع الاسرائيلي إلى يد أعدائه فما خرج من سبي إلا ليتردى في غيره حتى جاء (تيتوس) في القرن الأول الميلادي وضربه الضربة القاضية فتشرد في مختلف بلاد العالم تتلقفه الأحداث وتنتابه المصائب .



العـــزل

ثلاثة عصور تعاقب فيها على المجتمع الاسرائيلى ثلاثة ملوك ففرضوا على هذه العصور لاشخصياتهم فحسب بل تاريخها أيضا حتى أصبحت تعرف فى التاريخ الاسرائيلى بأسماء هؤلاء الملوك الثلاثة شاؤل وداود وسليمان فأثروا فى المجتمع وتأثروا به حتى أكسبهم أهميتهم التاريخية ، فعصر الملك الأول عصر البطل شاؤل ، وعصر داود هو عصر المزامير ثم عصر سليمان الحكيم .

إلا أن الحقيقة التى يجب ألا ننساها أن حكم هؤلاء الملوك لم يترك أثرا يذكر فى الملكية ذاتها كما أن الملكية لم تمد عصورهم بشىء من الحيوية لافتقارها إليها وعجزها عن تدعيم كيانها . نعم لقد جاء بعد سليمان ابنه (رحبعم) وحاول أن يستفيد من كل أبهة الملك وجاهه إلا أنه فشل فى تثبيت مبدأ الوراثة الملكية بالرغم من مساندة سبطى يهوذا وبنيامين لبيت داود . لقد ناصر السبطان بيت داود لا الملكية ومبدأ الوراثة وذهبت بقية الأسباط النازلة فى قلب المملكة وشمالها بعيدا فأنكرت الملكية ولم تعترف به ملكا عليها لذلك اجتمع شيوخ هذه الأسباط فى (شكيم) فسارع إليها (رحبعم) لكى يتسلم مبايعة أفرادها فاعترضوه قائلين « إن أباك قسى نيرنا وأما أنت فخفف الآن من عبودية أبيك القاسية ومن نيره الثقيل الذى جعله علينا فنخدمك » فاستمهلهم أياما وأستشار الشيوخ فنصحوه التغاضى عن غلوائه واستبداده فترك مشورتهم واستشار الأحداث فنصحوه أن يخاطب الشعب قائلا : أن خنصرى أغلظ من متنى أبى وقد حملكم أبى نيرا ثقيلا وأنا أزيد على نيركم ، أبى أدبكم بالسياط وأنا أؤدبكم بالعقارب .

وحدث أن (يربعام) الذى ثار فى وجه طغيان سليمان ولجأ إلى مصر لم يكد يعلم بوفاته حتى عاد إلى وطنه والتقى بمواطنيه الثائرين ضد حكم الفرد المستبد وأجمعوا على اختيار (يربعام) ملكا ، وهكذا تفككت أواصر المملكة وانحلت وقامت فى البلاد دولتان اسرائيل فى الشمال وتسمى أيضا دولة أفرايم أو سماريا ، ويهوذا فى الجنوب . فنحن أمام دولتين منفصلتين متخاصمتين وأحيانا متحالفتين إلا أن لكل منهما سياستها الخاصة ثم نجد دولة سماريا تذبل وتتلاشى دون أن تترك أثرا أما دولة يهوذا فتبقى ويبقى معها اليهود .

ومن أسباب ضياع دولة سماريا عدا اقحام نفسها فى السياسة الخارجية لجاراتها الخلافات الدينية التى فصلتها ثم عزلتها عن دولة يهوذا دينيا مما اضطرها إلى الارتماء فى أحضان جاراتها عقائديا وثقافيا حتى أصبحت وكأنها أجنبية . فملكها « يربعام » الثائر ضد أسرة داود واللاجىء إلى مصر لا يتوانى منذ اعتلاء عرش دولة اسرائيل أو سماريا فى تفتيت الوحدة التى بدأها داود بين مختلف أسباط المجتمع الاسرائيلى ثقافيا وعقائديا فقاوم معبد أورشليم ليجرده من أهميته الدينية كمركز رئيسى للعقيدة وطقوسها وذلك عن طريق تدعيم معبدى (بيثئيل) و(دان) ومنحهما الصفة المقدسة .

وغير هذه الخطوة نجد « يربعام » يدخل عبادة (أبيس) إلى بلاده ارضاء لأولئك الناقمين من أبناء مملكته اسرائيل على أورشليم ومعبدها وتركيز العبادة فيها ، كما أعتنى عناية شديدة بالأماكن المقدسة المقامة على المرتفعات . وهكذا أخذ الشعب الاسرائيلى يعود ثانية إلى الطقوس القريبة إلى الوثنية منها إلى الوحدانية وهذا الانحراف الدينى دفع كثيرين من اللاويين وغيرهم من المتدينين إلى مغادرة البلاد والهجرة إلى يهوذا .

وأخذت عوامل التفرقة تقوى بين الدولتين حتى أن كلا منهما اعتقدت أن الوسيلة الوحيدة لتثبيت استقلالها الحرب وأن مرتبة الملك هى بعينها مرتبة قائد الجيش ولا صفة دينية له ففقدت الملكية صفتها الدينية وبخاصة فالملك قد بلغ العرش عن طريق الجيش لا عن طريقها فالملكية إذن عبارة عن مؤامرات واغتيالات وغدر وخيانة فسفر الملوك يحدثنا كيف أن « بعشا » قتل الملك ناداب الذى ورث عرش اسرائيل عقب وفاة « ربعام » واغتصب هو الملك لنفسه وبعد وفاته ورث العرش ابنه (أيلة) فقتله (زمرى) واستولى على عرشه فثار عليه قائد الجيش (عمرى) وحاصره فى (ترصة) ولما يئس (زمرى) من النصر دخل بيت الملك وأشعل فيه النار فمات محترقا .

وجلس بعد (عمرى) على العرش ابنه (أخاب) فاقترن بالفينيقية (ايزابل) فدخلت عبادة (بعل) و (عشترت) اسرائيل كدين رسمى وأصبح الاسرائيليون يرون فى المعابد عبادات وطقوسا فينيقية كما ازدحمت البلاد بالكهنة والأنبياء والفينيقيين واستوطن كثيرون من أبناء فينيقية البلاد . كما حرصت الدولة على صيانة هذه العبادات ومقاومة خصومها والقضاء عليهم . ودخلت مع الأجانب أيضا عادات وتقاليد غريبة أثرت فى حياة المجتمع الاسرائيلى تأثيرا عظيما جدا فازدهرت المهن والحرف وكثر الثراء .

ولا شك فى أن سبل الحياة تتصل بالعقيدة اتصالا وثيقا فانقسم المجتمع الاسرائيلى على نفسه إلى قسمين قسم بزعامة (يوناداب بن ركب) ويعرف أنصاره بالركابيين وكانوا يدعون إلى التقشف ومقاومة التبرج والبذخ وحياة الترف والانحلال الخلق وكانوا ينادون بهجر المدن لفسادها والحياة فى القرى المقامة من الخيام لبساطتها وبعدها عن زخرف الحياة

وبهرجها كما حرموا على أنفسهم الخمر والزرع وطالبوا بالعودة إلى حياة أبائهم الأولين أعنى رعى الماشية وتربيتها .

أما المعارضة فقد تجمعت حول شخصية النبي (الياهو) الذى عارض هذا الوضع الجديد للشعب الاسرائيلى وعقيدته وقال أنه العامل الرئيسى للانحلال لذلك سعى جاهدا لتحطيمه فاندفع النبي (الياهو = الياس) كالعاصفة واعظا ومنذرا ومن ثم اختفى فجأة كما تختفى العاصفة فى الصحراء ، وقد اختفى (الياس) حقا وفى الصحراء اعتكافا ليجمع قواه الروحية ويعاود الكرة مرة أخرى وهكذا نجد نبى الله الياس وقد أمده الله بقوته مخلصاً لربه ورســالته وتجمع حوله بعض الأنصار الذين بهرتهم شجاعته وإيمانه واتخذوه مثالا رفيعا وتسمت هذه الجماعة باسم نزيريم = نذر وقبل أن يتوارى النبي الياس اختار خليفته إلا وهو النبى (اليشع = اليسع) كما ترك جماعة منظمة قوية إلا وهى ا(نزيريم) التى نجحت وحطمت الأسرة الملكية الطاغية أعنى أسرة (عمرى) . وإبان حكم (يهورام) آخر ملوك أسرة عمرى ظهــرت آثار المجهودات التى بذلها كل من (الياس)و (اليسع) فظهر قائد جديد طمع فى الحصول على العرش والجلوس عليه .

هذا القائد هو (يهو) وقد سلك مسلك سابقيه عند رغبتهم فى اغتصاب العرش فحاول إبادة أسرة (عمرى) تحقيقا لنبوءة النبى الياس أو اليسع لذلك عطل عبادة « بعل » كما قتل كثيرين من كهنته وهكذا اختفت فينيقيا من المسرح السياسى فى دولة اسرائيل أو سماريا . ثم أن حكم الفرد وما يستتبعه من حجر على الحريات المختلفة انتهى إلى ما انتهت إليه سائر الحكومات الفردية المستبدة فقد ثار الشعب الاسرائيلى المضطهد وخرجت منه جماعة

ا(نزيريم) المعارضة لحكومة الفرد المستبد ولكل مذهب اجتماعى دخيل سواء كان تقليدا أو عادة أو عقيدة فقد نظرت إلى مثل هذه المذاهب المستوردة نظرة عداء وبغض وكراهية . وإذا أضفنا إلى الحكم الاستبدادى فشل (يربعام) الثانى فى إعادة مساحة المملكة إلى ما كانت عليه أعنى ممتدة من الفرات إلى البحر الميت وانتشار الملاهى والملذات والظلم الاجتماعى والقضاء على المعارضة وتفشى الرشوة والربا والقروض وفساد الجهاز الحكومى وضعف رجال الدين وانحرافهم عن الخلق القويم أدركنا ظهور أمثال (عاموس) و (هوشيع) وغيرهما من الأنبياء الثائرين المصلحين .

وهكذا نجد المجتمع الاسرائيلى لا يخرج من دوامة إلا وتتلقفه أخرى وتتحول اسرائيل إلى مسرح للانقلابات السياسية فلا يكاد يتربع ملك على عرشها حتى يقتله آخر ويحل محله معتقدا أو مدعيا أنه يحرر الشعب ويأخذ بيده إلى العزة والرفاهية وبينما تسوء الأحوال داخل اسرائيل إذ بجيرانها ينتهزون الفرصة وينتقصونها فتستولى دمشق على الجليل وجلعاد وهكذا أخذت تنكمش وتتضاءل بعد أن فقدت نصف مساحتها وشرد نصف سكانها وتحولت إلى مستعمرة صغيرة ممزقة الأوصال تنتظر مصيرها المحقق إلا وهو الموت . وحاول ملوك اسرائيل إنقاذ الموقف فعقدوا اتفاقية مع مصر التى تركتهم وشأنهم فأصبحت نهبا للغزاة أمثال سلمنسر الخامس وسرجون وأصبح سكان اسرائيل هم الأشوريون والبابليون والآراميون ولم يقم بها من اليهود إلا جماعة من الفلاحين ومن ثم اختفى الشعب الاسرائيلى وتشتت وأصبح غريبا حتى على سكان يهوذا فأهملهم التاريخ اليهودى ولم يذكرهم أو يخلدهم بمرثية أو أسطورة من الأساطير .

وبينما تعرضت اسرائيل للضياع إذ بنا فى يهوذا نجد دويلة فقيرة

معدمة فقدت كل عناصر التقدم والرقى حتى منفذها إلى البحر الأحمر فقضى بذلك على مستقبلها الملاحى والتجارى . والملاحـــة والتجارة مصدران هامان جداً لقيام الدولة وثرائها واضطرت لضمان حياتها إلى العودة إلى الزراعة ثانية واستتبع هـذا الاعسار الاقتصادى الاعصار السياسى وأخذت الدولة تفقد تدريجياً علاقاتها الخارجية ومن ثم أصبحت مسرحاً لحروب طاحنة بسبب وضعها السياسى الشاذ وتعرضها لضربات خصومها من الأشوريين وغيرهم مما اضطرها إلى محاولة الاحتماء بأشور فضاع استقلالها .

وإذا أضفنا إلى هذا أن دولة يهوذا كانت وقتذاك ليست الدولة المستقلة ذات السيادة بل دويلة يتقاسمها الأمراء والكهنة والأنبياء أدركنا سبب زوالها إذ كل طائفة من هذه الطوائف متباينة فيما بينها من حيث النشأة والتطور فأمراء يهوذا يكونون طبقة من الآباء الأولين ونسلهم وقد أصبحوا مع مضى الزمن إقطاعيين فموظفين ملكيين فقضاة فطبقة ممتازة لها مصالحها الخاصة كما كانت حريصة على زيادة ثرائها وفية للملكية ما لم تتدخل فى مصالحها الخاصة محاولة الحد من سلطانها أو انتقاص ثروانها ، وهذه الطبقة هى التى كانت فى الواقع توجه السياسة الخارجية غير مكترثة بمصالح الشعب إذا ما تعارضت ومصالحها الخاصة .

أما الطائفة الثانيـة أعنى طائفة الكهنة فتنتسب تاريخياً إلى هرون أخى موسى ومنـذ أن عين سليمان الكاهن (صادوق) كبيراً للكهنة أصبحت هذه الوظيفة وراثية فى هذه الأسرة وكانت طبقة الكهنة غالباً ما تعترض الملك إذا ما حاول الانحراف عن جادة الشريعة لذلك تدين لها الأسرة الداودية ببقائها. وحرصت طائفة الكهنة على مكانتها فى المجتمع وبقائها كطبقة أكثر من حرصهـا على الطقوس الدينية ومباشرتها . وتعليل هـذه الظاهرة أن الفكرة اليهودية كانت فى ذلك الوقت فى دور

التكوين والكفاح شكلا وموضوعا فمن الناحية الشكلية حيث يتفق الشكل مع الطقوس وتتجلى هذه الظاهرة فى معبد أورشليم ، والموضوعية مقاومة العقائد الدخيلة التى من شأنها إضعاف القومية وإنحلال الأخلاق واستتبع هذا التطور ظهور فكرة الوحدانيه العلمانية التى نجدها واضحة فى سفر التثنية الذى وضع إبان قيام الدولتين الشمالية والجنوبية ولو أن وضعه الحالى ينم عن تدوينه فى عصر متأخر . وفى أيام داود وسليمان وضعت أقدم الأجزاء فى العهد القديم وأثناء قيام الدولتين جمعت أخبار القبائل وقصصهم بدافع من الأنبياء ثم أضيفت إلى هذه القصص قصص أخرى وشرحت شروحاً تتفق والأهداف التى جمعت من أجل تحقيقها إلا أن هذه القصص أثارت كثيراً من الخلافات بين الدولتين كما يتضح لنا هذا من تكرار القصص وتضاربها فمثلا قصة الطوفان فالآية الثانية عشرة من الاصحاح السابع من سفر التكوين تنص على أنه دام أربعين يوماً وأربعين ليلة بينما نقرأ فى الآية الرابعة والعشرين من الاصحاح السابع فى السفر عينه أنه دام مائة وخمسين يوماً . كذلك قصة الخلق مثلا جاءت فى الآية السابعة والعشرين الاصحاح الأول وفيها كان الإنسان آخر الخلق وعرض لنفس القصة فى الاصحاح الثانى ى ٤ — ٢٥ فكان الإنسان هو الأول وبعده جاءت الأشجار فحيوانات الحقول فطيور السماء. وفى سفر التكوين ص ٤ ى ١٧ — ٢٢ نفهم أن طوفاناً قضى على كافة البشر لم يحدث وذلك لأن النص يقول أن (لامخ) يرجع إلى نسله جميع سكان الخيام ورعاة الماشية وكل ضارب بالعود والمزمار وآلة نحاس وحديد وأن سلسلة النسب لم تقطع بين هؤلاء الناس وبين (لامخ) الذى عاش قبل الطوفان ولا بينه وبين الإنسان الأول ويحدثنا سفر التكوين أيضاً فى إصحاحيه التاسع الآية ١٩ والإصحاح العاشر الآيات ١ — ٣٢ أن الأرض كانت عامرة بالسكان وكان ذلك العمران شيئاً طبيعياً بينما نجد فى نفس السفر الاصحاح الحادى عشر الآيات ٤ — ٩

أن انتشار السكان على الأرض كان عقوبة ولم يكن شيئاً طبيعياً . ومثل هذه المفارقات كثيرة بين قصص العهد القديم وقد أثرت كثيراً فى نفسية المجتمع الإسرائيلى كما تبدو لنا فى عاداته وتقاليده وطقوسه الدينية وأغانيه وترانيمه وقصصه المتصلة بأعياده وأخباره الخاصة بسير آبائه وكتابه المقدس . وخير مظهر تتجلى فيه هذه الحقائق ظهور الأنبياء فى المجتمع الإسرائيلى .

النبـوة

النبوة ترجيح وإدراك الواجبات التى على الانسان القيام بها فى مجتمعه أولا والعالم ثانياً طوال حياته لا لله فحسب بل لسائر المخلوقات أيضا . وهذا الترجيح أو التنبؤ مصدره الشعور الدينى المرهف والجلاء الروحى وإدراك الأمور التى قد تؤدى إلى انهيار المجتمع اجتماعياً وخلقياً .

فالنبوءة إذن عبارة عن عنصر مزدوج دينى وأرضى لا يوجد دين بدون أرض ولا يوجد فى عالم الأديان ما لا يوجد فى عالمنا الأرضى وإلا لكان الدين عبارة عن أوهام وخيالات لا حقائق واقعية ونحن عندما نتحدث عن الدين يجب أن نأخذ الحياة كلها بعين الاعتبار نعم قد يتوقف تحقيق الأهداف أو القضاء والقدر على السماء إلا أن الأرض هى وطن الكائنات الحية فلا فائدة من السماء بدون أرض .

أن مجىء الأنبياء ظاهرة تاريخية الا انهم غير محدودى الزمن ومن هنا كانت النبوه ظاهرة عالمية تقع فى مختلف العصور . وفى المجتمع الاسرائيلى نجد النبوة تنتشر انتشارا واسعا لا حدود له كما إن نبوة النبى تعنى بالناحيتين الدينية والاجتماعية وقد ظهر الانبياء من مختلف طبقات الشعب لذلك فهم يختلفون فيما بينهم فى نبوءاتهم وأعمالهم فنبوة (دبورا)

بدائية بسيطة تتركز فى الدعوة إلى وحدة الشعب عقائديا بخلاف نبوة شموئيل فمتعددة النواحى فهو نبى وصوفى ويمثل الحب الالٓهى تمثيلا صادقا . وفى عصر داود نجد نوعا هادئا من الانبياء امثال (ناثان) و (جاد) و (اخيا) الذى يتميز باهتمامه بالسياسة فى العصر السليمانى ثم النبى (الياهو) الذى طالبه الشعب بالمعجزات وكان من دعاة طهارة العقيدة و نقائها. وكان من اتباع طائفه اا (نزيريم) معارضا للملكية المطلقة ثم جاء بعده النبى اليشع فلخص رسالته فى عبارته المشهورة « القضاء على اسرة عمرى الملكية » . وفى القرن الثامن ق . م . ظهر امثال (عاموس) و (هوشيع) فى دوله سماريا واشعيا وميخا فى دوله يهوذا .

ويتميز انبياء المجتمع الاسرائيلى بظاهرة مشتركة الا وهى المثالية أعنى مثالية الصلات بين الحياتين الدنيوية والاخروية أى الصلة بين الوجودية وهدفها . ويقرر هؤلاء الانبياء ايضا أن حياة الإنسان لاتهدف إلى أنه جاء إلى الوجود ليعيش ليا كل فقط، فلو كان الامر كذلك فبئست الحياة لذلك فهؤلاء الانبياء يحاولون أن يصلوا بين الوجودية وبين الجوهر الالهى والوصول إلى هذه الغاية من عمل الانبياء وإليهم يرجع الفضل فى بعث هذه الفكرة .

وهكذا نجد الإنسان يعنى بإنسانيته ومن ثم يذهب بعيداً فيخرج من دائرته الخاصة ليتصل بالله فى الوجود وهذه هى الفكرة الأساسية للنبوة والله هو منظم الحياة وهو ينظمها تنظيما لا يجعل منها هدفاً أو وسيلة للحصول على منافع بل للأخلاق وهذه هى الفكرة الرئيسية الثانية للوحدانية . وهكذا نجد الأنبياء يخضعون الحياة الإنسانية فى كل ألوانها إلى هذه الدعائم التى تقوم عليها الوحدانية . فطقوس الوحدانية مثلا يجب أن تكون بعيدة عن الطقوس الوثنية ويقصد بهذا الفصل ولو ظاهرياً بين شعب النبى وبين الشعوب الأخرى المجاورة له وذلك لأن الطقوس الدينية الوثنية

تحمل صفة السحر والتعاويذ والأنبياء يريدون مقاومتها وإحلال القرابين مكانها . فني السحر نجد القوم ينادون المعبود ويقسمون به ويلجأون إليه ويتملقونه كما أن السحر يتبعه نذر أو أجر فالمريض إذا صلى أراد الشفاء والإنسان الذى يقدم أضحية يريد جزاء . أما صفة القربان الملازمة للصلاة والأضحية وضع الإنسان مع الله مباشرة فالقرابين تقابل الصلاة التى يؤديها الإنسان بشفتيه لذلك نجد النبى يخاطب الشعب مستنكراً الاحتفال بأول الشهر أو الأعياد كما أنه ينكر القرابين وهكذا تعود الصلة ثانية بين الشعب والله . وإذا نظر الشعب إلى الله على أنه رب العالمين وأنه رب الجميع فى مختلف أجزاء المعمورة ضاعت فكرة (شعب الله المختار) ويصبح العكس صحيحاً لذلك يقول النبى عاموس ٣ ى ٢ « إياكم فقط عرفت من جميع قبائل الأرض لذلك أعاقبكم على جميع ذنوبكم » .

وتتركز الخصومات العقائدية فى ذلك العصر فى نبوءات أرميا فقد جاءته النبوة شابا وكان كارها لها لعجزه عن تحملها وإذا تساءلنا عن رسالة هذا النبى « ارميا » وجدناه يعيش بين شعوب متناحرة ودول متحاربة تتكالب على توسيع رقعة بلادها على حساب الآخرين ويسائل ارميا نفسه عن هـذه الأحداث أتقع اعتباطا أم تقديرا من الله العزيز الحكيم لا شك فى أنها من صنع الله وذلك لأن لهذه الأحداث هدفها وغايتها فاستخدام القوة إذن وسيلة من وسائل الله لتحقيق غاية خاصة ولما تضعف القوة وتصبح غير قادرة على الحياة يقضى عليها الضعف لا القوة فهنا ضعف يقضى على قوة عاجزة عن الحياة . فهذا الضعف وهذه الفوضى أو بتعبير آخر انعدام القوة الرادعة يجب أن تعوضها الإنسانية بالأخلاق والسير فى الطريق المستقيم فالدين وحده هو الذى يفصل بين الحق والباطل والظلم والعدل . وترتب على هذه الرسالة النبوية أن البقية الباقية من المجتمع الإسرائيلى والتى لجأت إلى يهوذا استغنت عن الزعامة السياسية واستسلمت

للدول القوية المحيطة بها وأعادت بناء كيانها لا على أسس قد يتغلب عليها الخصم ، أعنى القوة ، بل بارساء قواعد كيانها على العناصر الحقيقية الخالدة وذلك لأن سلامة الأمة تقوم على الاستقرار والثقة لذلك آثر الإسرائيليون العودة إلى المجالين الروحى والعقلى أو الثقافى .

وحدث عام ٦٢٢ ق . م . إن حاول الملك (يوشياهو) هذا الملك الذى هزم شر هزيمة فى موقعة مجيدو وقتله الفرعون المصرى (نيخو) ادخال إصلاح على المعبد الذى تقام فيه الطقوس طقوس عبادة (يهوه) فعثر على وثيقة لا نعرف عمرها وهى عبارة عن نسخة أخرى بأسلوب خاص للشريعة المدونة والنص الجديد تكرار وتجديد للشريعة القائمة وهى تعالج صلة الإنسان بالله والمجتمع وهى فى صورة عظات وضعت على لسان موسى قبل موته وأهم محتوياتها :

١ — العهد القديم ميثاق بين الله وشعبه المختار .

٢ — يتعهد الشعب بطاعة الله .

٣ — كينونة الشعب تتوقف على مدى طاعته أو عصيانه لربه .

٤ — الله يفعل بهذا الشعب ما يريد .

٥ — الله لا يحده زمان وهو أقوى القوى .

٦ — كينونة الشعب صلته بالسماء والأرض ومرجع هذا سلطان الروح والعقل .

٧ — مجىء الإنسان إلى هذا العالم ليس صدفة فلا يخشى الإنسان وجوده فهناك عنصر إلهى رفيع وهو سر الوجود .

٨ — الحياة وجود .

٩ — الوجود وسيط لمعرفة الله خالق الكون ، وليس لله شكل ، هكذا هو الله .

١٠ — الوجود متصل بالأرض وهو العدالة التى تربط البشرية .

١١ — الظلم مظهر القوة التى هى سبب التفاوت وعدم المساواة .

هذه هى أهم تعاليم هذه الوثيقة وهى ولا شك ميثاق اجتماعى خطير ينظم الحياة والعلاقة بين أفراد المجتمع الإسرائيلى وذلك لأنها تعنى ، كما عنيت شريعة حمورابى ، بالجزاء والعمل والأجور والخدمات الاجتماعية المحتاجين وتشجيع الزواج والحث على احترام الوالدين والأرامل واليتامى ومن تعاليم هذه الوثيقة نتبين أن مملكة الله هى هذه الدنيا والتى هى مملكة الإنسان أيضاً . هذه هى حقيقة ديانة المجتمع الإسرائيلى الذى انقسم على نفسه حولها وبخاصة عندما حاول بعض اليهود القول بأن حياة الإنسان فى هذه الدنيا تمهيد لحياة أخرى والواقع أن اعتبار الحياة قنطرة إلى أخرى يتعارض مع نصوص العهـــد القديم ففى سفر اشيعا[1]: نقرأ « أن الهاوية لا تحمدك ، الموت لا يسبحك ، لا يرجو الهابطون إلى الجب أمانتك . الحى الحى هو يحمدك كما أنا اليوم الاب يعرف البنين حقك .

(١) الاصحاح ٣٨ ى ١٨

فهرست

إسرائيل عبر التاريخ

الجزء الثاني

التـــوراة

« لا يريدنا أحد »

(لودفيج ليفيزون)

أصاب اليهودى الأمريكى الصهيونى بعبارته هذه كبد الحقيقة فلا أعرف شعبا كالشعب اليهودى يبغضه الناس ويحبونه وذلك لكثرة ما جاءنا عنه فى الكتب السماوية وغيرها وقد حاول الكثيرون عبثا التوفيق بين هذه الأقوال المتضاربة المتناقضة .

وإذا أردنا اليوم إنصاف التاريخ حقا وجب علينا مراعاة الأمانة العلمية فنعرض لهذا الشعب كما عرض له الوحى فنذكر حسناته وسيئاته لذلك وجدت أن من خير الوسائل لتحقيق هذه الأمنية الاعتماد خاصة وقبل كل شىء فى هذه الموسوعة ، التى ستقدم هذا الشعب منذ البدء حتى اليوم جنسيا واجتماعيا وعقائديا وثقافيا وسياسيا ، على المصادر الإسرائيلية وتلك التى أصدرها علماء يهود سواء كانت هذه المصادر فى العبرية أو غيرها .

ويسرنى اليوم أن أقدم الجزء الأول منها خاصا بالمجتمع الإسرائيلى من البدء حتى التشريد راجيا تيسير تحقيق هذه الرسالة .